معالم
تاريخ مصر البيزنطية

دكتور
محمد محمد مرسى الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
بجامعة الأسكندرية ورئيس قسم التاريخ سابقاً

إهـــــداء ٢٠١٢
ٱستاذة/ سارة منير الجبلاوى
جمهورية مصر العربية

Sara mounir

معالم
تاريخ مصر البيزنطية

دكتور
محمد محمد مرسى الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
بجامعة الإسكندرية ورئيس قسم التاريخ سابقاً

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

من الفترات التي لم تنل حظها من الدراسة ،ولم تظفر بعناية المؤرخين كثيرا، خاصة في الشرق، فترة الحكم البيزنطي في مصر أو تاريخ مصر البيزنطية ،أي الفترة التي كانت فيها مصر ولاية بيزنطية وقطرا من الأقطار التابعة للإمبراطورية البيزنطية ،على الرغم من أن هذه التبعية استمرت نحو ثلاثة قرون و نصف القرن تقريبا ،الأمر الذي يدعو للعجب فعلا ،لا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا ما نالته مصر من اهتمام المؤرخين و الدارسين لتاريخ الفترات السابقة على هذه الفترة كفترة تبعيتها للامبراطورية الرومانية و كذلك فترة حكم البطالمة والإغريق فيها من قبل .

و يبدو أن ذلك راجع بالدرجة الأولى لإحساس المؤرخين أن مصر بخضوعها لبيزنطة في تلك الفترة قد فقدت جانبا كبيرا من أهميتها ،خاصة الأهمية السياسية و العسكرية ،على اعتبار أنها لم تكن مقرا لرأس الدولة أو حاكمها ،و إنما تولى أمرها وال يسير أمورها من قبل الحكومة المركزية في العاصمة البيزنطية ،و يلتزم بتنفيذ أوامر الإمبراطورية في القسطنطينية ،فلم تعد مصر مركز الأحداث أو حجر الزاوية ،و إنما مجرد ولاية ضمن ولايات كثيرة لا يعتد كثيرا بما يحدث فيها من أحداث داخلية ،ليس لها كبير تأثير على سياسة الدولة أو اتجاه الحكومة المركزية في العاصمة البيزنطية .

و إذ درج المؤرخون منذ القدم على الاهتمام بالأحداث السياسية والعسكرية و أخبار الغزو و الفتح و اتجاه المعارك و نتائج الحروب على أوضاع القوى المختلفة ،و عدم الاهتمام كثيرا بغير ذلك، انصرف اهتمامهم طبقا لهذا ـ عن فترة تبعية مصر لبيزنطة من هذا المنظور ،على اعتبار انه لم يكن ثمة ما يجذب الانتباه في تاريخ مصر في تلك الفترة ،الذي اعتبروه

تاريخا محليا يخلو كثيرا من الأحداث السياسية و العسكرية ،و لا يؤثر في نفس الوقت على أوضاع مصر ذاتها أو غيرها من الولايات التي ترتبط بالتبعية للإمبراطورية ،التي تحظى عاصمتها بكل الاهتمام و يوضع إمبراطورها في بؤرة الأحداث بحروبه في الشرق و في الغرب ،و بسياساته مع القوى الأخرى المحيطة و البعيدة .فأين مصر من هذه القوى و ما حجم هذه الولاية لتكون محل الاهتمام ؟

و إذ طغى الاهتمام بهذه النواحي السياسية و العسكرية ، على الاهتمام بالجوانب الأخرى في حياة الشعوب في مدنها و قراها و حقولها ومصانعها و معابدها و فرحها و ترحها ،لم تنل مصر كبير اهتمام من المؤرخين لهذه الأسباب ،لان تاريخ مصر البيزنطية كولاية تابعة لبيزنطة تبلور حول شئونها الدينية و تنظيماتها الإدارية ،و أحوالها الاقتصادية والمالية ،وأوضاعها الأمنية و القضائية ،و حياتها العلمية و الفكرية ،وحياتها الاجتماعية ،وحياتها اللغوية والأدبية ،ثم تعرضها للغزو في نهاية هذه المرحلة،ولم يتعد ذلك كثيرا ،باعتبار أنها ولاية تابعة لغيرها .يتلقى واليها وحكامها الأوامر من العاصمة البيزنطية وينفذون مشيئة تلك العاصمة .

ولم يكن ذلك من العدل في شئ ،لان تاريخ مصر البيزنطية أو تاريخ الفترة التي تبعت مصر فيها الإمبراطورية البيزنطية رغم قصره يستحق كل الاهتمام ،وأكثر من الاهتمام ،لان مصر شهد، تحولات خطيرة في كل شئونها في تلك الفترة ،في عقيدتها وشخصيتها وثرائها ،وقيم شعبها ومثله وما قدمته مدرستها العلمية وجامعتها من علم وفن وحضارة ،وتبلورت فيها الوطنية والنزعة القومية مثلما لم تتبلور في أي فترة أخرى ،و تشكلت و برزت عاداتها وتقاليدها بما انساب إليها من موروثات قديمة وما استجد من هذه العادات والتقاليد في تلك الفترة ،لتخط مصر تاريخا اجتماعيا نابضا بالحياة،وحياة اجتماعية ثرية التقت فيها موروثات القدم بما استجد من هذه

الجوانب ،و لازلنا تعيش بعض جوانب تلك الحياة الاجتماعية المميزة حتى الآن .

فليس التاريخ للأباطرة والملوك والحكام هو عصب التاريخ ،و إنما الأهم منة التاريخ للشعوب والحضارة و الدين و العقائد والمثل و القيم و الوطنية والعلم و الثقافة و الحياة الاجتماعية و غير ذلك مما أثرت به الشعوب تاريخها و صاغته الأمم بكفاحها و نضالها ،حتى في فترات التبعية لغيرها من القوى السياسية و العسكرية ،و كل هذه المعاني نجدها في تاريخ مصر البيزنطية و الفترة التي تبعت فيها مصر بيزنطة ،على الرغم من أنها ـ تعد في عمر الشعوب ـ فترة قصيرة لم تزد عن ثلاثة قرون و نصف القرن ،لكن أثرها كان بعيدا في تاريخ الشعب المصري .و إسهامها كان عظيما في نهضة هذه الأمة ،وفيما سطرته من أحداث في العصور اللاحقة .

فلا يستطيع أحد أن ينكر الدور الذي لعبته الكنيسة المصرية ورجال الدين في الإسكندرية في بلورة و تحديد التعاليم الأساسية للمسيحية في كل أنحاء العالم المسيحي بل في كل أنحاء الدنيا في ذلك الوقت ،ولا أحد يستطيع أن يغفل أن هذه الكنيسة عنيت بتوجيه ما نشب من خلافات دينية و حسمها في العالم المسيحي بأسره ،و الانتصار للرأي الأمثل في نظر الكنيسة المصرية ولو دفعت مصر في ذلك ثمنا من حريتها و سيادتها و تعرضت لسيل من الاضطهاد و التنكيل ،فلا زالت الكنيسة المصرية في مصر البيزنطية أعظم كنائس الدنيا و أكثرها حدبا على العقيدة و جوهر هذه العقيدة وفلسفتها،ولعب رجال الدين في الإسكندرية دورا بارزا فيما جرى من خلافات حول أسس العقيدة المسيحية و أبرز قضاياها في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وكان يمكن لبطريرق الإسكندرية أن يصبح أكبر شخصية دينية في الدنيا ،و تتبوأ الإسكندرية المكانة التي حازتها روما بعد ذلك ،لولا ما جرى من حقد على الإسكندرية و مكانتها و اتفاق بين كل من القسطنطينية و روما ضد الإسكندرية في مجمع خلقدونيا الذي عقد في مستهل

النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي (٤٥١ , و جرى فيه تحجيم دور الإسكندرية و الوقوف في وجهها ،و محاولة التقليل من شانها ،ليس انتصارا للحق و العدل ،و إنما حقدا و بغضا و كراهية .

و ليت الأمر توقف عند هذا ،بل انه تعدى ذلك كثيرا حين حاولت بيزنطة فرض ما لا تقبله مصر من نحل و مذاهب على أهلها بالقوة أحيانا و اللين أحيانا أخرى ،فاستخدمت القسوة و العنف في أكثر الأحيان لإخضاع المصريين لمشيئتها ومذهبها و عرضتهم لشتى أنواع التنكيل و التعذيب لحملهم على التحول إلى مذهبها ،و غلى هذا جرى التاريخ البيزنطي في مصر ،و لهذا كرهها المصريون و تمنوا زوالها و أبغضوا الحكم البيزنطي بغضا شديدا ،فلم تكن ثمة قوة كرهت في مصر مثلما كرهت بيزنطة ،و لم يبغض المصريون محتلا أو مسيطرا مثلما أبغضوا بيزنطة طوال فترة حكمها في مصر ،ولم تكن ثمة فترة تعرض فيها المصريون لكل هذا الإذلال مثلما تعرضوا في الفترة البيزنطية و كل هذه الأحداث نراها في تاريخ مصر البيزنطية .

كما لا يستطيع أحد أيضا أن يتجاهل ما كانت علية مصر من ثراء و عظمة اقتصادية في فترة تبعيتها لبيزنطة ، و ما حفلت به مصر من غنى وثراء في قرون التبعية لتلك الإمبراطورية ،و لعل ذلك كان السبب الرئيسي الذي من أجله واصلت بيزنطة احتلالها لمصر و إخضاعها لسيطرتها ،بعد أن اعتادت الاعتماد طويلا على ما كانت تجود به تلك الولاية من قمح وأموال،حصلتها كضرائب متنوعة تفننت طويلا في تصنيفها و تسمياتها .و إن هدفت كلها لاستنزاف ثروات البلاد و استغلال شعبها ،و الاستحواذ على ما يمكن أن تبتزه من أموالها و ثرواتها على مدى الفترة كلها ،فلقد واصلت بيزنطة الإفادة من هذا الثراء و اضطرت أحيانا ألي استخدام القسوة و العنف في جباية ما كانت تقره من ضرائب و مكوس و قمح على أهل مصر،وعرضتهم لشتى أنواع التنكيل و الجور للاستحواذ على ما في أيدي الناس و الحصول على أرزاقهم لا سيما القمح الذي بلغ ما كان يشحن منة إلى القسطنطينية في

بعض السنوات نحو ثمانية ملايين أردب في كل عام ،فضلا عما كانت تحجزه في مصر من القمح لإطعام جيوشها و موظفيها ،و ما تجود به على فئات أخري من رعاياها في تلك الولاية المنكوبة .

ولعل ذلك العسف والجور والقسوة في ج...ة الضرائب والمكوس هو الذي أضاف إلى كراهية المصريين لهذه السلطة، وجعلهم يتمنون زوالها ويواصلون الكفاح للخلاص منها ففجروا الثورات وأحدثوا في وجهها الاضطرابات والقلاقل على مدى الفترة كلها، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا الفكاك وضاعت صرخاتهم في خضم ذلك المحيط من السيطرة والتحكم، ولم تفلح جهود المصريين في الخلاص، فتطلعوا إلى من يخلصهم من هذا الجور ويعطيهم فرصة العيش في أمن وأمان وعدل وتسامح، فكان الغزاة هم الفرس وكان الفاتحون هم العرب.

وأهم من ذلك كله ما أحدث من تبلور النزعة القومية المصرية وبروز الروح الوطنية الأصيلة في هذه الفترة والشعور القومي الطاغي، الذي لم يظهر في مرحلة مثلما ظهر في هذه المرحلة من تاريخ مصر. فقد كان اعتزاز المصريين بمذهبهم الديني وإخلاصهم لهذا المذهب سببا فيما لجأت إليه بيزنطة من اضطهادات دينية لهم، فأسهم ذلك كله في بلورة الروح القومية وبروز الشعور الوطني عند المصريين. ولا زال قارئ تاريخ هذه الحقبة يبدى تعاطفا وميلا إلى أولئك الوطنيين الذين تفانوا في وطنيتهم وتحملوا من أجلها مالا يطيقه أحد وبلوروا روح مصر الأصيلة ونزعتها الوطنية الطاغية واعتزازها بقوميتها الأصيلة في مواجهة هذا المسيطر البغيض.

ولا أحد يستطيع أيضا أن يتجاهل الدور الذي لعبته مدرسة الإسكندرية العلمية وجامعتها بمكتبتها ومتحفها في إثراء الحركة العلمية في مصر البيزنطية، وجعل الإسكندرية مركز الإشعاع الثقافي والفكري في مصر كلها وعلى الأقطار القريبة والمحيطة جميعا، ومقصد طلاب العلم من كل أنحاء الدنيا ومحط رحال العلماء والدارسين من كل حدب وصوب يفدون إلى

هذه المدرسة العلمية المميزة والجامعة التي أثرت الدنيا علماً وحضارة ليس في العلوم النظرية فحسب، بل أيضاً في العلوم التطبيقية أو التجريبية بعلمائها الكبار الذين ذاع صيتهم في الرياضيات والعلوم والكيمياء والطب والفلك، فضلاً عن الفلسفة والمنطق والآداب واللاهوت وبقية العلوم النظرية الأخرى، وإذا كان بعض هؤلاء العلماء في مدرسة الإسكندرية وجامعتها ظل على وثنيته شطراً من القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، ولم يتحول إلى العقيدة المسيحية التي سادت في مصر في ذلك الوقت، فقد أسهم العلماء المسيحيون أيضاً في إثراء الحركة العلمية والنهضة الثقافية في مصر البيزنطية كثيراً، وأعطوا لمدرسة الإسكندرية العلمية شهرة عظيمة في كل أنحاء الدنيا في ذلك الوقت، فضلاً عن أن العلم لا وطن له ولا عقيدة ولا يختص به الوثنيون أو أصحاب العقيدة أيا تكون .

ولا أحد ينكر أيضاً إنه في مصر البيزنطية التقت الموروثات المصرية القديمة في التقاليد والعادات والحياة الاجتماعية ، بما استجد من هذه الجوانب في الفترة البيزنطية في مصر -كما سبق أن أشرنا- حيث شهدت مصر حياة اجتماعية مميزة، لازلنا نعيش جانبا كبيرا منها حتى الآن، ونعلم تماماً ما امتزج فيها من موروثات القدم بما عاشته مصر البيزنطية من تقاليد وعادات مستمدة من العقيدة المسيحية التي انتشرت في مصر في تلك الفترة انتشاراً واسعاً والتي مهما كان للدين فيها من تهذيب وتقويم فلا بد أن يتسلل إليها تراث الأقدمين وقيمهم وإن أجهد المصريون أنفسهم في إلباس هذه الموروثات لباساً جديداً يساير ما أصبحوا يؤمنون به ويقرونه من قيم ومثل مستمدة من عقيدتهم ودينهم في تلك الفترة .

ونأتي إلى جانب آخر برز في تاريخ مصر البيزنطية أيضاً، وهو الحياة اللغوية والأدبية ، وقد أجابت لنا مصر البيزنطية على تساؤلات كثيراً ما ألحت علينا لم نكن ندري لها جواباً، ما بال ما يتخلل لغتنا العربية من كلمات وتعبيرات ومصطلحات نشعر أنها ليست من العربية ولا تمت لها

بصلة فإذا بها قد انسابت من لغتنا المصرية القديمة، التي غدت في الفترة البيزنطية اللغة القبطية أو بمعنى أدق اللهجة القبطية، التي غدت الدارجة من اللغة الديموطيقية ، وهى آخر مرحلة من مراحل تطور اللغة المصرية القديمة، والتي ظلت تستخدم في مصر حتى بعد الفتح العربي وانتشار اللغة العربية بين المصريين وانحسار اللغة اليونانية التي كانت لغة الدواوين في البلاد في تلك الفترة ثم بدأ انحسار القبطية التي كانت لغة الحديث والتخاطب بين المصريين، لتصبح لغة الأقلية وتتوارى شيئاً فشيئاً بمرور الوقت لتحل محلها العربية، بعد أن انسابت فيها تلك الكلمات والتعبيرات والمصطلحات بعد معايشة للعربية فترة ليست قصيرة وتلك هي الإجابة على ما عنّ لنا من تساؤلات .

لهذه الاعتبارات كلها أحسسنا بأهمية هذه الفترة الزمنية من تاريخ مصر، وشعرنا بمدى عظمة ما شهدته مصر خلالها من تحولات، فكانت جامعة الإسكندرية أول جامعة تولى هذه الحقبة اهتماماً خاصاً فوضعت "تاريخ مصر البيزنطية" في لائحتها لأول مرة وضمن المقررات التي تدرس لطلاب قسم التاريخ بكلية الآداب، وذلك منذ نحو عشرين عاماً، وكان لي شرف القيام بتدريس هذا المنهج لأول مرة في ذلك الوقت. وإذا لم يكن أمامنا من الوقت حينئذ ما يمكننا أن نقدم في هذا الموضوع ما كنا نؤمل ونتمنى ، وأجبرنا على أن نضع في عجالة ما يوفى بهذا الغرض ويسد هذا الفراغ، إكمالاً لما يدرسه الطالب من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فإننا الآن نحاول أن نضع هذا الموضوع في درجته من الأهمية، ونقدم تاريخاً دقيقاً وشاملاً لأحداث هذه الفترة مدعماً بالمصادر والوثائق والبرديات والمراجع التاريخية العربية على قلتها والأجنبية على كثرتها، آملين أن يلقى ذلك كله ما هو جدير به من الاهتمام والتقدير.

ولست بحاجة إلى القول بأن المؤرخ لتاريخ مصر البيزنطية في وقتنا الحاضر لا يتوقع أن يجد سهولة في استقاء مادته أو الحصول على مصادر هذه

الفترة، كما لا يتوقع يسراً في عرض ما يمكن استقاؤه من تلك المصادر، لأن هذه الفترة بالذات من أكثر فترات التاريخ المصري غموضاً وصعوبة فضلاً عن أن مصر باعتبارها ولاية من ولايات الإمبراطورية البيزنطية ،لم تحظ بما يمكن أن تحظى به العاصمة من اهتمام المؤرخين العاصرين وكتابات المؤرخين المعاصرين لتلك المرحلة، فاقتصر الأمر على ما ورد في كتابات المؤرخين البيزنطيين أمثال بروكبيوس وثيوفانيس وبعض المؤرخين المصريين الذين عاصروا نهايات هذه المرحلة وشهدوا جزءاً من تاريخ المسلمين في مصر بعد الفتح العربي لها أمثال المؤرخ ورجل الدين المصري حنا النقيوسي ، هذا فضلاً عن مجموعات أوراق البردي خاصة تلك التي اهتم بها وترجمها ونشرها المؤرخ والأثرى ذائع الصيت ماسبيرو أو التي استفاد منها في مؤلفاته الكثيرة بالفرنسية فضلاً عن بعض الوثائق والمدونات، وما ورد في كتب سير القديسين والرجال الصالحين وكتابات آباء الكنيسة الأول ورواد الرهبانية والديرية ورجال الدين في مصر البيزنطية، وكلها تلقى الضوء على جانب أو آخر من تاريخ هذه الحقبة، وإن كانت هناك صعوبة في الاستفادة من كل ذلك. أما المراجع الحديثة فللأسف الشديد لم يكتب منها عن هذه الفترة في الشرق سوى القليل، وهذا القليل تناول جانباً أو آخر من تاريخ هذه الحقبة باستثناء ما كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور/ السيد الباز العريني في ذلك، ولهذا وجدت من واجبى أولاً تناول كل الجوانب في تاريخ هذه الفترة من ناحية ومحاولة تقديم الجديد بالنسبة لما قدم من قبل من ناحية أخرى، خاصة وأن تلك المؤلفات على قلتها كتبت منذ نحو ثلاثين أو أربعين عاماً كشف خلالها عن كثير من الوثائق والبرديات.ونشرت كثير من المراجع الحديثة في الغرب بالفرنسية والإنجليزية، فكان لابد من الاستفادة من كل ذلك للإحاطة بكل جوانب هذا التاريخ في هذا المؤلف المتواضع.

وسوف يجد القارئ إن شاء الله الجديد في هذا المؤلف ويستطيع أن يلم بالإضافات التي حرصت على إبرازها في كل فصل من فصول هذا الكتاب،

خاصة فيما يتعلق بالدين والشئون الدينية ، وفى دراسة التنظيمات الإدارية والمالية والاقتصادية ، ويجد فصلا جديدا ومطولا عن الإسكندرية في العصر البيزنطي باعتبار هذا الكتاب محصلة لاهتمام جامعة الإسكندرية بتاريخ مصر البيزنطية، كما تناولت النواحي العلمية والفكرية في مصر البيزنطية، وفصلا مستقلا عن أثر المسيحية في حياة الشعب المصري في تلك الفترة بالإضافة إلى دراسة الحياة الاجتماعية والحياة اللغوية والأدبية، فضلا عن أن الفصل الخاص بالفتح العربي في نهاية العصر البيزنطي في مصر عرضته عرضا مفصلا ومن منظور مصر البيزنطية معتمدا في جله على ما دونه المؤرخ المصري ورجل الدين المعاصر حنا النقيوسى مدعما بما ورد في حوليات ثيوفانيس البيزنطي ومقارنا بما سجلته المصادر الإسلامية المعاصرة والقريبة العهد فضلا عن عدد كبير من المراجع التي صدرت في الشرق وفى الغرب على حد سواء، وكل هذه الجوانب لقيت منى عناية واهتماما خاصا وحاولت جاهدا أن أضيف فيها الجديد.

فعسى أن يحظى هذا العمل المتواضع بالرضى والقبول ويكون للقراء والدارسين وطلاب الدراسات العليا إسهاما متواضعا لإجلاء ما غمض من تاريخ هذه الحقبة، لا نبغي به سوى وجه الله سبحانه وتعالى ووجه العلم، كما أتمنى أن يجد فيه السادة الزملاء بعض ما يؤملون وأن يأخذ هذا العمل المتواضع مكانة في المكتبة العربية مرجعا من مراجع التاريخ بصفة عامة والتاريخ المصري بصفة خاصة.

وعلى الله قصد السبيل

والله أسأل أن يوفقنا ويلهمنا الصواب والرشاد

انه نعم المولى ونعم النصير

محمد محمد مرسى الشيخ

الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية من عهد دقلديانوس
إلي عهد هرقل

الفصل الأول

أحوال الإمبراطورية من عهد دقلديانوس إلى عهد هرقل

بلغت الإمبراطورية الرومانية درجة كبيرة من الانهيار والاضمحلال في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، خاصة قبيل اعتلاء الإمبراطور دقلديانوس العرش سنة ٢٨٤ م ، فاضطربت أحوالها السياسية ، وتعرضت لسيل من الانقلابات العسكرية [١] ، وانهارت أسسها الاقتصادية [٢]، واختل بناؤها الاجتماعي [٣] ، واضطربت شئونها الدينية [٤] وغدت بحاجة ماسة لإمبراطور يقيلها من عثرتها ويرمم التصدع الذي بدا في جسدها ، وتحقق ذلك فعلا بولاية الإمبراطور دقلديانوس في أواخر القرن الثالث الميلادي [٥] .

حاول الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥ م) معالجة تدهور أحوال الإمبراطورية ،وترميم التصدع الذي أصابها ، بإدخال تغييرات أساسية في

---

(1) Cantor : Medieval world 300-1300 , p. 11
(2) Camb. Med. Hist , V. I , P. 43
Katz : the decline of Rome , p. 43
(3) Cantor : Medieval Hist. P 29
(4) Chadwick : The Early Church , p116.
Ostrogorski :Hist. Of the Byzantine State. P. 44
(5) Camb. Med. Hist . V. I, p. 26
Hussey : The Byzantine world. pp. 13-14

نظم الدولة وسياستها، ليتفادى ما يمكن أن يحدث من انهيار تام لها ، ويمنع حدوث الاضطرابات والانقلابات العسكرية التي كانت تقع عادة عند انتهاء عهد إمبراطور وتولي إمبراطور آخر ، وما كان يحدث من بروز طموح القادة العسكريين، وتحكم فرقهم العسكرية في سياسة الدولة ، ورفع الأباطرة إلى السلطة أو الإطاحة بهم بعيدا عنها. (٦)

وفي سبيل ذلك جعل دقلديانوس من الإمبراطور شخصية مقدسة تؤدي له فروض الطاعة والتقديس من خلال طقوس خاصة في العبادة، استمدها أو استمد الجانب الأعظم منها من طقوس الشرق وتقاليده(٧)، كما جعل الإمبراطور مهابا له حكم مطلق ، ويجمع في يده كل السلطات السياسية والإدارية، وترتب على ذلك الإقلال من سلطة مجلس السناتو وإلغاء وظيفة المستشار ، كما لجأ دقلديانوس إلى إدماج الولايات في وحدات إدارية كبيرة ، وركز كل إدارات الإمبراطورية في أيدي موظفين كبار، وجعلهم جميعا تابعين مباشرة للإمبراطور ، وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية(٨)

كما آمن دقلديانوس أن الدفاع عن إمبراطورية مترامية الأطراف لا يتأتى لإمبراطور واحد، وأنه كلما تزايد عدد الأباطرة قلت الفرص أمام الثائرين وتضاءل أملهم في الفوز بالمنصب الإمبراطوري (٩) ، فحمله ذلك على أن يشرك زميله مكسيميان معه في الحكم ، ويمنحه لقب أوغسطس، كما رفع

---

(6) Rice: Byzantium, p. 10

(٧) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ج١ص ٢٨٧ (مترجم)

(٨) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية ص ١٤٥-١٦٨

(9) Ostrogorski : op. cit,pp . 31-32
Maclagan : The city of constantinople , p. 17

أثنين آخرين إلي منصب الإمبراطور، ومنح كلا منهما لقب قيصر واقتسم الأربعة أركان الإمبراطورية الرومانية (١٠)، وأسند إلى مكسيميان مهمة الدفاع عن الغرب، واحتفظ لنفسه بمهمة الدفاع عن الشرق.

وبذلك حقق دقلديانوس عدة أهداف في وقت واحد، فعالج الأحوال السياسية، وقضى على الانقلابات العسكرية ، ومن الطموحين والمتهورين من التطلع إلى السلطة ، وفي نفس الوقت أسند مهمة الدفاع عن البلاد إلى عدد من الأباطرة إلى جانبه(١١) ، كانوا أصلا من القادة العسكريين ، فغدت الأقسام الرئيسية للدولة تحت حماية أربع من الأباطرة إثنين يحملان لقب أوغسطس، والاثنين الآخرين يحملان لقب قيصر، فانتهت بذلك متاعب الإمبراطورية في الجانب السياسي والدفاعي.

ولقد وقع عبء إكمال هذا البرنامج الإصلاحي علي الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) الذي خلف دقلديانوس في حكم الإمبراطورية ، والذي ما لبث أن انفرد بالسلطة دون بقية الأباطرة ، وبدأ عهدا جديدا في تاريخ الإمبراطورية باعترافه بالمسيحية كإحدى الديانات في الدولة (١٢)، ورفع الغبن والاضطهاد عن أتباعها، الأمر الذي اعتبره كثير من المؤرخين فاتحة التاريخ البيزنطي.

كما شيد قنسطنطين مدينته الجديدة التي نسبت إليه وعرفت بالقسطنطينية مكان مدينة بيزنطة القديمة وفي موضعها ، لتصمد هذه المدينة

---

(10) Katz: op. cit. p, 44

(11) Rice : op. cit .pp. 10-11

فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ق١ ص٣ ،

جيبون : المرجع السابق ص ٢٩٠

(12) Chadwick : op. cit. p. 122

الجديدة للأحداث والمحن أكثر من ألف عام ولتحمل ملامح العصر الجديد في ذلك القسم من الإمبراطورية . بل إنها ما لبثت أن بزت روما وتفوقت عليها[١٣]. خاصة بعد أن اضمحلت هذه وضعفت على إثر تعرضها لمخاطر الغزو الخارجي وتهالك الحكام وضعف السلطة ، في الوقت الذي نجح فيه قنسطنطين في إتمام الإصلاحات التي كان قد بدأها دقلديانوس وأعطاها الصيغة النهائية[١٤] لتصبح الإمبراطورية البيزنطية ذات طابع خاص، وتسير في اتجاه خاص بها ، انحصرت فيها السلطة الإداريّة والسياسية في البلاط الإمبراطوري.

وخلال عصر دقلديانوس حدثت اضطهادات شديدة لأتباع المسيحية وأشياعها . وخاصة في مصر التي كانت إحدى الولايات التابعة للإمبراطورية. والتي انتشرت فيها المسيحية انتشارا حثيثا، بما كانت تمثله من تحد كبير لسلطة الإمبراطورية، وترهص بالقضاء على الولاء للإمبراطور[١٥]. لذا اشتد دقلديانوس في اضطهاده لأهل مصر ، وأذاقهم ألوان العذاب، حتى شهدت السنوات الأخيرة من عهده محنة حقيقية لأقباطها راح ضحيتها أعدد كبيرة منهم ، فضلا عمن نفي، سجن أو هام على وجهه في الصحاري والقفار، كما أحرقت كتبهم المقدسة ، وهدمت دورهم وكنائسهم. وتعرضوا لأشد أنواع التنكيل[١٦].

---

(١٣) جيبون: المرجع السابق ج١ص٥٠٥،

Bynes & Moss : Byzantium , p .53

(14) Hussey : op. cit. p. 13

Burckardt: The Age of constantine the great. P.342

(15) Lot :The end of the Ancient world , p. 24

جيبون : المرجع السابق ج١ ص ٤٤٦

(16) Ostrogorski :op. cit pp. 42- 44

وإذا كان قنسطنطين الكبير قد وضـع حـدا لهـذه المحنـة ، باعترافـه بالمسيحية كإحدى الديانات في الدولة، فقـد أعطـى بذلـك للكنيسـة المصريـة فرصة عظيمة للنمو والازدهار ، لتدلى بدلوها في الأحداث وتوجه العالم بأسره في الأمور الدينية ، وتتصدر الموكب الديني الذي أصبح أحد المعـالم الرئيسـية للحقبة الجديدة، والذي أسهمت فيه مصر بالنصيب الأوفر (١٧)، كما سوف يتضح في الصفحات التالية.

فلقد شهدت الحقبة الممتدة من سنة ٣٠٦م بولاية قنسطنطين الكبير، وحتى سنة ٦٤١م أي عند وفاة الإمبراطور هرقل، وهي الفترة التي امتـدت نحو ثلاثة قرون وثلث تقريبـا، والفـترة التي اصطلح المؤرخـون أيضـا علـى اعتبارها الحقبة البيزنطية في مصر ، أو الحقبة التي كانت فيها مصـر تابعـة لبيزنطة ، شهدت هذه الحقبة حكم أربع أسرات بيزنطية وبداية حكم الأسرة الخامسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية(١٨).

إذ حكمت أسرة قنسطنطين في القسطنطينية حتى مستهل الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، أي فيما بين سـنتي ٣٠٦و٣٧٨ م ، لتليـها أسـرة ثيودسيوس العظيم فيما بين ٣٧٩و ٤٥٧م ثم أسرة ليو التي أمتـد عـهدها مـن سنة ٤٥٧ إلى سنة ٥١٨ م ، فأسرة جستنيان فيما بين سـنتي ٥١٨ و ٦١٠ م ثم عهد الإمبراطور هرقل حتى سنة ٦٤١م (١٩).

وعنـد وفـاة مؤسـس الأسـرة الثانيـة مـن هـذه الأسـرات في تـاريخ الإمبراطورية "ثيودسـيوس العظيـم" سـنة ٣٩٥م ، انقسـمت الإمبراطوريـة إلى

---

(17) Chadwick : op. cit. p. 125
Ostrogorski : op. cit. p. 44

(١٨) محمد الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ٢٦-٧٤

(19) Ostrogorski : op. cit. pp. 101-103

وعند وفاة مؤسس الأسرة الثانية من هذه الأسرات في تاريخ الإمبراطورية "ثيودسيوس العظيم" سنة ٣٩٥م ، انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين قسم في الشرق وقسم في الغرب، جرت فيهما الأمور بطريقة مختلفة ، وأكد هذا الانقسام تجسيد الكيان البيزنطي في الشرق [٢٠]، حيث تطورت المسيحية في الشرق بطريقة تختلف عما تطورت به في الغرب ، بالإضافة إلى أن القوة العظمى للإمبراطورية أخذت تنمو في الشرق أكثر من نموها في الغرب، فضلا عما حدث من تعرض الغرب الأوربي لهجمات البرابرة والجرمان الأمر الذي جعل الأحداث تجري فيه بطريقة تختلف عما جرت به الأحداث في الشرق[٢١].

فضلا عن أن بعض أباطرة هذه الأسرة الثانية كانوا ضعافا ، عانت الإمبراطورية خلال عهودهم كثيرا، وكذلك خلال عهود أباطرة الأسرة الثالثة التي تلتها، وهي أسرة ليو، التي لم تقدم للإمبراطورية ما كانت في حاجة إليه من القوة أو المنعة والازدهار، و تقلب على الحكم خلال عهدها عدد من الأباطرة الضعاف حتى نهاية عهدها سنة ٥١٨ م [٢٢]، واعتلاء أسرة جستنيان العرش وهي الأسرة التي حكمت فيما بين سنتي ٥١٨و٦١٠ م والتي بدأت فترة جديدة في تاريخ الإمبراطورية وفي تاريخ أوربا في ذلك الوقت، لأن الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) لم يساير الأباطرة قبله في سياستهم التقليدية بالتضحية بسلطانهم في الغرب في سبيل الحفاظ على سلامة الشرق

---

(20) Lot : op. cit. p. 201

(21) Keen : A Hist . of Med Europe, p. 6

العريني : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٣٩

(22) Bury : A Hist. Of the later Roman Empire , 1, p 406

Katz: op. cit. p. 73

وسلطانهم في الشرق، بل تطلع إلى استرجاع سلطان الإمبراطورية في الغرب الأوربي. وبعث الإمبراطورية الرومانية القديمة من جديد، واستعادة سلطتها على الأقاليم الغربية التي خضعت للجرمان خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين.[٢٣]

فقد بدأ جستنيان سلسلة من الحروب الضارية في شمال إفريقيا وفي إيطاليا وعلى سواحل أسبانيا الشرقية والجنوبية الشرقية، محاولا إعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية كما كان من قبل ، وطرد الجرمان من أقاليم الإمبراطورية الغربية، واستنفد في ذلك جانبا كبيرا من جهود الدولة ونشاطها، وأنهك في ذلك قواها وأفلس خزائنها ، في الوقت الذي اشتدت فيه مطامع الفرس فيها من الشرق[٢٤] أي أنه أشترى الجزء الغربي بتعريض الجزء الشرقي للإخطار الشديدة ، واضطر أحيانا إلى أن يطأطأ الرأس للفرس، ويعقد معهم صلحا مهينا دفع بموجبه الجزيه للفرس ، وأتبعه بمعاهدات أخرى دفع فيها أموالا باهظة أنهكت الدولة وأفلست خزائنها ، وترك الإمبراطورية أقل رومانية مما كانت عليه قبل اعتلائه العرش ، وتسبب في تعريضها لأخطار جسيمة.[٢٥]

وإذ اهتم جستنيان ببعث الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وإحياء سلطانها في الغرب ، حاول أيضا إعادة وجهها الحضاري، وإبراز واجهتها

---

(23) Pirenne: Mohamed and Charlemagne , p. 68
Vasiliev: The Byzantine Empire ,1, pp. 135 - 139

(24) Ostrogorski : op. cit. p. 72
Cantor : Med [illegible] . p. 164

(25) Vasiliev: op. cit. v. 1, p. 161
Ostrogorski: op. cit. p. 72

الحضارية ، خاصة في ميدان التشريع مدركا بذلك عظم الفائدة التي يمكن أن تعود على الإمبراطورية من جمع مصادر القانون الروماني ونشرها على الناس بشكل يمكن تداوله والرجوع إليه في يسر وسهولة [٢٦]، لأن روما كانت في مقدمة الأمم التي عنيت بالتشريع بل هي التي أسست علم القانون ، في الوقت الذي كان فيه القانون الروماني لا زال معمولا به في عصر جستنيان ، فكلف جستنيان لجنة من أبرز فقهاء القانون الروماني بهذه المهمة فنهضوا بهذا العبء على خير وجه[٢٧]وأصدروا في النهاية مجموعة القانون المدني الروماني، وهي المجموعة التي نسبت إلى جستنيان ، وخلدت ذكره في الخافقين، وغدت المرجع الأصيل الذي تعتمد عليه المحاكم ومدارس القانون في كل أنحاء الإمبراطورية، بل أنها غدت المصدر الذي استمد منه القانون المدني الحديث بكل ما يحمله هذا من معنى. [٢٨]

كما انعكست إصلاحات جستنيان الداخلية على أحوال الأقاليم التابعة للإمبراطورية بما في ذلك مصر، فقد التفت جستنيان للمشكلات التي عانت منها الإمبراطورية طويلا في الداخل، وقام بعدة إصلاحات هدف منها القضاء على تذمر الرعايا في أنحاء الإمبراطورية، خاصة وقد أظهر كثير من الناس استياءهم من خلال ثورة فجروها في القسطنطينية سنة ٥٣٢ م وهي الثورة التي عرفت بثورة نيقا[٢٩] ، والتي كادت تطيح بالإمبراطور بعد سنوات قليلة

---

(26) Savigny : The Hist . of Roman law during the Middle Ages, V.I pp. 10-15, in Cantor : the Med. World, p. 85

(27) Bury : op. cit . 2, p. 396

(28) Cantor : The Med. World, 300- 1300, p. 83
Rice : op. cit . pp. 36-37

(٢٩) فشر : المرجع السابق ج١ ص ٤٦ ،

قليلة من اعتلائه العرش ، لولا ثبات زوجه ثيودورا وإصرارها على الحفاظ على العرش الإمبراطوري ، مما عجل بإنهاء هذه الثورة ، والقضاء على رؤوس الفتنة الذين أشعلوها.[٣٠]

واتخذ جستنيان كذلك خطوات من شأنها إصلاح أحوال الحكومة وتقوية سلطتها فرفع رواتب الموظفين وألغى في نفس الوقت الوظائف الزائدة، وأعاد الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية[٣١]، وجعل للموظفين بعض الاستقلال في الإدارة مع ربط الإدارات بالسلطة المركزية، وحد من امتيازات كبار الملاك الذين كانوا خطرا داهما على الطبقة الوسطى وعاملا هاما في إعاقة الدولة عن تحقيق التقدم والرفاهية.[٣٢]

غير أن حاجة جستنيان للأموال لتمويل مشروعاته الحربية لمواجهة النفقات الباهظة لإقامة منشآته المعمارية ، قد ألجأه إلى استعمال القسوة في جمع الضرائب مما ألقى بأعباء كثيرة على الشعب فقد ألزم عماله وموظفيه باتباع الشدة في جباية الضرائب والشدة في طلب المال بكل الطرق ، فضلا عن أنه غير العملة وجعل الموظفين مسئولين شخصيا عن جمع الضرائب فاتخذ الموظفون من جانبهم إجراءات تعسفية لجمع المال من الشعب إرضاء للإمبراطور ، فتسبب ذلك في اضطراب الشئون الاقتصادية في الإمبراطورية، والتأثير الكبير في الحركة الإصلاحية التي قام بها جستنيان .[٣٣]

---

(30) Lemerle : Histoire de Byzance, p. 47,

بينز : الإمبراطورية البيزنطية ص ٣١ (ترجمة د. حسين مؤنس محمود زايد)

(31) Vasiliev :op. cit. V.1, p. 159

(32) Lemerle : op. cit. p. 61,

العريني: تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ١٤١

(33) Vasiliev : op. cit. V.1, p. 142

فاضطر جستنيان تحت وطأة المحنة الاقتصادية إلى إيقاف ما كان قد بدأه من أعمال إنشائية كثيرة كان قد صرف عليها جانبا كبيراً من دخل الدولة حين مد الطرق وأنشأ القناطر وشيد الحصون والقلاع وبنى الكنائس والأديرة (٣٤) قبل أن يوقف كل ذلك بعد أن أثقلت الضرائب كاهل الناس، فضلا عما لقيته الإمبراطورية من معوقات تجارية من قبل الفرس الذين سيطروا على أحد الطرق الهامة التي تصل من خلالها متاجر الشرق من الهند والصين عبر الخليج إلى العراق، فحاول جستنيان تحويل التجارة إلى الطريق الشمالي الذي يمر بوسط آسيا فبحر قزوين فالبحر الأسود أو الطريق الثالث عبر البحر الأحمر فموانئ مصر، إلا أنه لم يستطع ، وفشل في التخلص من منافسة الفرس الاقتصادية ومغالاتهم في فرض الضرائب الجمركية ، كوسطاء تجاريين (٣٥) .

وفي الوقت الذي حاول فيه جستنيان التغلب على المصاعب الاقتصادية، ومنع تفاقم المشاكل الاقتصادية في الدولة ، شهدت صحارى مصر نشأة وتطور حياة الرهبنة والرهبان الذين راحوا يتمتعون بحرية واسعة جعلتهم يتدخلون تدريجيا في الحياة السياسية والحياة العامة، وأخذ عددهم يزداد بمرور الوقت، (٣٦)ونفوذهم يقوى في المجتمع ، وأوقفت عليهم الأوقاف والهبات والتبرعات التي كانت معفية من الضرائب في كثير من الأحيان ،

---

(٣٤) كانتور: التاريخ الوسيط، القسم الأول ص٢٢٠ (ترجمة د: قاسم عبده قاسم)

(٣٥) أسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ج١ ص ١٧٧

(36) Meinardus : Monks and Monasteries of the Egyptian deserts, p. 180

مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي ص ٢١١-٢١٢

فظهرت بذلك طبقة جديدة في المجتمع غدا لها دور هام ، خاصة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أيضا. (٣٧)

أما سياسة جستنيان الدينية وانعكاساتها على مصر البيزنطة ، فيبدو أنه اعتقد أن بوسعه أن يعيد الوحدة الدينية إلى المسيحية مثلما أعاد لهم الوحدة السياسية ، مع حماية العقيدة المسيحية من كل ما يتهددها لا سيما من قبل المهرطقين (٣٨)، ومعتنقي المذاهب الفلسفية ، فأظهر حرصا صادقا على حماية العقيدة. وأمر بإغلاق مدارس أثينا الفلسفية سنة ٥٢٩ م ، وجرى إبعاد كل من تثور الشكوك في صدق عقيدته ، كما أبعد اليهود من المناصب الهامة في الدولة فتعرضوا في عهده لاضطهاد عنيف (٣٩)

لكن على الرغم من ذلك عزت الوحدة الدينية على التحقيق ، لأن جستنيان تجاهل ما بين الشرق والغرب من اختلاف مذهبي(٤٠). حقيقة بني جستنيان آراءه وأفكاره على مبدأ السلطة الاستبدادية وافترض أن كل شيء في الدولة إنما يخضع لسلطة الإمبراطور ، وأنه يصح للحكومة أن تستخدم الكنيسة لتحقيق أهدافها واتخاذها سلاحا قويا ضد أعداء الدولة ، لذلك بذل جستنيان كل ما في وسعه لإخضاع الكنيسة وجعلها في خدمة الدولة ، إلا أنه

---

(٣٧) عزيز سوريال عطية ومنير شكري : عبقرية الأنبا باخوم وأثرها على الرهبنة والحضارة الغربية ص ١٠٦

(٣٨) بينز : المرجع السابق ص ١٠٧-١٠٨

(39) Vasiliev : op. cit. v.1, p. 150
Ostrogorski: op. cit. p. 71
محمد الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٢ (ط ١٩٩٤)

(40) Chadwick : op pp. 208-209

مع ذلك لم يستطع تحقيق الوحدة الدينية للإمبراطورية أو تحقيق ما كان ينشده من خضوع الكنيسة لسلطان الإمبراطور [٤١] .

ذلك أنه بينما تحمست الأقاليم الشرقية في الإمبراطورية، لا سيما مصر والشام وفلسطين لمذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي)، تمسك الغرب الأوربي بمذهب الطبيعتين وأمعن في تسفيه المونوفيزيتية [٤٢] وحرص على إرضاء البابوية وكنيسة روما وإقامة علاقات الود معها، خاصة وقد اعتنق الغرب الأوربي هذا المذهب وتحمست له البابوية ، إذ كان جستنيان في حاجة ماسة لمساندة البابوية خلال حروبه في إيطاليا ضد القوط الشرقيين، فأظهر حماسة لمذهب الطبيعين لكسب ود البابا والغرب ، إلا أن عاملا جديدا ما لبث أن أجبره على تغيير سياسته الدينية، وإدخال تعديلات جوهرية على تلك السياسة ، ذلك أن زوجه ثودورا كانت تعتنق المذهب المونوفيزيتي وتساند أتباعه [٤٣]، لهذا دفعت جستنيان إلى تغيير سياسته والتحول لمناصرة هذا المذهب وأتباعه. وحين أعلن البابا معارضته لهذه السياسة تعرض لنقمة جستنيان الذي جد في فرض سياسته الدينية باستخدام القوة حينا والتشريع الإمبراطوري والمجامع الدينية أحيانا أخرى [٤٤].

وترتب على مناصرة جستنيان للمونوفيزتية وصلابة موقفه من أعدائها أن قوى أشياع هذا المذهب في الشرق وقامت كنيسة منفصلة عرفت باسم كنيسة اليعاقبة نسبة إلى مؤسسها يعقوب أسقف الرها في القرن السادس الميلادي [٤٥]

(41) Rice op. cit. p. 48
(42) Ostrogorski op. cit. p. 71
(43) Lemerle op. cit. p. 59
(44) Cantor Med. Hist. p. 160
(٤٥) سعيد عبد الفتاح عاشور . أوربا العصور الوسطى ج١ ص ١٢١

وهكذا باءت محاولات جستنيان للتوفيق بين أتباع المذهبين . وإعادة الوحدة الدينية إلى ربوع الإمبراطورية بالفشل الذريع . وحتى المونوفيزيتيون لم يقتنعوا بما حصلوا عليه من امتيازات وظلوا خاصة في مصر - يناوئون الدولة ويتخذون موقفا عدائيا منها ، وبذلك لم يحقق جستنيان هدفه ، فلم يقم كنيسة موحدة ، ولم يستطع إرغام شطري الإمبراطورية على الانصياع لسياسته ، فظلت النحل المختلفة من المانوية واليهودية والوثنية قائمة ، ولم تتحقق الوحدة الدينية[٤٦] وأخيرا توفى جستنيان سنة ٥٦٥ م وترك الإمبراطورية أفقر مما كانت حين تولي أمرها وأشد ما تكون قرب من التدهور والانهيار ، وأقل رومانية مما كانت عليه.[٤٧]

ولم يظهر خلفاء جستنيان إلا اهتماما ضئيلا بالشطر الغربي من الإمبراطورية ،ولم يحفلوا بسياسة جستنيان اللاتينية . فاعتبرت الفترة الواقعة بين سنتي ٥٦٥م و ٦١٠ م من أسوأ فترات التاريخ البيزنطي وأشدها ضعفا ، لما استشرى خلالها في أوساط الإمبراطورية من الفوضى والاضمحلال ، وما اجتاح البلاد من الفقر والأوبئة وسوء الأحوال . فقد خلف جستنيان أربعة من الأباطرة ميز سياستهم خلال تلك الفترة اتجاههم الواضح نحو سياسة شرقية بيزنطية دون اهتمام كبير بما كان يجري في الشطر الغربي من أوربا.[٤٨]

---

(٤٦) العريني: تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٠١

محمد الشيخ تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٦٢

(47) Vasiliev : op. cit. V.1, p. 161

Ostrogorski op, cit p. 72

Katx : op. cit. p. 117

lot : op. cit. p. 265

(٤٨) العريني المرجع السابق ص ١٠٢.

ثم اعتلى هرقل العرش (٦١٠- ٦٤١م) لتبزغ مرحلة جديدة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية فقد كان القرن السابع أكثر عصور التاريخ البيزنطي حلكة وأكثرها ركودا بالنسبة لحضارة البيزنطية، كما كانت الفترة التي حكمها هذا الإمبراطور أي النصف الأول من ذلك القرن خاتمة العهد في خضوع مصر للإمبراطورية البيزنطية ، وآخر فترة في تاريخ التبعية المصرية لبيزنطة، جرى في مصر ما جرى في بقية أنحاء الإمبراطورية، إذ عم الخوف الناس وانتشرت البدع والخرافات، وجرى رد فعل عنيف لمحاولة جستنيان الفاشلة لإعادة الروح الرومانية إلى الإمبراطورية ، وتوحيد الشرق والغرب في دولة واحدة. (٤٩)

ولم يكن هناك مناص من أن تنحني الدولة وتعترف بالعوامل الجغرافية والعرقية والاقتصادية والدينية التي تميزها عن الغرب الأوربي، فتغير اتجاهها تغيرا واضحا فأضحت الإمبراطورية يونانية شرقية ترتكز علي أسس الحضارة الإغريقية وعلى تقاليد الإغريق القديمة (٥٠) بعد أن كانت إمبراطورية رومانية لاتينية تتشبث بأهداب الماضي وتحاول معاندة الزمن ، وكان الفضل في هذا التغيير واتخاذ اللغة اليونانية لغة الدولة حديثا وكتابة ، وإظهار وجه بيزنطة الحقيقي إنما يعود للإمبراطور هرقل، وبفضل بعد نظره وبصيرته ، ولهذا فقد اعتبره المؤرخون صانع بيزنطة العصور الوسطى دون جدال (٥١)

---

(49) Ostrogorski : op. cit, pp . 75-78
(50) Katz : op. cit. pp. 111-112
(51) Vasiliev : op. cit . V.1, p. 194

ولعل في ذلك يكمن كيف حافظت بيزنطة على تراثها، وحاولت حماية وجودها ، بعد أن استولى العرب على أهم أقاليمها في الشرق، واستولى السلاف على معظم شبه جزيرة البلقان ، ولم يبق لبيزنطة إلا القليل ومع هذا بقيت تتحدى الزمن وواصلت تاريخها نحو ألف سنة أخرى أي إلى قرب منتصف القرن الخامس عشر الميلادي [٥٢]

---

(٥٢) العريني : نفس المرجع ص ١١٨ ،

Ostrogorski : op. cit. p. 85

الفصل الثاني

الشئون الدينية في مصر في العصر البيزنطي

الفصل الثاني

الشئون الدينية في مصر في العصر البيزنطي

ظهور المسيحية وبداية انتشارها في مصر :

طغى الإحساس بالفراغ الروحي على رعايا الإمبراطورية الرومانية، ولم تسطع عبادة الإمبراطور أن تملأه أو الآلهة القديمة التي كان يعبدها الناس، أو اتجاه المثقفين نحو المذاهب الفلسفية أو التماس الخير والسعادة في الآلهة اليونانية أو الإيطالية ، أو الاتجاه نحو العبادات الشرقية أو الوافدة من الشرق. لأن كل هذه المعبودات بعدت عن الآفاق السماوية، واتسمت بالتطرف والجمود، ولم تستطع أن تقدم حلولا لمشاكل الناس الحاضرة أو المستقبلة، أو تقدم لهم المعونة في أوقات الشدة وعند نزول الملمات ، ففقدت الآلهة القديمة بمرور الوقت ما كان لها من الاحترام والتبجيل في عيون المتعبدين [1]، واستمر الفراغ الروحي لدى رعايا الإمبراطورية، لا سيما بين المثقفين منهم وأصحاب الفكر المستنير.

ووسط ذلك الفراغ الروحي بدأت المسيحية تتفوق على ما عداها من عقائد وطقوس، وتتقدم نحو آفاق جديدة لتملأ ذلك الفراغ الروحي في حياة شعوب الإمبراطورية الرومانية. وكان السيد المسيح قد ولد زمن الإمبراطور الروماني أوغسطس في بيت لحم بفلسطين. وبدأت المسيحية متواضعة بين رسله وتلاميذه الذين أخلصوا له وتعهدوا تعاليمه حتى توفى المسيح سنة ٣٠ بعد الميلاد، فواصل أتباعه ممارسة الطقوس المسيحية، وتعبدوا في هيكل

---

(١) أسد رستم : الروم ج١ ص ٣١

سليمان وتجمعوا في أروقته وكانوا جميعا يهودا من الطبقات الدنيا في المجتمع[٢]، ومن أنحاء مختلفة ومدن متعددة من القدس والجليل ومن سائر أنحاء فلسطين، وبعضهم كان من مصر ومن ليبيا والقيروان ومنهم بعض العرب من الجزيرة العربية ، وما لبثت المسيحية أن أخذت تنتشر انتشارا حثيثا في الجهات المجاورة.[٣]

ثم انتشرت المسيحية بين الطبقات الدنيا في المجتمع أكثر من انتشارها بين الطبقات العليا، إذ اعتنقها الفلاحون والعبيد والكادحون وقليل من علية القوم، فلم تعدم دخول بعض أفراد الطبقة المميزة في المجتمع، [٤] وإذا كانت معلوماتنا عن تلك الفترة المبكرة من عهد المسيحية معلومات ضئيلة، إلا أن هناك ما يدل على تقدم الرسل الاثنى عشر بين المسيحيين ، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء ، وهناك ما يدل أيضا على تميز بعض الرسل مثل: بطرس ويوحنا ويعقوب. فضلا عما أداه بولس من خدمات جليلة للمسيحية بعد ذلك[٥]وارتبط تاريخ المسيحية في الفترة الأولى بثلاث شخصيات كان لها دور كبير في تقدمها وانتشارها وإرساء أسسها وتنظيم لاهوتها وهم: بولس وبطرس ومرقس[٦] أما بولس فقد ولد في طرسوس بين السنة الخامسة والسنة العاشرة بعد الميلاد، ودرس الشريعة اليهودية والناموس ونال قسطا من

---

(٢) أسد رستم : نفس المرجع ج١ ص٢٤

(3) Henry Chadwick : op. cit. pp. 15-16

(4) Camb. Med.Hist. V.1, pp 95-96
Thompson : The Middle Ages , V.1, p.32
Chadwick : op. cit. pp. 16-17

(٥) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص ٢٥

(٦) مرقس هو الذي أسس كنيسة الإسكندرية ، ونشر المسيحية بها فاستقرت المسيحية في الإسكندرية بفضل جهوده انظر
Hardy : Christian Egypt , p.11

الفلسفة بطريق التحصيل الشخصي لا بالدرس أو التعلم، لأن والده أبعده عن المدارس اليونانية، ورحل في صباه إلى بيت المقدس في طلب العلوم الدينية، فتعصب كثيرا لليهودية، وتعقب من اعتنق النصرانية أو مال إليها ليضطهدهم باسم الناموس [٧] فذهب سنة ٣١ م إلى دمشق ليتصدى للنصرانية ويوقف انتشارها بين اليهود، وما أن اقترب من دمشق – كما تذهب الرواية – حتى " أبرق نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتا يقول له: شاؤول لماذا تضطهدني ؟" فكان ما كان من أمر تنصره.[٨]

بدأ بولس التبشير بالمسيحية بين اليهود في دمشق ، ثم ذهب إلى أنطاكية التي انتشرت المسيحية بين أهلها انتشارا واسعا، فقضى بها سنوات حتى اختاره كبير المسيحيين بها للتبشير بالمسيحية في الأقاليم المجاورة، فقام برحلات متعددة من أجل ذلك [٩]، فيما بين سنتى ٤٥، ٥٨م ، وعاونه مرقص وبعض الرجال الأتقياء في أداء مهمته ، وفي سنة ٥٨ م ثار عليه اليهود في هيكل سليمان، وسيق إلى السجن بأمر الحاكم الروماني ، حيث قضى نحو عامين ، ثم أرسل إلى روما لمحاكمته أمان نيرون ، ويرجح أنه أعدم سنة ٦٤م مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون.[١٠]

ولقد قدم بولس خدمات جليلة للمسيحية بمثابرته ودأبه، حتى استطاع أن يحول الكنيسة البادئة إلى هيئة منظمة ورسالة عامة، ونجح في أن يستخلص من تعاليم السيد المسيح أسس الدعوة المسيحية ، وأن يرسى دعائم

---

(7) Chadwick : op. cit. p.16

(٨) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٢٨

(9) Chadwick : op. cit. p.16

(١٠) أسد رستم : نفس المرجع ج١ ص ٣٠

اللاهوت المسيحي وأسس الكنيسة العالمية[11] . كما نجح في التبشير بالمسيحية حتى انبثت في سائر أنحاء الشرق، ثم امتدت إلى إيطاليا وأوربا.

أما ثاني الشخصيات المسيحية الهامة فهو بطرس، الذي كان من تلامذة السيد المسيح ورسله أو حوارييه ، بشر بالمسيحية في فلسطين بين اليهود، وتابع رسالته في مدينة يافا حتى رأي أن الله يأمره بالتبشير لكل العالم "اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها" فلما شرع في ذلك قبض عليه وجرى سجنه سنة ٤١ م [12] ، وعندما خرج منه توجه إلى أنطاكية سنة ٤٥م وأقام بها ثماني سنوات حتى سنة ٥٣م، ثم سافر إلى روما في نفس العام ليؤسس فيها الكنيسة المسيحية [13] ثم جرى إعدامه مع بولس وغيره على يد نيرون سنة ٦٤ م على الأرجح.

أما ثالث الشخصيات المسيحية الهامة فهو مرقس الإنجيلي ، فقد أسس كنيسة الإسكندرية بعد حياة حافلة في خدمة العقيدة ومعاونة صادقة لبولس في التبشير، وسافر إلى روما أيضا ولكنه عاد مباشرة إلى الإسكندرية للتبشير فيها بين اليهود، فنزل بحي اليهود بالإسكندرية، فكان أول من بشر بالإنجيل في مصر، كما غدا أول أسقف مسيحي بالإسكندرية، وعلى يديه اعتنق أول رجل للمسيحية في مصر من اليهود [14] وفي الإسكندرية لقى مرقس حتفه سنة ٦٢م أو سنة ٦٨م في بعض الروايات، [15] ونقل البنادقة رفاته إلى مدينتهم في القرن التاسع الميلادي.

---

(11) Rostovtzeff: A Hist. of Ancient world, V.2 .p.335,

عاشور : أوربا العصور الوسطى ج١ ص٣٤ (ط٦)

(١٢) أسد رستم : ج١ ص ٢٧

(13) Chadwick : op . cit . p. 18

(١٤) العريني : مصر البيزنطية ص ١١

(١٥) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٣١

أما عن دخول المسيحية إلى مصر ، فيبدو أنه حدث منذ البداية، فقد كان ضمن المسيحيين الأوائل الذين تعبدوا في هيكل سليمان عدد من المصريين، ثم حمل التجار إلى الإسكندرية ومصر تباشير العقيدة الجديدة والذين لم تنقطع وفودهم عن مصر والإسكندرية من كافة الأنحاء، وهيأت التجارة الواسعة لمصر وقربها من فلسطين فرصة سهلة للديانة الجديدة النفاذ إليها [١٦] ، فبدأ بعض أهل مصر اعتناق المسيحية، ثم بدأت تنتشر في سائر أنحاء مصر ، فقد عثر على أربع برديات قديمة في مصر الوسطى تتعلق بالعقيدة المسيحية وترجع إلى منتصف القرن الثاني الميلادي، مما يؤكد وصول المسيحية إلى تلك المناطق في تلك الفترة المتقدمة ، ثم انتشرت المسيحية في الوجه القبلي في أواخر القرن الثاني الميلادي.[١٧]

ومن العوامل التي ساعدت على سرعة انتشار المسيحية في مصر: الاستعداد الفطري لدى الشعب المصري للإيمان بإله واحد، لأن المصريين كانوا أول الشعوب التي آمنت بالوحدانية منذ عهد إخناتون، فضلا عن إيمانهم بالحياة بعد الموت والحساب والعقاب في الحياة الأخرى أو الحياة الآخرة [١٨]، بالإضافة إلى أن قصة السيد المسيح وآلامه والمبادئ السامية التي دعا إليها وأكدت عليها المسيحية وأبرزها: الوحدانية والتطهر والمساواة ، كانت من عوامل الجذب الهامة للمصريين للدخول في العقيدة الجديدة، إذ بلغ من شدة تأثرهم بالمسيحية أنهم لم يكونوا في حاجة إلى دراسة أصولها Christology[١٩] فضلا عن أن المصريين ربما وجدوا في العقيدة الجديدة

---

(16) Hardy : Cristian Egypt , p .11 (N.Y. 1952)
(17) Chadwick : op. cit. p. 64

(١٨) العريني : المرجع السابق ص ١٧
(١٩) العريني : المرجع السابق ص ١٦

فرصة للتعبير عن معارضتهم للسلطات الرومانية بعد أن فقدت مصر استقلالها، وغدت ولاية تابعة لروما ثم لبيزنطة [٢٠]، هذا إلى جانب ما أبداه المصريون من إعجاب بالمعجزات وما شاع من قدرة المسيحيين على دفع الشياطين وشفاء المرضى، وإحياء الموتى، وكلها أمور جذبت انتباه المصريين للعقيدة الجديدة، وهيأت أذهانهم لاعتناق المسيحية.[٢١]

الاضطهادات الدينية للمسيحيين في مصر :

على الرغم من أن الاضطهاد الديني أمر مريع ومخيف لأي جماعة أو أشياع عقيدة أو مذهب أو رأي،وعلى الرغم أيضا من أن الاضطهاد الديني أثار كثيرا من الفزع والأسى في نفوس المسيحيين الأوائل خلال عهود الاضطهاد، إلا أن هذه الاضطهادات الدينية هي التي صهرت المسيحيين وأظهرت قدراتهم، وكان لها فضل عليهم، لأنها كانت سببا في زيادة انتشار العقيدة الجديدة وذيوعها، حتى جرى الاعتراف بها، ثم غدت في نهاية الأمر الدين الرسمي للدولة.[٢٢]

ولقد حصر المؤرخون الاضطهادات الدينية التي نزلت بالمسيحيين منذ بداية انتشار المسيحية حتى صدور مرسوم التسامح الديني والاعتراف بالمسيحية ، أي في الفترة الواقعة بين سنتى ٦٤م ، ٣١٣ م بعشرة اضطهادات ، بداية من التشريع الخاص الذي أصدره الإمبراطور نيرون سنة ٦٤م والذي حظر بموجبه اعتناق المسيحية على رعايا الإمبراطورية ، ومن خالف ذلك عرض نفسه للعقاب فكثر ضحايا هذه الاضطهادات حتى لا

(20) Camb. Med. Hist. V. 1, pp. 504-517

(٢١) إنجيل متى : الإصحاح ١٠ ف ٨

(22) Bury: op. cit. V. 1, p. 349

(٢٣) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٣٣

يمكن تحديد أعدادهم من رجال الدين ومن عامة المسيحيين[٢٤] على الرغم من أن هذه الاضطهادات لم تكن في كل الأحوال عامة أو شاملة ، لأنها ربما جرت في إقليم دون الآخر، وربما حدثت في مصر دون بقية أنحاء الإمبراطورية الرومانية والعكس. [٢٥]

وسنقصر تناولنا لهذه الاضطهادات على تلك التي جرت في مصر منذ بداية انتشار المسيحية حتى عصر الإمبراطور دقلديانوس، أي إلى أواخر القرن الثالث الميلادي ومطلع القرن الرابع الميلادي.

فعلى أثر ما جرى في روما في عصر الإمبراطور نيرون من اضطهاد وقتل وتعذيب للمسيحيين راح ضحيته الرسولان بولس وبطرس [٢٦]، هجم الوثنيون في الإسكندرية على كنيسة للمسيحيين بشرق المدينة سنة ٦٨ م، فقتلوا القديس مرقس بعد أن جروه بالحبال في شوارع المدينة حتى مزقوا لحمه[٢٧]، وتكرر الاضطهاد قرب أواخر القرن الأول الميلادي سنة ٩٨ م على عهد الإمبراطور تراجان حيث لقى بعض الأساقفة في مصر وفي الإسكندرية حتفهم، وجرى التنكيل بالمسيحيين في مصر وإخضاعهم لشتى أنواع التعذيب خاصة الذين امتنعوا عن تقديم القرابين.[٢٨]

وعلى عهد الإمبراطور سبتموس سيفروس أي في أوائل القرن الثالث الميلادي تصاعدت الاضطهادات خاصة بعد أن قام هذا الإمبراطور بزيارة لمصر سنة ٢٠٢م، فأذاق المسيحيين ويلات العذاب وبلغ من شدة الاضطهاد أن

---

(24) Painter: A Hist. Of the Middle Ages, p. 11

(٢٥) العريني : مصر البيزنطية ص ١٢

(26) Chadwick: op. cit. p. 18, pp. 25-6

(٢٧) أسد رستم : نفسه ج١ ص ٣١

(٢٨) العريني : المرجع السابق ج١ ص١٣

واجه المسيحيون الموت والتعذيب، وملئت السجون في الإسكندرية وبقية أنحاء مصر بالنصارى، وأرسل كثير من المسيحيين من سائر الجهات في مصر ليحاكموا في الإسكندرية، فلقي كثير منهم شتى أنواع التعذيب على أيدي الجلادين . [٢٩]

ويبدو أن الرومان لم يلجأوا إلى اضطهاد معتنقي هذه العقائد إلا حين شعروا أن نظمهم وتقاليدهم أخذت تتعرض للهدم والتدمير على أيدي أشياع هذه العقائد ، فالاضطهاد ليس مقصودا به النيل من هذه العقائد الدينية ذاتها، وإنما المقصود هو ما يكمن خلفها من مبادئ سياسية وأخلاقية. وما يصاحبها من تهديد لنظم الدولة وأمن المجتمع، إذ كان مطلوبا من الناس مشاركة الدولة في الطقوس والشعائر التي تألفت منها الوثنية ، وتقديم القرابين لآلهتها ومعبوداتها، ولم تكن الوثنية ديانة وعقيدة وإنما تألفت من طقوس وشعائر ينبغي احترامها من قبل الرعايا لأنها كانت رمز الدولة ودليل سطوتها على الشعب. [٣٠]

وعلى عهد الإمبراطور دكيوس (٢٤٩-٢٥١ م) أي قرب منتصف القرن الثالث الميلادي جرت محاولة أخرى للقضاء على المسيحية والتخلص من أتباعها ، فقد أصدر هذا الإمبراطور مرسوما يحتم على كل شخص تقديم شهادة تثبت أن حاملها قام بتقديم القرابين باسم الإمبراطور في المعابد الوثنية إلى لجنة من رجال السلطة شكلت لهذا الغرض، ومن لم يفعل تعرض

---

(29) Chadwick : op. cit. p. 91 , p. 100

(٣٠) العريني: المرجع السابق ص ١٢،

Hardy : studies in Roman Hist. V.1. p. 34

للتنكيل، فلقي كثير من المسيحيين في مصر وفي الإسكندرية حتفهم في هذا الاضطهاد. (٣١)

ثم لاحق الإمبراطور فاليريان (٢٥٣-٢٦٠) زعماء المسيحيين والكهنة، فحرم على المسيحيين الاجتماع في دور العبادة أو في المقابر ، وتعرض عدد كبير من المسيحيين للموت والاختناق في أحد السراديب حيث كانوا يتعبدون، وأعدم في الإسكندرية عدد كبير من رجال الدين ومن عامة المسيحيين. (٣٢)

ومن أكبر الاضطهادات الدينية وأقدمها تلك التي جرت على يد الإمبراطور ذائع الصيت دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥م) الذي كره المسيحية كعقيدة جديدة نشطت للقضاء على ولاء الناس للإمبراطور وأرهصت بتحطيم وحدة الإمبراطورية، وزاد سخط هذا الإمبراطور حين اشتطت المسيحية وتطرفت وبدأت تخير أتباعها بين الولاء للمسيح أو الولاء للإمبراطور وحين تعدت نطاق التأثير في المجتمع إلى التأثير في الجيش، وقضت على ولاء كثير من الجند للإمبراطور، ومثلت دولة داخل الدولة، وشكلت جماعات سرية بدا من نشاطها أنها لا تقيم وزنا كبيرا لنظام الدولة ورسومها (٣٣).

فجرى اضطهاد كبير للمسيحية وأتباعها قبل سنوات قليلة من اعتزال دقلديانوس السلطة، أي في أوائل القرن الرابع الميلادي، فبدأت سنة ٣٠٢ ميلادي أكبر حركة اضطهاد للمسيحيين جرى في البداية طردهم من البلاط ومن صفوف الجيش، ونفيهم إلى جهات نائية، وحرمانهم من حقوق

(31) Chadwick : op. cit. p. 118

(٣٢) أسد رستم : المرجع السابق ج١ ص٣٥

(33) Rostovtzeff : op . cit . V. 2, p. 346
Lot : op. cit. P. 24

المواطنة، ومنعهم من تولي الوظائف الإدارية، وحرق كتبهم المقدسة وهدم كنائسهم[٣٤]، ومنع عتق الأرقاء منهم، ثم أتبع ذلك بالعقوبات البدنية كصلم الآذان وجدع الأنوف وفقأ الأعين وتهشيم الأسنان وقطع الأطراف والألسن ودق الحديد في البطون،ثم أتبع ذلك بحركة قتل وتنكيل سنة ٣٠٤ م فأحدث مذابح بشرية رهيبة جرى فيها إعدام كثير من المسيحيين في مصر وفي الإسكندرية بالذات وإذاقتهم ألوان العذاب[٣٥]، إذ قذف الكثيرون منهم في حفر النيران المشتعلة أو صلبوا وأشعلت تحتهم النيران أو أدخلوا أقفاص أسود جائعة وحيوانات مفترسة، الأمر الذي أدى إلى تخلي بعضهم عن عقيدته، وجعل السنوات الأخيرة من حكم هذا الإمبراطور محنة حقيقية للمسيحيين في مصر[٣٦]، حتي أطلق المصريون علي عهد هذا الإمبراطور "عصر الشهداء"، واتخذت الكنيسة القبطية بدء تقويمها بسنة ولاية هذا الإمبراطور (٢٨٤م)، وسمي هذا التقويم بتقويم الشهداء.

غير إن هذه الاضطهادات الدينية جاءت بنتيجة عكسية، وكانت عاملا من عوامل انتشار المسيحية، لأن بطولة هؤلاء الشهداء جذبت انتباه كثير من الوثنيين وأثارت اهتمامهم بالعقيدة الجديدة، فما لبثوا أن دخلوا فيها فانتشرت المسيحية وسادت في الإسكندرية وجهات أخري من مصر [٣٧].

ثم جاء الاعتراف بالمسيحية علي يد الإمبراطور قنسطنطين الكبير بمقتضى مرسوم التسامح الديني أو مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م نهاية لفترة أليمة في تاريخ المسيحية وفي تاريخ الشرق بأسره وفي مصر بالذات، إذ توقفت

---

(34) Chadwick :op. cit. p. 121

(٣٥) العريني: المرجع السابق ص ١٤

(٣٦) أسد رستم : الروم ج١ ص٣٦

(37) Katz : The Decline of Rome, p. 94

الاضطهادات الدينية وتهيأت الأحوال لانتشار المسيحية في مصر في يسر وسهولة[٣٨]. لا سيما أن المبشرين الأوائل كانوا يتحدثون اليونانية فغدا السكان اليونانيون في الإسكندرية وفي مصر من أوائل الجماعات التي اعتنقت المسيحية، ثم أثرت المسيحية في السكان الوطنيين الذين كانوا يتحدثون اللغة المصرية، ثم اكتمل التأثير في نهاية القرن الثالث الميلادي وبدايات القرن الرابع الميلادي، إذ وجدت شروح إنجيلية باللغة القبطية ترجع إلي تلك الفترة، ودل ذلك علي أن بعض المصريين كانوا يترجمون من اللغة اليونانية إلي اللغة القبطية[٣٩] .

كنيسة الإسكندرية :

يمكن تمييز فترتين واضحتين في تاريخ كنيسة الإسكندرية، الفترة الأولي هي التي شغلت القرون الأولي للميلاد، أي الفترة الأولي في تاريخ المسيحية حتى الاعتراف بالمسيحية سنة ٣١٣ م ، ثم الفترة الثانية التي واكبت تاريخ مصر البيزنطية بعد سنة ٣١٣م أي خلال الخلافات الدينية التي حدثت في جوف العقيدة وفجرتها كنيسة الإسكندرية، وأسهمت بالنصيب الأوفر في توجيهها في العالم المسيحي بأسره في ذلك الوقت[٤٠] .

فلقد أسس القديس مرقس كنيسة الإسكندرية وكان أول أسقف لها، ودفع حياته في النهاية ثمنا لإخلاصه لها، إذ دهمه الوثنيون وجروه بالجبال في شوارع الإسكندرية حتى مزقوا لحمة سنة ٦٢م أو سنة ٦٨م ميلادي في بعض الروايات– كما سبق أن أشرنا – ليصبح أول أسقف في الإسكندرية يلقي

---

(38) Vasiliev: op. cit. V.1, pp. 50-52
(39) Hardy : Christian Egypt . p. 11
(40) Chadwick:op. cit p. 168, pp. 171-2

حتفه علي أيدي الوثنيين[٤١]، لكن كنيسة الإسكندرية تابعت مسيرتها وازدادت قوة بمرور الوقت حتى اكتمل تنظيمها وغدت تماثل في تنظيمها ما كان سائداً في روما[٤٢] .

فقد استخدمت كنيسة الإسكندرية في القرون الأولي للميلاد اللغة اليونانية في طقوسها وشعائرها وتعاليمها وتبشيرها، وضمت عدداً من الذين تولوا تعليم الناس أصول العقيدة والرسوم المسيحية وقواعد الدين المسيحي والمبشرين الذين تولوا تقديم المتنصرين الجدد لرجال الكنيسة لتعميدهم[٤٤] .ولم يكن في الكنيسة الأولي في الإسكندرية ما يدعوا إلي وجود الشقاق الديني أو الاختلاف في الرأي حول أسس العقيدة، لأن المسيحيين في عصر الرسل تأثروا بما كان في حياة السيد المسيح من عاطفة ومثل، وآمنوا بالبعث بعد الموت وعودة المسيح، ولم يحفلوا بالأفكار الدينية المعقدة أو المفلسفة. حقيقة ربما بدا في رسائل القديس بولس بداية علم اللاهوت أو أصول الدين، إلا أن ذلك كان في صورة أولية غير معقدة أو مفلسفة [٤٤].

أما في الفترة التي تلت عصر الرسل، وحين أخذت الكنيسة في النمو وازداد عدد المسيحيين وأقبل الوثنيون علي اعتناق المسيحية. ومنهم من اشتهر بالعلم ومعرفة الفلسفة والتعمق فيها، وكثير منهم كان من المثقفين والمفكرين الذين مرنوا علي أساليب الجدل والمنطق والفلسفة، وألفوا التفكير

---

(٤١) أسد رستم : الروم ج١ ص ٣١

(٤٢) العريني : المرجع السابق ص ٤٠،

Lot : op. cit. p. 303

(43) Hardy : op. cit. p. 11

(٤٤) العريني : المرجع السابق نفسه ص ١٦

العلمي الكلاسيكي(٤٥)، فضلاً عن إن عدداً كبيراً منهم كان لا يزال يتمسك بالتقاليد القديمة، خاصةً المستمدة من الوثنية أو من التقاليد المصرية القديمة ولذلك حدث في الكنيسة في أول عهدها هرطقات ربما كانت نوعاً من المحاولات التي عمد إليها المتنصرون لتشكيل عقيدتهم الجديدة بصورة قديمة أو مستمدة من تقاليد قديمة(٤٦)، إذ لم يكن من السهل التخلي عن العادات القديمة والتقاليد الموروثة، وكانت مصر بالذات مرتعاً خصباً لبعض هذه الهرطقات. لأنها كانت من أعظم وأقدم مواطن الديانة في العالم القديم، فضلاً عن اختلاف عناصر سكانها وشهرتهم في الاعتقادات الآخرة والبعث(٤٧).

ومن الهرطقات التي حدثت في تلك الفترة والتي انتشرت في سائر أنحاء الدنيا " الغنوصية " gnosticism(٤٨) التي كانت شديدة الارتباط

(45) lot :op. Cit . p . 373
(46) Chadwick : op.cit, p. 35

(٤٧) العريني : مصر البيزنطية ص ١٧

(٤٨) كلمة gnosis في أصلها كلمة يونانية تعنى " المعرفة" فقد شغل كثير من الناس في العالم اليوناني أنفسهم بالتفكير في الكون وطبيعته، وكيف جاء الإنسان إليه وما هو مصيره، فأطلق على الجماعة التي تهتم بهذه المعرفة لفظ " الغنوصيين" وازداد عدد الغنوصيين في القرنين الأول والثاني الميلاديين، فلما أخذت المسيحية في الانتشار جذبت فريقا من هؤلاء الغنوصيين إليها ، فمزج هؤلاء بين أفكارهم عن الكون و الإنسان وبين تعاليم المسيحية ، بل خرجوا بأفكار لم توافق عليها الكنيسة، لأنهم أنكروا بعض ما جاء في الإنجيل فيما يختص بحمل مريم للمسيح ومولد المسيح والثلاثين سنة التي سبقت رسالته وقالوا أن المسيح ظهر في صورة الرجولة الكاملة، ولكنها كانت صورة فقط دون أن تكون مادة وشكلا بشريا خلقة الله القادر. وهكذا كان المسيح– في رأي هؤلاء– موجودا بروحه لا بجسده، بل أنهم ذهبوا إلى القول بان الخلاص يمكن أن يتم بالمعرفة دون الإيمان. والمعرفة في رأي هذا الفريق تعين الشخص على تحرير الروح من ربقة الجسد، ولهذا كله ناصبت الكنيسة أصحاب هذا المبدأ العداء في القرن الثاني الميلادي وما بعده، واعتبرت أصحاب هذا المذهب من المارقين الناهضين للكنيسة.

أنظر Chadwivh: op. cit. pp. 33-41

وانظر أيضا : العريني : مصر البيزنطية ص ١٧–١٨

بمصر، والتي تأثرت بالأفكار المصرية ، ولهذا غدا على رجال الكنيسة المصرية أمران : الأول إقناع أولئك المثقفين بقضايا العقيدة الجديدة ومبادئها والرد على استفساراتهم عن كثير من تلك القضايا، والأمر الثاني مقاومة النزعات المنحرفة والميول المتطرفة والهرطقات التي حدثت في تلك الفترة، فتولى الأمر الأول عدد من كبار مفكري المسيحية الذين أطلق عليهم " آباء الكنيسة" الذين آمنوا بضرورة إقناع الناس بالمودة والموعظة الحسنة والرد على استفساراتهم(٤٩).

ومن هؤلاء كلمنت السكندري وأوريجين في القرن الثالث الميلادي، إذ ترك كل منهما عددا كبيرا من المؤلفات التي ناقشت قضايا العقيدة، وكل ما يتعلق بكنيسة الإسكندرية، وقدمت المسيحية في قالب يتقبله المثقفون مستخدمين في ذلك الفلسفة القديمة لتبرير آرائهما وتأييد هذه الآراء(٥٠)، وتولى الأمر الثاني رجال كنيسة الإسكندرية الذين أنشأوا المدرسة التبشيرية بالإسكندرية، التي اتخذت من متحف الإسكندرية مقرا لها، وكانت مهمتها تعليم المسيحيين وتحصينهم ضد التعاليم المستمدة من المدرسة الوثنية، وتولى رئاسة هذه المدرسة التبشيرية في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي أيضا كلمنت السكندري، فقام بهذه المهمة خير قيام وألف كتبا عديدة دارت معظمها حول قضية الدفاع عن المسيحية والتصدي لأعدائها(٥١).

ثم خلف أوريجيين كلمنت السكندري في رئاسة هذه المدرسة التبشيرية وبقي في رئاستها حتى سنة ٢٣٥م واعتبر أشهر شخصية مسيحية (٥٢) فضلا

(49) Vasiliev : op , cit ,1,p. 116, Painter : op cit , p,15
(50) Chadwick :op. cit pp. 94-101, pp. 171-2
(51) Painter : op. cit p.15

(٥٢) أسد رستم : الروم ج١ ص ١٤٥-١٤٦

عن ورعه وتقواه على الرغم من أنه اتهم بعد وفاتـه بالهرطقة والإلحـاد، لأن بعض آرائـه لا سـيما مـا يتعلـق منـها بـالتثليث لم تكـن تتفـق تمامـا مـع الأرثوذكسية الخالصة(٥٣).

وازدادت مكانة كنيسة الإسكندرية في حياة المجتمع المصري ، خاصة حين سار التنظيم الكنسي على نسق التنظيـم الإداري في الإمبراطوريـةواقتفـى أثره فامتدت سلطة أسقف الإسكندرية إلى خـارج مصـر وبلغـت أقـاليم برقـة وتقلد أسقفية الإسكندرية عدد من الأساقفة البارزين أهمهم بطرس(٥٤)، الـذي ولي الأسقفية سنة ٣٠٠م وكان من أكفأ علماء الدين المسيحي في مصر وأكـثرهم شهرة وظهرت في عهده هيمنة كنيسة الإسكندرية وسيطرتها على الأمة خاصة حين أصدر الأوامر بعقاب المرتدين عن المسـيحية خـلال عـهود الاضطـهاد ، والذين أرادوا العودة إلى حظيرة الكنيسة من جديد غير أن نهاية هذا الأسقف كانت مؤلمة إذ جرى القبـض عليـه سـنة ٣١١م في آخـر موجـة مـن موجـات الاضطهاد الديني على عهد جاليريوس، وجرى إعدامه بأمر هذا الإمـبراطور، فكان بطرس آخر الشهداء من رجال كنيسة الإسكندرية وخاتمهم(٥٥).

وانتهت بذلك المرحلة التي عاشـت فيـها كنيسـة الإسـكندرية في ظـل الإمبراطورية الوثنية وبزغت مرحلة جديدة في تاريخـها بعد الاعتراف الرسـمي بالمسيحية (٥٦)، فإذا كان مرقس هو أول شهيد من أساقفة الإسـكندرية، فـإن بطرس كان آخر شهيد من شهداء الكنيسة وخاتمهم.

---

(53) Vasiliev:op. cit, v. 1,p.54
Lot : op. cit . p. 153
(54) Chadwick: op. cit. p. 124
(٥٥) العريني : المرجع السابق ص ٤٢.
(56) Ostrogorski : op. cit. p. 43

الخلافات الدينية في المسيحية :

نأتي إلى الفترة الثانية فى تاريخ كنيسة الإسكندرية، وهي الفترة التي فجرت فيها كنيسة الإسكندرية الخلافات الدينية ووجهت مسار هذه الخلافات في العالم المسيحي بأسره (٥٧). فإذا كان المسيحيون في الفترة الأولى لم يختلفوا في العقيدة أو يحدث بينهم شقاق ديني حول المسيحية، ألا انهم في هذه الفترة الجديدة مالوا نحو فلسفة العقيدة واختلفوا في جوهرها وعند تحديد العلاقة بين المسيح الإبن والإله الأب، وهي المشكلة التي أثارت الخلاف بينهم وتسببت في حدوث نزاع طويل وفجرت صراعا رهيبا بين أشياع المسيحية(٥٨).

فقد احتدم الخلاف بين كاهنين من كهنة كنيسة الإسكندرية حول تحديد هذه العلاقة،فذهب أحدهما وهو أريوس Arius – وكان كاهنا مثقفا– إلى أن منطق الأمور يحتم وجود الأب قبل الابن ، ويؤكد أن هذا الإبن أصغر من الإله الأب ، أي أنه ما دام المسيح هو ابن الله فلا بد وأن يكون أقل منه شأنا وأدنى منزلة، لأنه أقل في المستوى والقدرة من الإله الأب(٥٩) ، إذ لا يمكن أن يتساوى الأب والابن في المكانة والمنزلة والقدرة بحكم أن المسيح الابن مخلوق للإله الأب،فالأب أكبر وأسبق والإبن أصغر ولاحق، وإذا كان الخلود هو صفة الله الذي لا أول له ولا آخر، فإن المسيح ليس خالدا لأن له بداية، ولهذا فليس المسيح إلها، أي أن أريوس أنكر ألوهية المسيح وأنزله إلى رتب البشر(٦٠).

---

(57) Vasiliev :op.cit. v.1 p.54
(58) Thom pson: op.cit v.h,p.37
(59) Camb. Med. Hist. V. 1 p. 119
(60) Lot: op. cit p. 43

على حين ذهب الكاهن الآخر وهو أثناسيوس Athanasius إلى أن الإله الإبن وإن كان مختلفا عن الإله الأب، إلا أنهما متساويان في المستوى والمكانة والقدرة بحكم أنهما من عنصر واحد ويستمدان صفتيهما من الصفة الأزلية،، أي أن الابن مساوي تماما للإله الأب، وأن فكرة الثالوث المقدس: الأب والابن والروح القدس تدعو إلى اعتبار المسيح إلها لا يقل شأنا عن الإله الأب، أي أن أثناسيوس رفع المسيح إلى مصاف الإله الأب ليكون مساويا له في كل شيء[٦١].

وهكذا تفجر الخلاف الديني في القرن الرابع الميلادي بين أريوس وأثناسيوس في كنيسة الإسكندرية وترتب على ذلك ظهور مذهب أريوس أو المذهب الأريوسي وسيادته في الشطر الشرقي من الإمبراطورية بسبب إقامته العقيدة المسيحية على أسس من المنطق والعقل[٦٢]، ولهذا ساد في القسم الشرقي من الإمبراطورية الذي كان مهد الحضارة اليونانية ومركز الثقافة والفكر وموطن الفلاسفة والمفكرين، على حين كان مذهب اثناسيوس يستقيم وفكر البسطاء من الناس و عامتهم ولهذا ساد في الشطر الغربي من الإمبراطورية، حيث انتشرت الحضارة اللاتينية التي تختلف عن قرينتها اليونانية في الشرق وقل مستواها الثقافي والفكري ' عرفه الشطر الشرقي من الإمبراطورية وما عرفه الشرق من علم وحضارة[٦٣].

ونظرا لتداعيات هذا الخلاف وما يمكن أن يسببه من شقاق بين أتباع المسيحية بما يترتب على ذلك من تهديد لوحدة الدولة واستقرارها، رأى قنسطنطين الكبير أن يفض هذا الخلاف ويوقف آثاره، فأمر بإرسال مبعوثين

---

(61) Vasiliev: op. Cit .V.1, pp. 55-57
(62) Painter :op. cit. p.16
(٦٣) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج١ ص ٤٣

من لدنه إلى الإسكندرية للقاء أريوس وأثناسيوس لمحاولة تسوية هذا الخلاف والاتفاق على صيغة واحدة مرضية للطرفين[٦٤]، إلا ان الرجلين لم ينصتا لما قيل ولم يعيرا هذه المحاولة كبير اهتمام، فاستمر الخلاف قائما الأمر الذي جعل الإمبراطور قنسطنطين يدعو إلى عقد مجمع ديني في مدينة نيقية بآسيا الصغرى سنة ٣٢٥م لمناقشة هذه القضية ووضع حد لهذا الخلاف[٦٥].

وعقد المؤتمر المسكوني الأول في تاريخ المسيحية فعلا وحضره نحو ثلاثمائة من كبار رجال الدين في الشرق وفي الغرب على حد سواء، وناقش المجتمعون آراء أريوس وآراء أثناسيوس، وانتهى المجمع إلى إدانة أريوس ونفيه إلي إقليم إيلليريا في البلقان وإحراق كتاباته وتحريم تداول آرائه واضطهاد أتباعه ومشايعيه [٦٦]، على حين أقر آراء أثناسيوس وساوى بين الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس، وأقر بأن المسيح "من نفس جوهر الأب" واعتبر آراء أثناسيوس ومذهبه هو المذهب العالمي أو الرأي العالمي أو الكاثوليكي[٦٧]، لأن المسيح" إله من إله ونور من نور وإله حق من إله حق ومولود غير مخلوق".

وحازت الإسكندرية بذلك مكانة هامة بين الكنائس المسيحية في العالم بأسره، وغدا أسقف الإسكندرية في أواخر القرن الرابع الميلادي من أكبر رجال الدين مكانة في العالم المسيحي وأكثرهم نفوذا خاصة وقد توالى على أسقفية الإسكندرية ثلاثة رجال فيما بين سنتي ٣٨٥و ٤٥١م أضافوا إلى عظمة

(64) Chadwick :op.cit.p 129
(65) Bynes : Constantine and the Christian Church, pp. 19.22
(66) Cam . Med . Hist. V.1,pp. 122-3
(67) Chadwick :op. Cit, pp. 129-130

الإسكندرية وشهرتها الكثير وإلى مكانتها سموا وهم : ثيوفيل وكيرلس وديوسقروس[٦٨].

أما الأول ثيوفيل (٣٨٥-٤١٢م) فقد جاهد جهادا عظيما لإزالة بقايا الوثنية وقد ظلت للأفكار الوثنية مكانة هامة حتى القرنين الرابع والخامس، وظل معظم الأساتذة والفلاسفة على وثنيتهم حتى أواخر القرن الخامس الميلادي وتوفى ثيوفيل سنة ٤١٢ بعد ان لعب دورا هاما في تاريخ كنيسة الإسكندرية، وجرى انتخاب ابن أخته كيرلس Cyril بطريرقا على الإسكندرية فسار على نهج سلفه خاصة وقد اشتهر بقوة المنطق والذكاء ومضاء العزيمة، ونال حظا كبيرا من الثقافة والتعليم فاستمر فى أداء رسالته نحو ثلاثين عاما اصطدم خلالها بالسلطات الحكومية وعمل على الحد من نفوذ اليهود وأخذ في طردهم دون أن يكترث بالوالي البيزنطي[٦٩].

لكن شهرة كيرلس(٤١٢-٤٤٤م) تستند كلية على دوره في الخلاف الديني الجديد الذي اندلع في القرن الخامس الميلادي، مع استمرار الجدل حول طبيعة المسيح وهل تجتمع في المسيح الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية معا أم تغلب إحداهما على الأخرى؟ [٧٠]، وفجرت هذا الخلاف الجديد مدينة أنطاكية الشامية التي كانت قد تأثرت بالأريوسية وبالأفكار الشرقية في المسيحية، فجعلت الطبيعة البشرية هي الغالبة في المسيح، وقال الأنطاكيون أن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة، ورفضوا تسمية العذراء بأم الإله لأنها لم تلد إلها وإنما ولدت بشرا وإنسانا[٧١]. وتمسكت أنطاكية برأيها خاصة بعد أن

---

(٦٨) العريني : المرجع السابق ص ٥٧-٥٧

(٦٩) العريني: نفس المرجع ص ٥٧-٦١

(70) Buty: Hist. Of the later Roman Empire/ ,pp.216-217

(٧١) أسد رستم : الروم ج١ ص ١٢٣

تولى بطريرقية القسطنطينية نسطوريوس الذي كان من أصل سوري، وأظهر حماسا شديدا لآراء أنطاكية. غير أن الإسكندرية صاغت رأيها في هذه المسالة – على عهد كيرلس– على أساس أنه عند تجسد المسيح ذابت الطبيعة البشرية في الطبيعة الإلهية وبقيت الطبيعة الإلهية وحدها، أي أن طبيعة المسيح هي الطبيعة الإلهية[٧٢]، وأخلصت مصر والإسكندرية لهذا المذهب الذي سمى بمذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتي، وهي كلمة مشتقة من كلمة " مونوس" اليونانية وتعني الواحد فأصبح أهل الإسكندرية ومصر من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة التي هي الطبيعة الإلهية مخالفين في ذلك رأي أهل أنطاكية [٧٣].

وتحمست الإسكندرية لمذهبها ورأيها خاصة بعد أن حدث تقارب بين كيرلس وبابا روما ضد بطريرق القسطنطينية، الأمر الذي شجع كيرلس على المضي في خصومته مع نسطوريوس والتمسك بمذهبه، فعقد من أجل ذلك مجمع إفسوس بآسيا الصغرى سنة ٤٣١م [٧٤]، حضره نسطوريوس وكيرلس ومندوبين عن البابا أوصاهم البابا بالانحياز إلى كيرلس، فتقرر في هذا المجمع عزل نسطوريوس من منصبه وإجباره على دخول الدير، وخرجت الإسكندرية ...رة من هذا المجمع[٧٥].

ثم تولى أسقفية الإسكندرية ديوسقروس خلفا لكيرلس سنة ٤٤٤م ، فجرى على نهج كيرلس في كثير من الأمور وأدلى بدلوه في المنازعات الدينية التي جرت في ذلك الوقت، فبلغ تأثير رجال كنيسة الإسكندرية ذروته في

(72) Camb. Med. Hist. V.1.p. 517
(73) Chadwick : op , cit . pp. 200-201
(74) Vasiliev:op.cit. V. 1, pp. 98-99
(75) Chadwick: op. cit. pp. 197-198

الأحداث الهامة من ناحية، وفي الخلافات الدينية والمذهبية من ناحية أخرى[٧٦]، وربما لهذا ثارت حفيظة بابوية روما وأثار ذلك أحقادها ضد الإسكندرية، فقد فزعت بابوية روما من علو شأن كنيسة الإسكندرية وتوجيهها الخلافات الدينية في الدنيا بأسرها مع استمرار الجدل حول طبيعة المسيح[٧٧]، فلما عقد من أجل ذلك مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م انضمت روما إلى القسطنطينية ضد الإسكندرية، فأخذ المجتمعون بالرأي المخالف لرأي الإسكندرية وتقرر قبول رسالة البابا ليو الأول(٤٤٠-٤٦١)واعتبارها صحيحة ومتفقة مع العقيدة الحقة[٧٨]، لأنها تقضي بوجود "المسيح" في طبيعتين دون اندماج أو تغيير أو انقسام" وتقرر عزل ديوسقروس ونفيه إلى جانجرا بآسيا الصغرى حيث ظل بها حتى قضى نحبه سنة ٤٥٤م [٧٩]، وأوضحت قرارات مجمع خلقدونيا أساس التعاليم الدينية عند الكنيسة الأرثوذكسية أو ما عرف بمذهب الطبيعتين أو المذهب الملكاني إذ قالوا أن للمسيح طبيعة بشرية مستقلة ومنفصلة تماما وطبيعة إلهية مستقلة ومنفصلة تماما فكأن المسيح بشر وإله معا، وهو المذهب الذي ساد في الإمبراطورية باستثناء مصر وبعض بلاد الشام والتي اعتبرت مصر على أثره منشقة وخارجة على الإجماع لأنها ظلت تخلص لمذهبها، مذهب الطبيعة الواحدة[٨٠]، إذ كانت الطبيعة البشرية عند أهل مصر تأتي في المقام الثاني، لأن مصر اعتبرت المسيح إلها تحول إنسانا وهو قول صاغه علماء الدين من أهل مصر في عبارة "الطبيعة المتجسدة للإله

---

(76) Hardy: Christian Egypt. p. 119
(77) Ostrogorski : op. cit. p. 53
(78) Lot: op. cit. p. 217, p. 298
(79) Bury: op. cit.1 ,pp. 355-8
(80) Hardy: op. cit. p. 119

الكلمة"[٨١] ، ومن أجل مذهبها وفي سبيله ناهضت مصر السلطات البيزنطية ووقفت في وجه القسطنطينية وتمسكت برأيها في مواجهة كل التحديات[٨٢].

وترتب على قرارات مجمع خلقدونيا نتائج وآثار بالغة الأهمية بالنسبة للتاريخ البيزنطي بصفة عامة وتاريخ مصر البيزنطية بصفة خاصة، فما أقدمت عليه الحكومة البيزنطية من اضطهاد أنصار مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي) في القرن الخامس وما بعده أدى إلى انفصال الأقاليم الشرقية عنها مثل بلاد الشام ومصر، حيث ساد المذهب المونوفيزيتي[٨٣]، فقد ظل أنصار هذا المذهب متمسكين بمذهبهم رافضين كل المحاولات التي جرت للتوفيق بين مذهبهم والمذهب الخلقدوني أو الملكاني[٨٤].

وتمادت كنيسة الإسكندرية في عنادها، فأبطلت استخدام اللغة اليونانية في طقوسها الدينية، وأحلت محلها اللغة المصرية (القبطية)، واندلعت الفتن والاضطرابات في الإسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية عندما شرع الإمبراطور البيزنطي في تنفيذ قرارات مجمع خلقدونيا واتخذت هذه الاضطرابات شكل الثورات القومية[٨٥]، ولم تستطع السلطات البيزنطية قمعها إلا بإراقة كثير من الدماء، ولعل ذلك كان له دخل فيما حدث من نزعة انفصالية في هذه الأقاليم، ثم انتقال هذه الإقاليم بعد ذلك إلى أيدي الفرس ثم إلي أيدي العرب [٨٦].

---

(٨١) العريني : المرجع السابق ص ٦٣ .

(82) Ostrogorski : op. Cit. p. 55
(83) Vasiliev : op. Cit. 1, p. 99
(84) Hardy : op. Cit. p. 199
(85) Chadwick :op.cit.p. 205
(86) Ostrogorski:op.cit.p. 83, p.99

وترتب على قرارات مجمع خلقدونيا أيضا وعزل ديوسقروس أن اشتركت الطبقة الأرستقراطية بالإسكندرية في اختيار خليفة له بتأييد من الوالي البيزنطي في مصر، الأمر الذي جعل هذا البطريرق الجديد يبدو ممثلا للنفوذ البيزنطي أي الأجنبي في مصر، ولهذا نجد اشتدت المقاومة في الإسكندرية وطال أمدها خاصة وأنه كان لا يزال فريق كبير من الرهبان والعامة على ولائهم للبطريرق المخلوع، ولهذا أظهرت الإسكندرية شعورا عدائيا موجها ضد الحكومة البيزنطية وضد البطريرق الجديد[٨٧].

كما أضحى من العسير على الإمبراطور البيزنطي منذ مجمع خلقدونيا أن يختار بطريرقا للإسكندرية لأنه إذا عين بطريرقا على المذهب الخلقدوني يتعرض هذا البطريرق لمقاومة شديدة من قبل المصريين، وإذا رشح لهذا الكرسي الديني أحد رجال الدين المحليين يضعف سلطانه وسيطرته في مصر، خاصة وقد أظهرت مصر نزعة قومية واضحة تمثلت في لغتها ونظمها وما ابتكرته من رهبنه، وظل المصريون يواصلون معارضتهم لمجمع خلقدونيا، ويظهرون تمسكهم بعقيدة كيرلس وديوسقروس متخذين من ذلك كله رمزا للمقاومة والنزعة القومية فترة طويلة[٨٨]، إذ لم تكن المونوفيزتية عندهم إلا رمزا لهذه المقاومة وهذه النزعة القومية، ولذلك امتد النزاع الديني نحو قرنين من الزمان منذ منتصف القرن الخامس الميلادي تقريبا إلى قرب منتصف القرن السابع الميلادي أي إلى الفتح العربي لمصر، فلم يكن هذا النزاع الديني إلا مظهرا لما كان يكنه المصريون من الحقد على السيادة البيزنطية والكراهية لكل ما هو يوناني بيزنطي[٨٩].

---

(٨٧) العريني : المرجع السابق ص ٧٥

(88) Bury:op.cit.1,p. 216

(89) Chadwick:op.cit.pp.205-206

وحاولت الحكومة البيزنطية كثيرا تهدئة الأمور في مصر في الفترة التالية بما اتخذته من سياسة الوفاق مع الشرق، خاصة بعد سقوط إيطاليا في يد المتبربرين سنة ٤٧٦م، وخضوعها لأدواكر ثم لثيودريك من بعده، الأمر الذي أجبر الإمبراطور زينون ومستشاريه من رجال الكنيسة علي التفكير في الوفاق وتهدئة الأمور في الشرق فأصدر الإمبراطور سنة ٤٨٢م ما عرف بمشروع الاتحاد Henotikon وهو الصيغة التي مثلت المذهب الرسمي للدولة في الفترة التالية، وعلى عصر الإمبراطورين اللذين خلفا زينون في الحكم[٩٠].

وقام هذا المشروع أو الاتحاد على أساس تأييد مذهب نيقية بأن اعتبر المسيح إلها وإنسانا في شخص واحد، ولم يشر إلى طبيعتي المسيح وأنكر كل ما قيل غير ذلك في مجمع خلقدونيا وغيره من المجامع، وهي محاولة واضحة للتوفيق بين أتباع المذهب الخلقدوني والمذهب المونوفيزيتي[٩١]، وربما لهذا لقيت هذه الوثيقة تأييد المعتدلين من المونوفيزتيين والخلقدونيين، لأن الغرض منها كما بدا هو إعادة السلام والوحدة إلى الكنيسة، وإنهاء ذلك الخلاف الذي فرق عناصر الأمة، على الرغم من أن روما رفضت هذه الوثيقة واعتبرتها مقوضة لمذهب خلقدونيا وهجوما على البابا ليو العظيم، فترتب على إصدارها عداءاً دينيا بين روما والقسطنطينية استمر نحو ثلث قرن أو يزيد[٩٢].

وعلى الرغم من وجود جماعات متطرفة في مصر واصلت رفضها لهذه الصيغة، إلا أن وثيقة الاتحاد هذه كانت نصرا للقسطنطينية، لأن فريقا من

---

(90) Ostrogorski: op. cit. p.59
(91) Vasiliev:op.cit.1,p.108
(92) Bury :op.cit1, pp.402-403

المصريين قبلها وإن كانوا قد فسروها على أساس مونوفيزيتي[٩٣]، وأعاد قبول هذه الوثيقة إلى مصر البيزنطية شيئا من الهدوء الديني الحذر وقلل فرص اندلاع فتن دينية واضطرابات كان متوقعا لها الحدوث، غير أن النصر النهائي في مصر كان للمونوفيزيتية خاصة عند اعتلاء الإمبراطور انستاسيوس العرش (٤٩١-٥١٨م) فقد عادت مصر تحتج على قرارات مجمع خلقدونيا وتهاجم البابا ليو[٩٤]، وشجعها على ذلك ما أظهره هذا الإمبراطور من عطف على المونوفيزتيين، فكلما احتدم النزاع بين هذا الإمبراطور وروما في الغرب أزداد ميلا إلى المونوفيزتيين حتى وصل الأمر حد أنه نصب بطريركا مونوفيزتيا في مدينة إنطاكية في أواخر أيامه (٥١٢م) ووالي عطفه على المونوفيزتيين في الإسكندرية حتى غدت مصر في النهاية قلعة للمونوفيزيتية[٩٥].

الرهبانية والديرية:

تعني الرهبانية أن يحيي الفرد حياة عزلة تامة بعيدا عن العمران للانقطاع للعبادة وممارسة حياة الزهد والتنسك مع اختيار التفرد طوعا. أما الديرية فيقصد بها التقاء جماعات من الرهبان في مكان بعيد عن العمران ينقطعون فيه للعبادة وحياة الزهد والتقشف مع تحقيق مطالبهم الضرورية في الحياة، والدير هو المكان المخصص لسكنى الرهبان أو الراهبات وتعبدهم[٩٦].

---

(93) Hardy:op.cit.p.119
(94) Chadwick: op. cit. pp. 205-206
(95) Lot: op. Cit.p.298

(٩٦) المعجم الوجيز ص ٢٧٩
وانظر المقريزي: خطط ج٢، ص ٥٠٠ (ط بولاق)

والرهبنة بصورتها الأولى عمل من مبتكرات مصر المسيحية، ونظام مصري أصيل لم يتأثر كثيرا بالحركات النسكية السابقة[٩٧]، فنشأت الرهبنة في مصر نشأة ذاتية حين عاش الرهبان منفردين في مغارات منقورة في الجبال أو صوامع مقامة من الجريد أو القصب[٩٨]، وساعدت طبيعة مصر وجوها وكثرة الخرائب وبقايا الأطلال الأثرية واقتراب أطراف الصحراوات من واديها على نشأة ونمو هذا النوع من الحياة الدينية[٩٩].

وكانت الرهبنة وسيلة من وسائل الاحتجاج أو الهرب أو النأي بالنفس عن شرور العالم ومفاسده وحفاظا على العقيدة من احتمال الارتداد عن الدين أو طرح طاعة الله في الوقت الذي أعوزهم فيه القوة لمواجهة التنكيل أو التعذيب أو القتل[١٠٠]، ولهذا جرى اعتبار الناسك يلي الشهيد في المكانة ويأتي بعده في رتب السمو[١٠١].

وقد تلمس المسيحيون بذور الرهبنة وحياة الزهد والتقشف في أصول المسيحية الأولى، وفي تعاليم السيد المسيح- عليه السلام- الذي أثر عنه قوله "إذا أردت أن تكون كاملا فبع ما لديك وأعط ثمنه للفقراء واتبعني فسوف يكون لك كنز في السماء"[١٠٢] ، فضلا عما جاء في أقوال القديس بولس وتعاليمه من حث على ممارسة حياة الزهد والتقشف والعزوبة.

وترجع بدايات الرهبنة في مصر إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين، حيث عاش كل من الأنبا بولا أو بولس والقديس أنطون أو أنطونيوس، فكل

---

(٩٧) مراد كامل :حضارة مصر في العصر اقبطي ص ٢٠٦

(٩٨) عمر طوسون: وادي النطرون ورهبانه ص ٢٦

(99) Camb. Med Hist. V,5,p.658

(100) Lot :op.cit.p.10,Ostrogorski:op.cit.p. 424

(١٠١) العريني: المرجع السابع ص ٢٧

(١٠٢) الإنجيل : متى، ١٩-٢١

منهما أقدم من عرف من المتنسكين المسيحيين، لا في مصر وحدها بل في الدنيا بأسرها، أي أن مظاهر التنسك بدأت تنتشر تدريجيا على ضفاف وادي النيل[١٠٣] فقد ولد بولا سنة ١٥٠م ، ودرس أصول الدين المسيحي وتعلق به، ثم قرر أن يهجر العالم بما فيه من شرور وآثام ويزحل إلى قلب الصحراء للتعبد[١٠٤]، فأوغل في الصحراء الشرقية حتى ألقى عصاه في أحد كهوف الجبال المطلة على البحر الأحمر وهو في سن مبكرة، ولبث فيها إلى أن توفى وهو في سن تقترب من الثالثة عشر بعد المائة من عمره ، ولولا أن عثر عليه القديس أنطون مصادفة في أعماق الصحراء لظل أمره مجهولا[١٠٥].

ولقد أمدنا الرحالة بلاديوس Palladius بمعلومات طيبة وهامة عن الأنبا بولا وكهفه في أواخر القرن الخامس الميلادي، مما يؤكد أن أصول الرهبنة في مصر البيزنطية كانت عميقة الجذور بعيدة الغور[١٠٦]، كما كانت تجربة الأنبا بولا أقدم من تجربة القديس أنطون وإن لم تحظ تجربة بولا بما خطيت به تجربة الأنبا أنطون (انطونيوس) من شهرة ومن ذيوع، وإن اجتذبت حياتهما الزاهدة أناسا عديدين سلكوا طريقهما[١٠٧]، فكلاهما سطر فصلا هاما في تاريخ الرهبنة في مصر وفي كل أنحاء الدنيا في العصور الوسطى.

أما القديس أنطون (أنطونيوس) الذي عاش مائة وخمس من السنين من سنة ٢٥٠إلى سنة ٣٥٥م، فيعتبر المؤسس الحقيقي للرهبنة وحياة العزلة

(١٠٣) رؤوف حبيب: تاريخ الرهبنة والديرية في مصر وآثارها الإنسانية على العالم ص٣٥ ، Meinardus: op. cit. p. 1

(١٠٤) رؤوف حبيب: المرجع السابق ص ٣٦

(١٠٥) عزيز سوريال عطية ومنير شكري: عبقرية الأنبا باخوم وأثرها على الرهبنة والحضارة الغربية ص ٨٧

(١٠٦) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٢٨

(١٠٧) كولتون : الديرية أسبابها ونتاءجها ص ١٨٤ (ترجمة د. جمال الدين الشيال)

والتفرد في مصر البيزنطية[١٠٨]، إذ اتجه شطر سفوح الجبال الشرقية المجاورة لحافة الوادي شمال البقعة التي تعبد فيها بولا بنحو ستين كيلو مترا حيث عكف على العزلة والزهد والتقشف وزاره القديس أثناسيوس الرسولي – بطريرق الإسكندرية – وكتب عنه وعرف الناس بتجربته فأشعلت كتاباته عن أنطون وتجربته روح الرهبنة والتنسك في كل أنحاء الدنيا[١٠٩].

ولقد مارس القديس أنطون هذه العزلة الصارمة مع بدايات عهد الإمبراطور دقلديانوس وكان يتردد عليه خلال ذلك العهد بعض الزوار يحملون إليه زاده المتواضع، ثم لم يلبث أن اجتمع حوله عدد من أولئك الذين يرغبون في ممارسة حياة الزهد والتنسك، وحين قبل أنطون أن يكون معلمهم ومرشدهم برزت مواهبه وما امتاز به من الحكمة ورجاحة العقل ولما توفى أنطون سنة ٣٥٥ م صارت حياته نموذجا أمام كثير من الناس لمتابعة تلك الحياة الانعزالية القاسية[١١٠].

وتقوم فلسفة هؤلاء الرهبان المتفردين أو المنعزلين على أساس اختيار حياة يذل فيها الجسد لتسمو الروح، ولهذا كانوا يصومون أياما طويلة ويلبسون الخشن من الثياب من جلود الحيوانات وغيرها بحيث تلامس الأجزاء الخشنة من أجسادهم لتعذيب الجسد حتى تسمو الروح، وربما لزموا مغاراتهم أياما طويلة لا يخرجون معتمدين على أهل الخير والبر في الحصول

---

(108) Meinardus: op.cit . pp 1-3

(109) Ibid. p. 1,

رءوف حبيب : المرجع السابق ص ٣٨

(110) Painter: A Hist. of the Middle ages, p. 16,

مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٧، العريني: المرجع السابق ص ٢٩

على حاجاتهم البسيطة من فتات الخبز أو الملح أو الماء، فاتصفت حياتهم بالسلبية إلى حد بعيد ، ولم يشاركوا بجانب إيجابي في الحياة (١١١).

ثم أتجه رهبان آخرون إلى جهات أخرى من أرض مصر، ولكن ما كان يجمع هذه النماذج كلها في البداية هي حياة التوحد والتفرد التي اختارها الرهبان كنموذج لحياة طاهرة تتصف بالسلبية إلى حد بعيد حتمتها الظروف السياسية والاضطهادات الدينية التي نزلت بمصر في ذلك الوقت، فجاءت هذه التجارب مرحلة أولى في تاريخ الرهبنة في مصر المسيحية(١١٢).

لكن لم يكن منتظرا أن يظل نظام العزلة التامة هذا جامدا غير قابل للتطور، لأنه إذا كان قد مارسه عدد من المنعزلين الجبابرة والمتوحدين الشجعان، فإنه من غير المتوقع أن يتصف كل من أقبل على هذه الحياة بالشجاعة والقوة التي تمكنه من مواصلة العزلة ومجابهة تلك الظروف القاسية(١١٣)، كما بدت الرهبنة الانعزالية للعقلاء من الناس نوعا من التطرف المتعارض مع طبيعة الإنسان الاجتماعية، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه، يهوى إلى غيره من الناس ويلتمس الرفقة، ولهذا بدأ نظام الرهبنة يتطور تطورا بطيئا ليحل محله بمرور الوقت نوع آخر من الرهبنة الاجتماعية ونوع من المشاركة أو الاشتراك في الرهبنة تتيح للرهبان مجابهة ما كانوا يتعرضون له من صعاب مادية وبيئية في تلك الصحاري والقفار الموحشة (١١٤)

---

(111) Chadwick:op. cit.p.121
Lot: op. cit. p. 10
Ostrogorski : op. cit. pp . 42-4

(١١٢) عزيز سوريال عطية ومنير شكري: المرجع السابق ص ٨٩،
Meinardus: op. cit. P. 203

(١١٣) رؤوف حبيب: المرجع السابق ص ٤٠

(١١٤) رؤوف حبيب: نفس المرجع ص ٤٠

ويشير المؤرخون إلى أن إرهاصات هذا التطور بدأت في الظهور شيئا فشيئا حتى في حياة الأنبا أنطون نفسه، وبدأت فعلا الخطوة الثانية في تطور الرهبنة المسيحية أو الخطوة المتوسطة بين النظم الأنطوانية الأولى ونظم الديرية التي جاء بها باخوم أو باخوميوس[115]، ولهذا راح الرهبان يجتمعون في مناطق معينة حول شخصيات من المعلمين والآباء الروحيين ليتتلمذوا عليهم ويسترشدوا بتعاليمهم ويتشبهون بهم، وإن كان كل منهم لا يزال يحافظ على توحده في كهفه دون أن يعطله جاره أو يقطع عليه حبل تفكيره وتأمله، ولهذا جرى تنظيم مستعمرات الرهبان في مصر العليا خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة معاً إلا في أمور قليلة[116].

وهكذا كانت الرهبنة الاجتماعية Collective Eremiticism تمثل الدور الثاني في تطور الأنظمة الرهبانية في المسيحية المصرية، أي المرحلة المتوسطة بين الرهبنة الانعزالية أو الانفرادية التي مارسها كل من بولا وأنطون، وبين الديرية الباخومية أي أنها كانت مرحلة متوسطة بين الرهبنة الأنطونية والنظم الديرية، لأن الرهبان عاشوا في هذه المرحلة في قلالي منفردة متباعدة ولكنهم كانوا يجتمعون مرة كل سبت ليشتركوا معا في الصلاة[117].

والمعروف أن هؤلاء الرهبان لم يميلوا إلى العمل اليدوي بل عزفوا أيضا عن القراءة أو اقتناء الكتب، فلم يكن يشغل الناسك عمل يدوي أو قراءة لأنه لا ينبغي – في رأيه – أن يشغله شئ عن التأمل والعبادة، فربما قضى الناسك في مغارته أو كهفه سنوات دون الخروج منها معتمدا على أهل الخير والبر في

---

(١١٥) عزيز سوريال ومنير شكري: المرجع السابق ص ٩٣

(116) Painter: op. cit. p. 17

(١١٧) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٠٨ وأنظر محمد الشيخ: النظم والحضارة الأوربية في العصور الوسطى س ١٩٣

الحصول على حاجاته البسيطة من مأكل و مشرب، والغريب أن هؤلاء الزهاد كانوا يعيشون أعمارا طويلة ربما تجاوز عمر الواحد منهم قرنا من الزمان [١١٨].

غير أن الرهبنة الانعزالية أو الانفرادية في د...ها الأول أو دورها الثاني ما لبثت أن بدت للعقلاء من الناس نوعا من التطرف المتعارض مع طبيعة الإنسان وميوله الاجتماعية التي لا تحققها الخطوة الثانية في الرهبنة أي اجتماع عدد من الرهبان في قلالي أو مغارات متقاربة[١١٩]، فكان لابد من ابتكار نظام آخر يتفق مع طبيعة البشر من ناحية ويحقق الانقطاع للعبادة والتنسك من ناحية أخرى، ومن هنا نشأ النظام الديريMonasticism أو Monastic life الذي يمثل الدور الثالث في حياة الرهبنة والخاتمة في تطور حياة الرهبنة في مصر المسيحية[١٢٠].

ويعتبر الناسك المصري القديم باخوم أو باخوميوس أول نموذج لهذا النظام الذي عرفته المسيحية ، ويشير المؤرخون إلى ان هذا الفصل الجديد في تطور الرهبنة جاء من أروع الفصول وأهمها في تاريخ الرهبنة السابق واللاحق سواء في مصر البيزنطية أو بلاد الشرق قاطبة أو في الغرب الأوربي في العصور الوسطى[١٢١]، على الرغم من أن باخوم هذا ولد لأبوين وثنيين وظل هو أيضا على الوثنية حتى سن العشرين حتى اعتنق المسيحية، إلا أنه أخلص في عقيدته و كان صاحب فضل في تطور النظام الرهباني القديم.

---

(١١٨) عزيز سوريال ومنير شكري: المرجع السابق ص ١٠٠

(١١٩) رءوف حبيب: المرجع السابق ص ٤٠،
ومراد كامل : المرجع السابق ص ٢٠٨

(١٢٠) كولتون: الديرية ص ١٨٧

(121) Hodges : The Early Church, p, 156
Benz: The Eastern Orthodox Church ,p. 89

ولد باخوم سنة ٢٩٠م على الأرجح ببلدة بجنوب مصر بمحافظة قنا الحالية، فلما بلغ العشرين من عمره انخرط في سلك الجندية الرومانية، وإن لم تطل خدمته الحربية كثيرا، إلا أنها تركت أثرا هاما في شخصيته وحياته معا، فقد تعلم النظام والطاعة والعمل البدني، وألف حياة الجماعة أو الحياة الاجتماعية ، ثم ما لبث أن اعتنق المسيحية سنة ٣١٤م [١٢٢]، ثم مال إلى حياة الزهد والتنسك وعزم على الدخول في الرهبنة إذ أعجب بحياة العزلة ولكن بطريقة تخالف الانعزالية والانفرادية لشدة تعلقه بالحياة الاجتماعية وحبه لغيره من الناس ولهذا ابتكر باخوم نظامه الديري الذي يتواءم مع ميول الإنسان واجتماعيته من ناحية ويخدم المجتمع من ناحية ثانية طبقا لقاعدة راسخة وقانون واضح ، فاتخذت الرهبنة على يديه صفة الديرية أي الحياة الاجتماعية لأول مرة في مصر البيزنطية وفي العالم كله، وإن اتخذ الدير الباخومي في البداية الإطار الحربي أو العسكري [١٢٣]، لأن باخوم سبق وأن خدم في الجيش الروماني فترة، ولذلك نقل إلى ديره كثيرا مما تأثر به من نظم العسكرية الرومانية.

أسس باخوم ديره سنة ٣١٥م بالقرب من دندره بصعيد مصر، ضم عددا من الرهبان يمارسون حياة الانقطاع للعبادة مع التعاون في تنظيم مطالب الحياة، فقد فرض على رهبانه الالتزام بالطاعة والهدوء والنظام والعمل اليدوي مثل طهي الطعام وممارسة الصناعات المفيدة فضلا عن ممارسة

---

(١٢٢) رءوف حبيب: المرجع السابق ص ١٦٢، Meinardus: op. cit. p.157 ،مراد كامل : المرجع السابق ص ٢١١

(123) Meinardus: op. cit. P. 157,
عزيز سوريال ومنير شكرى: المرجع السابق ٦ ، ١٧

الطقوس الدينية والصلوات[١٢٤]، وعلى هذا نشأ أول دير باخومي، ثم أنشئت أديرة أخرى باخومية في جهات أخرى، حتى بلغت عند وفاة باخوم سنة ٣٤٦م نحو أحد عشر ديرا منها تسعة أديرة للرجال واثنين للنساء وكلها تمتد من إخميم شمالا حتى إسنا جنوبا[١٢٥].

ولم يكد ينتهي القرن الرابع الميلادي حتى كانت الرهبنة قد انتشرت في الوجه البحري، فضلا عن الجهات الممتدة على النيل وما يجاورها من الصحارى، كما حفلت شواطئ البحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية بأعداد كبيرة من الرهبان المصريين، ونمت الرهبنة في صحراء وادي النطرون بصفة خاصة فأقام هناك نحو خمسة آلاف راهب يمارسون ألوانا مختلفة من الحياة كل حسب طاقته، ثم أنشئت أديرة باخومية كثيرة قرب الإسكندرية، فقد أنشئ دير في كانوب [١٢٦]، واعتبر القديس مينا من أكثر القديسين احتراما وتبجيلا عند المسيحيين في مصر البيزنطية ، فقد استشهد هذا القديس في اضطهادات الإمبراطور دقلديانوس وحمل جثمانه على جمل وعند الموضع الذي توقف فيه الجمل عن السير بالصحراء غرب الإسكندرية وعلى الطريق الممتد إلى وادي النطرون تم دفن هذا القديس ثم قامت على مقبرته كنيسة ونشأت حول ضريحه مدينة صغيرة مقدسة [١٢٧]،أخذ الناس يحجون إليها من مصر ومن سائر بلاد الشرق وجرى تصوير مينا في الأيقونات المسيحية واقفا بين جملين قاعدين وصار يعتبر راعيا للقوافل، وبالقرب من قبره تفجر ينبوع

---

(١٢٤) رءوف حبيب: المرجع السابق ص ١٦٣،العريني: مصر البيزنطية ص ٣٦

(١٢٥) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢١١-٢١٢

(١٢٦) العريني: المرجع السابق ص ٣٥

(127) Vasiliev:op. cit. ,1, p. 127
Meinardus:op. cit. pp. 170-171

اشتهر بالكرامات والمعجزات حتى قيل" اشرب من ماء القديس مينا تزايلك جميع الأمراض".

ومن أهم الشخصيات في الرهبنة المصرية شنودة الأتريبي، وهو من أصل مصري وكتب مواعظه باللغة القبطية، وشغلت حياته الفترة الممتدة من النصف الثاني للقرن الرابع إلى النصف الأول للقرن الخامس الميلادي، إذ عاش نحو ١١٨م، وذاعت شهرة هذا الرجل ونظامه واشتد نفوذه بين أهل مصر، وصار من أكثر أعوان بطارقة الإسكندرية ومن أخلص جنودهم، فإذا كان البطريرق كيرلس الرأس المفكر في كنيسة الإسكندرية، فقد كان شنودة الأتريبي الذراع الطيعة له ولكنيسة الإسكندرية[١٢٨].

ثم ذاعت شهرة الرهبنة المصرية في أنحاء العالم المسيحي، وأصبحت مصر البيزنطية قبله الزوار الذين يحرصون على رؤية القديسين وسماع مواعظهم وتعاليمهم، فجاء الناس من سوريا ومن آسيا الصغرى ومن روما ومن غالة وإسبانيا، فرأوا وتعلموا ونقلوا ما رأوه إلى بلادهم وذويهم وبفضل هؤلاء الزائرين انتشرت مبادئ باخوم ورهبان مصر إلى كل أنحاء الدنيا وأعجب الغرب بها خاصة حين ترجم قانون باخوم إلى اللاتينية[١٢٩].

ولم تقتصر أهمية الرهبان المصريين على ذلك، بل ازداد نفوذهم في حياة المجتمع المصري فاعتبروا أنفسهم حماة العقيدة الحقة والمجاهدين في سبيلها، وشاركوا فيما جرى بمصر البيزنطية من المنازعات الدينية والسياسية حتى ضاق الأباطرة أحيانا بهم لتدخلهم في الأمور السياسية وفي النواحي القضائية وتطبيق القوانين[١٣٠]، واضطر الإمبراطور فالنز (٣٦٤-٣٧٨م) إلى أخذ

---

(١٢٨) العريني: مصر البيزنطية ص ٣٨

(١٢٩) العريني: نفس المرجع ص ٣٩

(130) Chadwick : op. cit. pp. 179-180

رهبان مصر بالشـدة لما ذاع من أنـهم يتخـذون الرهبنـة وسيلة للـهرب مـن الجنديـة والخدمـة في الجيـش البيزنطي فـأمر جنـده باقتحـام أديـرة وادي النطرون وإدخال رهبانها في الجندية قـهرا وذلك سنة ٣٧٥م، كما اضطر خليفته الإمبراطور ثيودسيوس(٣٧٩-٣٩٥ م) رغـم تدينـه وتقـواه إلى تحريـم سكن المدن على الرهبان لخطورتهم البالغة نظرا لأن الرهبنة اتخـذت حينئـذ طابعا قوميا بالغ الخطورة، غير أن الرهبنة المصريـة أخـذت في التدهـور منـذ النصف الثاني للقـرن الخـامس الميـلادي ثـم لم تلبـث أن انـهارت في القـرن السادس ، فلما دخل المسلمون مصر آذن ذلك بزيادة انهيارها[١٣١].

(١٣١) العريني : نفسه ص ٤٠

الفصل الثالث

التنظيمات الإدارية في مصر البيزنطية

الفصل الثالث

التنظيمات الإدارية في مصر البيزنطية

إذا أردنا أن نستعرض التنظيمات الإدارية في مصر البيزنطية، فلا بد أن نشير إلى هذه التنظيمات في فترة تبعية مصر للرومان أي الفترة السابقة مباشرة للعصر البيزنطي في مصر. فالمعروف أن الرومان قسموا مصر إلى ثلاث مناطق إدارية كبرى هي : طيبة ومصر الوسطى والدلتا، وجعلوا على كل منها حاكما وركزوا السلطة العليا في يد الحاكم أو الوالي الذي كان مقره في الإسكندرية، والذي جمع في يده السلطات كلها، إذ كان القائد الأعلى للجيش ورئيس الإدارة المدنية ومدير الشئون المالية والمسئول كذلك عن سيادة العدالة في البلاد، يساعده عدد من كبار الموظفين الذين عهد إليهم بالنظر في كل هذه الأمور[١].

وظل حاكم الإقليم في العصر الروماني صاحب السلطة العليا في الإقليم وله السيطرة التامة في عاصمة إقليمه ومقره الرسمي، على الرغم من أنه منذ أوائل القرن الثالث الميلادي، غدا بكل مدينة من مدن الإقليم مجلس للشورى أو مجلس بلدي، لم يؤد إلى جعل هذه المدن تظفر باللامركزية أو بالحكم الذاتي نظرا لأن حاكم الإقليم كان ولا يزال صاحب السلطة العليا في الإقليم كله وله السيطرة التامة على مجالس الشورى هذه أو المجالس البلدية[٢].

وفي أواخر القرن الثالث الميلادي، وعلى عهد الإمبراطور دقلديانوس جرت إصلاحات إدارية هامة في الإمبراطورية، كان لا بد وأن يتردد صداها

---

(١) بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص ٨٥

(٢) العريني : مصر البيزنطية ص ٨٣

في مصر أيضا باعتبار مصر ولاية تابعة للإمبراطورية [٣]، فقد جعلت الولايات محددة المساحة وجرى فصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، وإدماج الولايات في وحدات إدارية كبيرة تعرف كل منها باسم دوقية، وجرى تقسيم مصر بالذات إلى ثلاثة أقسام كبيرة هي : شرق الدلتا وغرب الدلتا وطيبة في الجنوب، ويحتمل أن هذه المقاطعات أو الأقسام الإدارية كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا وبمصر الوسطى ومصر العليا التي كانت موجود في الشطر الأول من العصر الروماني [٤].

وجرى تعيين حاكم على كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ، غير أن حاكم غرب الدلتا بصفة خاصة الذي يشمل نفوذه مدينة الإسكندرية تميز عن الحاكمين الآخرين بلقب " حاكم مصر"، وأضيفت سلطات أخرى إلى سلطته فاقت ما اختص به الحاكمان الآخران، لكن الثلاثة كانوا من الموظفين المدنين عهد إليهم بالشئون المدنية في أقسامهم بينما تولى السلطة العسكرية قائد أخر لقب " بدوق مصر " ولم تحظ عواصم هذه الأقسام بالاستقلال الذاتي في الحكم، إلا بعد أن تنحى دقلديانوس عن السلطة وترك العرش الإمبراطوري [٥].

معنى هذا أنه وضع على رأس السلطة المدنية في كل أنحاء مصر حاكم عام مقره الإسكندرية كان يهيمن على شئون الإدارة والمالية والقضاء، بينما أسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل، وبينما اتسعت سلطات هذا الحاكم في

---

(3) Vasiliev: op. cit. 1,p. 160

(٤) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص١٧

(٥) بل : المرجع السابق ص ٨٥

مقاطعته أو قسمه الإداري، وتولى حكم المقاطعات الأخرى رؤساء آخرين يقيم كل منهم في مقاطعته ويخضع في نفس الوقت للحاكم العام[٦].

ومع بدايات القرن الرابع الميلادي ظهرت تنظيمات إدارية جديدة في مصر البيزنطية، غدت القرية بموجبها أهم هذه الوحدات الإدارية، واحتلت القرى مكانة هامة في تلك التنظيمات الإدارية الجديدة [٧]، إذ غدا أهل القرية مسئولين عن زراعة زمامها أي الأراضي التابعة لها، وكذلك مسئولين عما هو مقرر عليها من ضرائب، وغيرها من الالتزامات، وغدا للقرية وجهازها الحكومي الذي يسير أمورها وشئونها الداخلية يرأسه موظف معروف أصبح بمثابة عمدة القرية، يساعده كاتب ومجلس مؤلف من شيوخ القرية يتولى النظر في الأمور المحلية دون أن يكون للسلطات العليا أثر كبير في عمله، وتطور الأمر حد أن صار عمدة القرية هذا في القرن السادس الميلادي أكبر موظف في القرية وحل بمرور الوقت محل مجلس شيوخها [٨].

ثم جمع البيزنطيون كل عدد من القرى في وحدة إدارية أكبر عرفت "بالباجوس" Pagus تلي القرية في الأهمية، يتولى أمرها موظف أكبر ربما كان عضوا من أعضاء مجلس الشورى الإقليمي، أصبح له سلطة أكبر في إدارة هذه الوحدة، فهو المسئول عن زراعة الأرض وتقدير الضرائب عليها وجبايتها، وممارسة القضاء أحيانا، وهذا النظام الإداري استحدثه البيزنطيون في مصر ليشابه ما كان معروفا حينذاك في الغرب، واستمر هذا النظام في مصر البيزنطية ربما إلى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين[٩].

---

(٦) مراد كامل: *المرجع السابق* ص ١٧–١٨

(٧) العريني: نفس المرجع ص ٨٥

(٨) العريني: نفس المرجع ص ٨٥

(٩) العريني: نفسه ص ٨٥

وكل عدد من الباجوسات شكل ما عرف بالباجركية التي ربما شملت الإقليم ذاته، وجرى اختيار الباجرك من بين طبقة الأغنياء، وحدث هذا التنظيم الإداري في القرن الخامس الميلادي ربما زمن الإمبراطور ليو الأول (٤٥٧-٤٧٤م)، على الرغم من أن بعض الدارسين يعتقدون أن سلطة الباجرك ربما لم تشمل كافة أنحاء الإقليم، بل الراجح أيضا أن الباجرك تولى منصبه على أنه تكليف لا يتقاضى عنه راتبا[١٠].

وإذا كان دقلديانوس قد قسم مصر إلى ثلاث مقاطعات أو أقسام إدارية كبيرة، فقد تكونت بعد ذلك مقاطعة رابعة تضمنت الأقاليم الشرقية في مصر، وفي أواخر القرن الرابع أضيفت ليبيا إلى مصر فأصبحت تشكل المقاطعة الخامسة[١١]. أي أنه مع بدايات القرن الرابع جرى إعادة تنظيم الإدارة المحلية في مصر البيزنطية، إذ قسمت مصر إلى وحدات فعلية في الإدارة المحلية، وترتب على ذلك إلغاء بعض المناصب الهامة وأصبح الموظفون الإداريون مسئولين عن جمع الضرائب والاختصاصات في الشئون المالية فضلا عن تولى القضاء [١٢]، في الوقت الذي ظلت فيه مجالس الشورى قائمة وألقيت عليها المسئولية كاملة عن الإدارة العامة والإدارة المالية، وغدت عواصم الأقسام الإدارية بلديات على النمط الروماني تتمتع بحكم ذاتي ، ويدخل في نطاق كل منها منطقة ريفية[١٣].

ولم يتوقف أباطرة بيزنطية عن الاهتمام بمصر في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فقد جعلت مصر دوقية اعتبار من سنة ٣٨٢م لتستعيد

---

(١٠) بل : مصر من عهد الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص ٢٣٧

(١١) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٧-١٨

(12) Bury: op. cit.1, p.27

(١٣) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٨

مصر وحدتها الإدارية، فصارت تخضع لسلطة الوالي الاوجستال [١٤] أو الوالي الكبير، الذي اتخذ الإسكندرية مقرا له باعتباره نائبا للإمبراطور، فـاجتمعت في يده السلطتان المدنية والعسكرية من جديـد، كـ ؛ تسـببت الأخطـار الـتي أخذت تهدد مصر خلال القرن الخامس أيضا في اجتمـاع السـلطتين في يـد حاكم طيبة في جنوب البلاد التي جرى تهديدها من قبل بدو الصحراء، وأكد هذا أن السلطة المركزية كانت حريصة على إحداث تغييرات من شأنها إقامة نظام إداري صالح في مصر البيزنطية لتقوية السلطة فيـها مـن ناحيـة وتقويـة دفاعاتها العسكرية من ناحية أخرى[١٥].

وكان من مهام الموظفين الإداريين في هـذه الفـترة أيضـا القيـام بمهمـة القضاء، وكذلك جمع الضرائب بعد تقديرها، إلا أن وضع السلطات القضائية في أيدي هؤلاء الموظفين الإداريين لم يحقق العدالـة في مصـر البيزنطيـة، ولم يضمن الحد المناسب لتحقيق العدالة لكـل سـكان مصـر، ولهـذا فقـد انحـدر القضاء وصارت مصـر فريسـة لقضـاء فاسـد، وعجـزت الحكومـة عـن توفـير الحماية والأمن والعدالة لسكان البلاد،[١٦]فأدى ذلك إلى تذمر الناس وسخطهم وكرههم للحكم البيزنطي، في الوقت الذي أصبحت فيه مهمة جمع الضرائب بعد تقديرها مهمة بالغة الخطورة والتعقيد في إدارة مصر البيزنطية في القرنـين الرابع والخامس الميلاديين[١٧].

فعلى الرغم مما أظهره بعـض الموظفـين مـن قسـوة في جمـع الضرائـب وصرامة القوانين في هذه الناحية، إلا أنهم لم ينجحوا في مهمتهم تمامـا، ولم

---

(14) Bury: op. cit. 1, p. 27(N.3)
(15) Diehl: l'Egypte Byzantin, p. 453

(١٦) العريني: المرجع السابق ص ٨٧

(17) Diehl:op.cit.p.467

يستطيعوا جمع الضرائب على الوجه المطلوب، من الفئات المطالبة بأدائها من ملاك الأراضي والفلاحين والصناع وأرباب الحرف، بل أن كثيرا من الموظفين الإداريين المكلفين بهذه المهمة أظهروا عدم الاكتراث بها، بل إن كثيراً من الموظفين الإداريين المكلفين بهذه المهمة أظهروا عدم الاكتراث بها بل تخلى بعضهم عن القيام بها، ولم يحفلوا بتهديد السلطة الحكومية بفرض العقوبات عليهم، بل إن بعضهم كان يهرب إلى الصحاري فرارا من هذه المهمة البغيضة، الأمر الذي يؤكد فساد الإدارة وضعفها في كثير من الأحيان[١٨].

وأدى فشل الموظفين الإداريين في هذه المهمة إلى تناقص ما كان يرسل إلى الخزانة العامة للإمبراطورية من أموال وإلى الإسهام في اضطراب الاقتصاد البيزنطي، لأن دافعي الضرائب لجأوا إلى مقاومة موظفي المالية واستخدموا الخداع والتمويه للهروب من دفع الضرائب، بل تخلى بعضهم أحيانا عن ـه لعجزه عن تأدية ما هو مقرر عليها من ضرائب كانت في كثير من ـأحيان جائرة، لا تتناسب مع الأحوال، بل فر بعضهم إلى أماكن أخرى هاجرا أرضه، وانخرط آخرون في سلك الجندية أو دخل الدير هربا من عسف الضرائب، فتناقص عدد السكان، وتعرضت الأراضي الزراعية للإهمال الشديد، ولهذا لجأت الحكومة إلى إضافة المقرر على الأراضي المهجورة إلى جيران هذه الأراضي الأمر الذي ضاعف من الظلم والطغيان وأدى إلى زيادة فساد الإدارة برمتها وزيادة المشكلة تعقيداً[١٩].

وترتب على فساد النظام الإداري خاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب وعسف الموظفين في جمعها، بل وتقديرها وكثرة شكايات الناس، أن فكر

---

(18) Ibid.p.454

(١٩) بل: المرجع السابق ص ١٥٤-١٥٥

الإمبراطور البيزنطي في حماية الناس من هذا الفساد والظلم بتعيين من عـرف "بحامي المدينة" [٢٠] الذي أصبح مـن واجبه كموظـف إداري حمايـة دافعـي الضرائب مما يتعرضون له من ظلم الموظفين ومندوبـي الضرائـب، إلا أن هـذا النظام لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ولم يحقق النتائج المرجوة في مصر البيزنطية، ولهذا جرى تعديل هذا النظام بأن أصبح للمدينة الحق في انتخاب حاميـها، ولما لم يؤد ذلك أيضا إلى نتيجة طيبة ، أصبح هذا الانتخاب من حق الأساقفة ورجال الدين والأعيان وملاك الأراضي ونواب البلديات[٢١].

وباعتلاء الإمبراطور جستنيان العرش سنة ٥٢٧ م تغيرت الأوضـاع لأن هذا الإمبراطور حرص على إدخال تعديلات هامة على نظـام الإدارة في مصـر البيزنطية، ليعود النظام كمـا كـان في الفـترة الـتي سـبقت ولايـة الإمـبراطور دقلديانوس، فاعتبر مصر وحدة إدارية واحدة ومال إلى دمج الأقسـام الإداريـة الصغيرة في أقسام كبيرة[٢٢]، واقتصر نفوذ الحـاكم العـام فيـها على المقاطعـة الأولى في حين ساوى بينه وبـين حكـام المقاطعـات الأخـرى وجعلـهم جميعـا خاضعين لدوق الشرق أو والي الشرق، الذي كانت مصر داخلة في اختصاصاته ومقره القسطنطينية. أما التعديل الآخر الذي أدخله جستيان فكان الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وإسنادهما معا إلى حكام المقاطعـات [٢٣]، ليصبح كل منهم رئيس الإدارة والشرطة والقضاء والمالية في مقاطعتـه وإن تميز حـاكم

(20) Bury :op. cit. 1, p. 443
(21) Diehl: op. cit. p. 454
(22) vasiliev :op. cit. 1, p. 160
(23) Bury :op. cit. 11, pp. 338-9
Vasiliev: op. cit. 1, p.160

المقاطعة الأولى في الإسكندرية بأنه هو الذي كان يجمع كل ضرائب مصر نوعية ونقدية ثم يرسلها إلى العاصمة البيزنطية[٢٤].

ويشير المؤرخون إلى أن اهتمام جستيان بمصر بصفة خاصة كان ينبع من رغبته في الحصول على القمح الذي كانت مصر تمد به القسطنطينية بصفة رئيسية [٢٥]، كما لا حظ الدارسون أن سلطة حكام المقاطعات غدت محدودة، فكثيرا ما كانوا يلجأون إلى القسطنطينية لطلب الجند عند اندلاع الفتن وحدوث الاضطرابات أو الثورات الداخلية، وإذا كان هؤلاء الحكام في البداية من الأجانب فقد رأى الأباطرة بعد ذلك اختيارهم من بين اليونانيين المقيمين في مصر، وكان الأساقفة وكبار الملاك وأعيان مصر يرشحون أحيانا الحاكم الذي يقر الإمبراطور تعيينه[٢٦].

وليس من شك في أن حالة مصر الإدارية في أوائل القرن السادس الميلادي كانت تنذر بالخطر لما اشتهرت به الإدارة من الفساد والظلم وقداحة الضرائب وفساد القضاء واشتداد السخط بين الناس، الأمر الذي فجر أزمة اقتصادية واجتماعية في ذلك الوقت بلغ من شدتها أنه لم يكن بوسع الإمبراطور في القسطنطينية أن يتعرف على أحوال مصر ويعلم مدى تفاقم الوضع وتردى الأحوال فيها [٢٧].

ولقد ترتب على ذلك نتائج بالغة الخطورة، إذ أدى فساد النظام الإداري، وما ترتب عليه من ضعف سلطة الإمبراطور إلى ضعف الطبقة التي تعتمد عليها الحكومة البيزنطية في مصر بسبب ما تعرضت له الطبقة

(٢٤) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٠

(25) Vasiliev: op. cit. 1, p.160

(٢٦) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٠

(27) Bury: op. cit. 11, pp. 35-57

الأرستقراطية من الفقر والانهيار، وما ترتب على الأعباء المالية القاسية من فقر الطبقة الوسطى[٢٨]، فحل مكان ذلك العنصر الوطني المتمثل في المسيحيين الذين جرفتهم الحماسة الوطنية والكراهية الشديدة لكل ما هو يوناني بيزنطي، وأسهمت الخلافات الدينية في تعميق هذا الشعور حتى أضحت مصر كلها أو معظمها تكن الكراهية الشديدة والعداء للحكومة البيزنطية بالقسطنطينية[٢٩].

وترتب على فساد الإدارة أيضا أن تغير شكل الملكيات الخاصة والعامة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فالمعروف أن الأراضي في مصر كانت إما من أملاك الإمبراطور أو من أملاك الكنيسة أو من الأملاك الخاصة التي عرفتها مصر زمن البيزنطيين بصفة خاصة، وقد حدث أن أخذت هذه الملكيات الخاصة تزداد بالتدريج على حساب الأملاك الإمبراطورية[٣٠]. بسبب ما صادف الحكومة من عقبات أدت إلى عجزها عن زراعتها أو حفظها، فأخذت الأراضي الإمبراطورية تقع بين كتلة الأراضي الخاصة بمضي السنين، فأسهمت هذه الظاهرة في نمو الملكيات الخاصة لتصبح ملكيات كبيرة، وأخذت تتزايد وتنمو في القرنين الرابع والخامس الميلاديين[٣١].

وترتب أيضا على نمو الملكيات الخاصة أن ظهرت طبقة أرستقراطية شبه إقطاعية بدأت في الظهور في المجتمع المصري في العصر البيزنطي، اشتهرت بالثروة والنفوذ علي حساب الطبقة الوسطي في المجتمع[٣٢]، التي

(28) Diehl: op. cit. p. 454
(29) Ibid. p. 454

(٣٠) العريني· المرجع السابق ص ٩١-٩٢

(31) Diehl : op. cit. p. 454
Diehl:op.cit.p.456

(٣٢) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٢،

أخذت في الانهيار والتداعي، وأدى إلى ازدياد مكانة كبار الملاك في مصر ما حدث من توليهم الوظائف العامة وانتخابهم في المجالس البلدية، فترتب على ذلك ضعف النظم البلدية وضعف السلطة المركزية لأنهم عمدوا إلى تخفيف المستحق عليهم من الضرائب وزيادتها على سائر دافعي الضرائب، في الوقت الذي سعى فيه جانب كبير من دافعي الضرائب هؤلاء من المصريين إلى التحرر من السلطان المباشر للإدارة المالية منذ أوائل القرن السادس الميلادي، فلحقت الخسارة بخزينة الدولة، وأدى ذلك إلى اختلال الأمن وإحداث الاضطرابات الشديدة كنتيجة حتمية لفساد الإدارة وضعف السلطة المركزية[٣٣].

والخلاصة بالنسبة للنظام الإداري في مصر البيزنطية، فقد ساد نظام إداري محكم على عهد الرومان، استمر حتى فترة حكم الإمبراطور دقلديانوس أي إلى أواخر القرن الثالث الميلادي، الذي حرص على أن تشهد مصر ما شهدته بقية أقاليم الإمبراطورية من إصلاحات إدارية هامة اشتهر بها هذا الإمبراطور، وكفلت قدرا من الهدوء في مصر، ومع بدايات القرن الرابع الميلادي ظهرت تنظيمات إدارية جديدة في مصر البيزنطية ارتكزت على وجود وحدات إدارية أهمها القرية والباجوس والباجركية، أي أنه مع بدايات ذلك القرن جرى إعادة تنظيم الإدارة المحلية في مصر البيزنطية بما يكفل الهدوء والأمن في مصر مع تكليف الموظفين الإداريين بمهمة جمع الضرائب وبعض الشئون المالية ، فضلا عن تولي القضاء، ثم جعلت مصر دوقية منذ سنة ٣٨٢م، فاستعادت مصر وحدتها الإدارية، وخضعت لوالي

---

(٣٣) العريني: المرجع السابق ص٩٣،

Diehl: op. cit. p.

كبير في الإسكندرية أو الوالي الاوجستال، الأمر الذي أكد حرص الحكومة المركزية على إقامه نظام إداري صالح في مصر البيزنطية وتقوية السلطة فيها من ناحية وتعزيز دفاعاتها العسكرية من ناحية أخرى، مع استمرار اضطلاع الموظفين الإداريين بمهمة جمع الضرائب وتولي القضاء، على الرغم من أن هذا أدى إلى وقوع مصر في فساد إداري ومالي شديد ترتبت عليه نتائج بالغة الخطورة، وحين تولى الإمبراطور جستنيان العرش أدخل تعديلات جوهرية على النظم الإدارية في مصر البيزنطية، أعاد بها مصر إلى وحدتها الإدارية الواحدة يتساوى فيها والي الإسكندرية مع بقية حكام الأقسام الإدارية الأخرى، مع خضوعهم جميعا لوالي الشرق في القسطنطينية، وجمع السلطة المدنية والعسكرية في أيدي حكام المقاطعات ووالي الإسكندرية، مع إسناد الإدارة والقضاء والمالية في كل مقاطعة لحاكم المقاطعة مع تميز حاكم الإسكندرية بميزة واحدة هي تجميع كل ضرائب مصر وقمحها لإرساله إلى القسطنطينية.

وعلى الرغم من ذلك فقد ترتب على هذه التغييرات نتائج بالغة الخطورة أجملها الدارسون في ضعف الطبقة التي كانت تعتمد عليها الحكومة البيزنطية في مصر، وأدى إلى تغير شكل الملكيات الخاصة والعامة أيضا، كما ترتب على ذلك ظهور طبقة أرستقراطية شبه إقطاعية بدأت تتولى الوظائف العامة وانتخب أفرادها في المجالس البلدية.

الفصل الرابع

التنظيمات الاقتصادية والمالية في مصر البيزنطية

الفصل الرابع

التنظيمات الاقتصادية والمالية في مصر البيزنطية

يمكن تمييز ثلاث مراحل لما شهدته مصر البيزنطية من تنظيمات اقتصادية ومالية :

المرحلة الأولى منذ بداية التاريخ البيزنطي في مصر حتى قبيل عهد جستنيان في القرن السادس الميلادي ثم المرحلة الثانية التي شهدت فترة حكم الإمبراطور جستنيان نفسه بإصلاحاته الشهيرة في مصر البيزنطية مواكبة لإصلاحاته في بقية أنحاء الإمبراطورية البيزنطية وأن تركزت إصلاحاته في الجوانب الإدارية والقضائية والدينية واهتمت أيضا بالشئون الاقتصادية والمالية في مصر، ثم المرحلة الثالثة والأخيرة في الفترة التي تلت عهد جستنيان وحتى نهاية العصر البيزنطي في مصر إلى قرب منتصف القرن السابع الميلادي ودخول العرب مصر، وعلى هذا فنحن مطالبين بعرض المرحلتين الأولى والثالثة في هذا الفصل مع تخصيص فصل خاص لإصلاحات جستنيان في الجوانب المشار إليها والتي تناولت أيضا النواحي الاقتصادية والمالية في مصر.

التنظيمات الاقتصادية والمالية حتى عهد جستنيان:

بالنسبة لملكية الأراضي، المعروف أن الأراضي في مصر كانت ملكا للدولة، أي أنها كانت ضياعا إمبراطورية أو أراضي حكومية[1]، يتسلم

---

(1) Johnson: - Egypt and the Roman Empire, pp.68-73
- Economic Studies, p-16

الفلاحون حصصا منها مقابل إيجار ثابت، وتبقى بأيديهم طالما قاموا بدفع إيجارها وجرى ذلك خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين(٢).

وفي عصر الإمبراطور دقلديانوس تطورت الأمور، وأضاف هذا الإمبراطور إلى الأراضي الإمبراطورية الأراضي التي كانت تابعة للمعابد، وما صادره من أملاك أهل الإسكندرية، كما صار من أملاك الإمبراطور أيضا محاجر الجرانيت والمرمر والشب و النطرون، فضلاً عن احتكار الحكومة للملح في سائر أنحاء مصر، وحتى الأراضي التي انتقلت إلى الأفراد اعتبرت ملكا للدولة أيضا، واعتبرت داخلة في الأملاك الإمبراطورية أي أنه اعتبرت أرض مصر كلها ملكا للتاج الإمبراطوري(٣).

معنى ذلك أنه لم تقم في مصر ضياع خاصة في هذه الفترة أي حتى أواخر القرن الثالث الميلادي، إلا أنه مع بدايات القرن الرابع وبزوغ الحقبة البيزنطية في مصر، بدأت الملكيات الخاصة في الظهور بمرور الوقت (٤)، وذلك حين بدأت الحكومة تبيع الأراضي التابعة لها، أو بعض الأراضي المملوكة للإمبراطور أو الأراضي المهملة، التي تخلى عنها أصحابها، وكذلك أراضي الأطراف التي كانت تباع بأثمان بخسة، فلم يلبث المصريون أن أصبحوا في القرن الرابع الميلادي ملاكا للأراضي على حساب أراضي الدولة أو الأراضي الحكومية. وهكذا لم يعد الإمبراطور هو المالك الوحيد للأرض في مصر البيزنطية، بل لم يكن أهم الملاك(٥).

---

(٢) العريني: مصر البيزنطية ص ٩٨

(3) Bury: op. cit. 1, p. 5
Johnson : Egypt the Roman Empire, p.80

(4) Johnson : Economic studies, p. 40

(5) Hardy: Christian Egypt, p. 43

وساعد على ظهور هذه الملكيات الخاصة أن الإمبراطور دقلديانوس كان معنيا بإصلاح أحوال الإمبراطورية، فتقرر في عهده بيع الأراضي الزراعية بشرط أن يقبل المشتري تسديد ما تقرر عليها من التزامات وضرائب، في الوقت الذي جرى فيه أيضا بيع الأراضي التابعة للمعابد أو الكنائس(٦)، فأصبحت الملكيات الخاصة في القرن الرابع أمرا مألوفا. ويبدو أن حاجة الإمبراطور دقلديانوس إلى المال للإنفاق على الجيوش والمضي فيما شرع فيه من إصلاح أحوال الإمبراطورية بما يتطلبه ذلك من أموال ، هي التي أدت إلى بيع هذه الأراضي وإلى ظهور الملكيات الخاصة. ولم يقبل على شراء الأراضي المصريون فقط، و إنما شاركهم في ذلك بعض اليونانيين الذين يبدوا أن تمتعهم بامتيازات خاصة في الضرائب أغراهم بتملك الأراضي، ومشاركة المصريين في هذه الناحية، فأقبلوا على شراء الأراضي لتصبح لهم أيضا ملكيات خاصة(٧).

وفي القرنين الرابع والخامس الميلاديين بدأت هذه الملكيات الخاصة تكبر وتزداد وتتعاظم مساحاتها لتصبح إقطاعات كبيرة، أو ما يسميه المصريون أبعاديات واسعة، الأمر الذي أقلق بعض الأباطرة، فبذلوا جهودا كبيرة لوقف نمو هذه الضياع أو الاقطاعيات في مصر (٨)، ولكن على الرغم من ذلك ليس هناك ما يؤكد أن تلك الضياع الخاصة قد بلغت في الاتساع ما بلغته الضياع في الغرب حتى في القرن السادس الميلادي، إذ تشير البرديات إلى أن متوسط الملكية الخاصة بلغ نحو أربع وأربعين فدانا، ولم تتجاوز مساحة أكبر

---

(6) Johnson : Egypt and the Roman Empire, pp. 77-78
(7) Ibid. p. 74
(8) Bury: op. cit. 1, p. 444

الضياع ثمانمائة فدان، وفي حالات خاصة بلغ بعضها نحو ألف وثلاثمائة فدان[٩].

ولقد أدركت الإمبراطورية البيزنطية، لا سيما منذ عهد دقلديانوس أن القرية تعتبر وحدة بالغة الأهمية في زراعة الأرض المحيطة بها. فكثير من القرى جمعت بين الأراضي الخاصة والأرض العامة المملوكة للدولة، قبل أن ينتقل الجانب الأعظم من أراضي الدولة إلى الأفراد ويدخل في نطاق الملكية الخاصة لأهل القرية، ولهذا فقد أصابت بعض القرى من الرخاء والثروة ما ميزها عن غيرها كثيرا، بفضل ما صار لها من ملكية خاصة للأراضي، وزاد في مكانة القرية ما صدر من تشريعات تمنع بيع أراضي القرية لأي أجنبي عنها[١٠].

ومثلت أراضي الكنائس والأديرة أيضا جانبا هاما من الأراضي الزراعية في مصر البيزنطية، فقد كان بعض الأباطرة أسخياء كثيرا على الكنائس في حين آل إلى الكنائس أيضا أراضي أخرى من الهبات والأوقاف الخيرية، سواء كانت هبات عامة أو هبات خاصة [١١]، إذ جرت عادة بعض المصريين على أن ينصوا في وصاياهم على تخصيص نصيب للكنيسة من أملاكها، فضلا عن دخول بعض الأراضي المهملة أو القابلة للاستصلاح في حوزتها، وكذلك بعض الأراضي التي عجز ملاكها عن مقاومة استبداد موظفي المالية أو أصحاب السلطة وطغيانهم فهجروها فحازتها الكنيسة[١٢]. أما أراضي الأديرة فقد اتسعت في القرن الرابع بصفة خاصة، بعد أن حث الديريون على العمل

---

(٩) العريني : المرجع السابق ص ١٠١

(10) Johnson : Economic studies, p. 19
(11) Hardy : op. cit. p. 45
(12) Johnson: Ec. St. p. 73

في الحقول والبساتين وفي استصلاح الأراضي واستزراعها، فتعاظمت الأراضي التابعة للأديرة واتسعت لتضاف إلى الأراضي الكنسية، فتمثل في القرن السادس جانبا كبيرا من أراضي مصر الزراعية(١٣)، وما كان يرد للكنيسة والأديرة في القرن السادس من محاصيل بكميات كبيرة خاصة الشعير، إنما يدل على ما كان للكنائس والأديرة من أملاك متسعة.

أما عن الفلاح فعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة قوانين في مصر البيزنطية تربط الفلاح بالأرض، فإن أفق الفلاح لم يتجاوز حدود قريته الضيقة، ولم يتعد تفكيره تلك الحدود الضيقة، وظل الأبناء يتوارثون حرفة الزراعة من الآباء في الوقت الذي أضحت فيه حيازة الأرض وراثية(١٤)، ولم يكن ارتباط الفلاح بقريته أمرا محتما ودائما، وإنما تسببت عوامل أحيانا في انتقال الفلاحين إلى أماكن أخرى، إذ تعرضت أ انا الأرض الواقعة على حافة الصحراء للإهمال والخراب وهجرة السكان بسبب انخفاض النيل أو إهمال تطهير الترع أو توالي رداءة المحصول، وأحيانا أخرى اجتذب النشاط الصناعي والتجاري لبعض المدن أعدادا كبيرة من سكان القرى، خاصة حين دخلت مصر في محيط تجارة البحر المتوسط، ونمت بعض مدنها الصناعية والتجارية مثل الإسكندرية(١٥).

وعرفت مصر البيزنطية نوعين من الفلاحين: الفلاحون الأحرار، والفلاح الحر هو الذي نشأ بقريته وارتبط بأرضه وجرى تسجيله في تعداد الدولة سواء أكان مستقلا بنفسه أو حاصلا على حماية جاره الأقوى، وهذا الفلاح يقوم بزراعة أرضه ويورثها لأبنائه لزراعتها ايضا، وقد غصت وثائق

---

(13) Ibid. p. 69

(14) Johnson: Egypt and the Roman Empire,p.87

(١٥) العريني: المرجع السابق ص ١٠٩

مصر البيزنطية منذ أواخر القرن الخـامس الميلادي بأخبار هذه الفئة من الفلاحين الذين أسمتهم الفلاحين القراريين[١٦]. أما الفريق الآخر من الفلاحين فيشير المؤرخون إلى أنه مسه نوع من القنية أو العبودية في ذلك العصر، إذ التزم هؤلاء بزراعة أرض الدولة سواء كانت حكومية أو مملوكة للإمبراطور بطريق السخرة أو عوملوا في قراهم على أنهم أرقـ.. وجرى تطبيق بعض القوانين عليهم لربطهم بالأرض وبأماكن معينة لا يغادرونها، وهذا الفريق من الفلاحين لا يمتلكون أراضي أصلا أو أنهم فقدوا لسبب أو لآخر ما كان في حوزتهم من أراضي[١٧].

وينبغي أن نشير هنا إلى أن العلاقة التي ربطت بين الفلاحين الذين سعوا بمحض إرادتهم للحصول على حماية جيرانهم الأقوياء والذين سموا بالفلاحين القراريين. والذين اضطروا منذ القرن السادس إلى أن يلجأوا إلى كبار الملاك لحمايتهم. وبين هؤلاء السادة الأقوياء[١٨]، تتمثل هذه العلاقة في إعلان الفلاح ولاءه وخضوعه لسيده وتعهده بالقيام بأعباء الزراعة وأداء ما يتقرر عليه من ضرائب، وفي مقابل ذلك يقوم السيد بتسليمه أدوات الزراعة ويقرضه أحيانا أموالا يتعهد الفلاح بتسديدها، فإذا لم يؤد الفلاح هذه الالتزامات تعرض لتوقيع الجزاء المنصوص عليه في العقد[١٩]، وعلى الرغم من ذلك يرى المؤرخون أن هذه العلاقة بين الفلاح وسيده لم تكن تنقص كثيرا من

---

(16) Johnson: op. cit. p. 96
(17) Johnson : Ec. St. p. 29

(١٨) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٥

(19) Johnson: Egypt.p.100

شعور الفلاح بأنه عامل حر ولد حرا ونشأ حـرا ودرج علـى أن يكتـب اسمـه واسم أبيه وأمه[٢٠].

كما يشير المؤرخون إلى أن هذا النوع من العلاقة بين الجانبين يخـالف ما كان معروفا في الغرب إذ لم يكن الفلاح في الغرب له حق الملكية أو يدعـي لنفسه حق الملكية ، بل إن حالته هناك لم تكن تزيد كثيرا عن حالة الرقيق أو العبيد[٢١]. لكن الفلاح في مصر البيزنطية الذي سـعى للحصـول علـى حمايـة جاره القوي كان يملك الأرض ما لم تكن ملكا للتـاج ، بينمـا جـرت علاقاتـه بسيده في إطار عقد خاص أتاح له الاقتراض من السيد ما كان يحتاج إليه من مال أو أدوات زراعية أو بذور أو غير ذلك ، وتعهد في نفس الوقت بسـداد مـا عليه من التزامات مع اعتباره مواطنا له كيانه وشخصيته المميزة التي أتاحت له حق التعاقد أو رهن أرضه أو تقديم ضمان يغطي تسديد ما هو مطلوب منه ، ولهذا لم يقم دليل من هذا العصر على أن هذا الفلاح كان قنا أو عبدا بـالمعنى المعروف[٢٢].

وعلى هذا فإن وجود القنية والأقنان بالمعنى الدقيق في مصر البيزنطيـة يحتاج إلى أدلة على الرغم من نمـو الملكيـات الخاصـة علـى حسـاب أراضـي الدولة ، وازدياد اتساع هذه الملكيات الخاصة بمرور الزمن ، مما أدى إلى وجود ملكيات كبيرة في ذلك العصر[٢٣]. ويستشهد بعض المؤرخين على عدم وجـود القنية في مصر البيزنطية بانخفاض الضرائب العينية انخفاضـا محسوسـا ممـا

---

(٢٠) العريني : المرجع السابق ص ١١١

(21) Rowling : Every day life in Medieval times , pp. 21-27

(22) Hardy :op. cit. pp. 50-51
Johnson : Egypt.p.100
Hardy: op. cit. p. 25

(٢٣) العريني: نفس المرجع السابق ص ١٠٣ ،

يدل على أن الفلاح توافر لديه من الحبوب ما جعله يتصرف فيها بالبيع في السوق الحرة[٢٤]. كما يستدلون على ذلك بنمو المسيحية وانتشار الرهبنة والديرية التي ناهضت كل محاولات إنزال الناس إلى رتب العبودية أو إلحاق الأذى أو الظلم بهم، لأنه كلما تعرض الفلاح لنوع من العسف أو الجور وجد في الكنيسة حاميا ونصيرا[٢٥].

هذا فضلا عن تمتع المصريين منذ أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع بحق بيع الأراضي الزراعية بشرط أن يقبل المشتري تحمل مسئولية الوفاء بما يقرر عليها مستقبلا من التزامات. يضاف إلى ذلك تمتعهم أيضا بحق تأجير تلك الأرض وتحصيل إيجارات عينية مما تنتجه من محاصيل أو الحصول على إيجارات نقدية[٢٦]. في الوقت الذي تمتعت فيه الكنائس بتأجير الأراضي التابعة لها بعقود إيجارات طويلة بلغت أحيانا عشر سنوات. الأمر الذي أدي إلي أن يحتج المستأجر في كثير من الأحيان عند انتهاء مدة العقد ويتمسك بالاستمرار والبقاء في الأرض، مهما كان الإيجار ومهما جرى تحديد مدة هذا الإيجار. وشاع أيضا في مصر البيزنطية الإيجار الذي ينص على اقتسام المحصول بين المالك والمستأجر، وإن أدى ذلك إلى سوء أحوال المستأجرين الذين رضوا بمبدأ المشاركة في المحصول خاصة في القرن السادس الميلادي[٢٧].

أما عن الضرائب في مصر البيزنطية، فكان الفلاحون يؤدونها للحكومة مباشرة في بعض الأحيان بينما قام أصحاب الضياع بجباية الضرائب

---

(24)Johnson :Ec. St. p. 32
(25)Ibid. p. 32
(26) Johnson: Ec. St. p. 75

(٢٧) العريني: المرجع السابق ص ١١٧

المقررة على فلاحيهم لأدائها للدولة في أحيان أخرى، وشملت هذه الضرائب الضرائب العينية أو النوعية التي تمثلت في الشعير والفول والبصل والكتان والزيتون وغيرها من المحاصيل، كما حصلت ضرائب نقدية على الأراضي لاسيما التي تزرع محاصيل أخرى غير الحبوب مثل الكروم وأشجار النخيل وأشجار الفاكهة وما تغله الحدائق(٢٨) من فواكه، كما فرضت ضرائب على الحيوانات مثل الإبل والحمير والخيل والأغنام والماعز إذا كانت فرادي أو بأعداد قليلة، أما إذ شكلت قطعانا بغرض التجارة ، فقد جرى فرض ضريبة المراعي عليها كقطعان الماشية والأغنام والماعز والإبل وغيرها(٢٩)،وفرضت ضريبة على الطيور مثل الحمام والدجاج والأوز والبط وجرى تقديرها وفقا لما يملكه الفرد وعدد ما يملكه منها. وهناك أيضا ضريبة الرأس التي كان ينفق منها على الخدمات العامة كالحمامات والجسور(٣٠)، كما تقرر على أرباب المهن ضريبة خاصة، فضلا عما يرد من الاحتكارات والمكوس التي فرضت على السلع الترفية الواردة من الشرق، وبجانب ذلك كله جرى أحيانا فرض ضرائب استثنائية عديدة لسد بعض النفقات،وكلما احتاجت الحكومة إلى ذلك(٣١). هذا إلى جانب المصادرات التي كان يلجأ إليها ولاة مصر البيزنطية لصالحهم الخاصة، لا سيما مصادرة الحبوب.

أما عن الضريبة التي اشتهرت باسم " ضريبة الميرة " والتي صارت منذ أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الميلاديين ضريبة دائمة يؤديها

---

(٢٨) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص ٢٢

(29) Johnson : Egypt .p. 108
(30) Ibid. p. 109
(31) Bury: op.cit.1, p. 47
Vasiliev: op. ci[illegible] p.161

المصريون للحكومة البيزنطية، فقد تقررت على إثر ازدياد نفقات الدولة واندلاع الحروب واستمرارها وزيادة أعداد الجند في الجيش وكثرة الموظفين وكثرة نفقات البلاط وتكاليف المنشآت المعمارية، والتي أضافت إلى الأعباء المالية على الدولة[٣٢]، الأمر الذي ترتب عليه تقرير هذه الضريبة التي كانت ضريبة نوعية تؤخذ عينا من كل أقاليم الإمبراطورية بما فيها مصر وارتبطت بما تنتجه هذه الأقاليم من محاصيل، وفي مصر جرى تحصيلها قمحا لينفق منها على الجيش [٣٣]، وأعفى سكان المدن من أدائها.

وعلى الرغم من ذلك يشير المؤرخون إلى أن عصب الضرائب في مصر البيزنطية ارتكز على ضريبتين بصفة أساسية هما : ضريبة الأرض وضريبة الرأس. فقد أشار إلى ذلك أحد ولاة مصر على عهد الإمبراطور دقلديانوس في إحدى الوثائق بقوله" إني لأقرر صراحة ما يخص كل فدان من الضريبة وفقا لطبيعة أرضه، وكذا ما يخص كل رأس من الفلاحين من الضريبة" فكأن ضريبة الأرض وضريبة الرأس تقررتا معا وكانتا أهم الضرائب في ذلك الوقت على الإطلاق[٣٤].

وجرت العادة أن يصدر أمر إمبراطوري بتقدير الضريبة على مصر في كل عام، فيقوم الوالي بتوزيع مقدار الضريبة على أقاليم مصر تمهيدا لجبايتها، إذ أن مقدار الضريبة المطلوبة لم يكن ثابتا في كل عام أو بصفة مستمرة، وإنما كان قابلا للتغير،وبعد أن يجرى تقدير الضريبة علي كل إقليم يقوم حكام الأقاليم أو المقاطعات باتخاذ الخطوات اللازمة لجمع الضريبة التي

(32) Camb. Med. Hist. V. XII, p. 400
(33) Bury : op. cit. 1, p. 49

(٣٤) العريني: المرجع السابق ص ١٢٠،

Camb. Med. Hist. V. XII, p. 400

يتولى تقديرها علـى كـل وحـدة مندوبـون عينـوا لهـذه المهمـة تطبيقـا لأوامـر الإمبراطور[٣٥]. فإذا لم يكتمل المبلغ المطلوب جرى فرض مبلغ إضافي على كل وحدة.

وجرت العادة أيضا أن تجبى ضريبة الرأس نقدا، بينما جـرى جبايـة ضريبة الأرض عينا، وتشير الوثائق والبرديات المحفوظة من ذلك العصر، إلى أن الضريبة العينية من قمح مصر بلغت أحيانا نحـو ثمانيـة ملايـين إردب، كان لا بد من جمعـها وتسـليمها في الإسـكندرية لمندوبـي الحكومـة تمـهيدا لشحنها إلى القسطنطينية في كل عام، ولهذا أولى الأباطرة مصر والإسـكندرية بصفة خاصة اهتمامهم[٣٦].

وليس من شك في أن بيزنطية كانت تستهدف استنزاف ثروات مصر، وإظهار القسوة في جباية الضرائب لا سيما ضريبة القمـح، إذ مـن الثـابت أن الضرائب التي كانت تجبيها بيزنطة لم تتناقص طوال العصر البـيزنطي، بـل أنها لم تقل عما كـانت عليـه قبـل ذلـك العصـر، بـل كـانت تـزداد بـاطراد وتتصاعد بمرور السنين، فأدى ذلك إلى سوء أحوال البلاد وإرهاق الناس فـوق ما يطيقون[٣٧]، وأصبحت جباية الضرائب مهمة شاقة لكل سلطة في مصر، إذ كثيرا ما امتنع الناس عن أدائها أو تأخروا في ذلك فتعرضوا للعقوبات وتوقيع الغرامات الإضافية، بل وصودرت أملاكهم وزج بهم في السجون أحيانا وربما لهذا بدأت طبقة صغـار المـلاك في الاختفاء تدريجيـا خـلال القرن الخـامس

---

(35) Bury: op. cit. 1, p. 47
(36) Vasiliev: op. cit. 1, p. 160
(37) Ibid. p. 161

والقرن السادس الميلاديين حتى لم يعد لها وجود في أواخر العصر البيزنطي[٣٨].

أما عن منتجات مصر وصناعتها وتجارتها فبالإضافة إلى المحاصيل الزراعية المتنوعة التي ورد ذكرها في الصفحات السابقة، والتي شكلت الجانب الأعظم من القوة الاقتصادية في مصر البيزنطية، عرفت مصر الصناعة في ذلك العصر، خاصة صناعة الأدوات الخزفية والعاجية والزجاجية، كما تميزت مصر بصناعة المنسوجات المختلفة، الكتانية والصوفية والحريرية، واشتهرت كذلك بصناعة ورق البردي الذي كان يجري تصديره لكل أنحاء الدنيا. فضلا عما زخرت به مصر من مناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت[٣٩].

وانتظم أصحاب كل حرفة في نقابة ترعي مصالحهم، وتخضع لموظف مسئول كان من مهامه مراقبة الأسعار وتحصيل الرسوم وتقديم المعونة لأفراد النقابة. لا سيما العقوبات الاجتماعية عند العجز أو الخسارة أو التعطل، وعرفت مصر البيزنطية الأسواق أو المعارض الكبيرة التي كانت تقام سنويا وأيضا الأسواق الأسبوعية الصغيرة التي كانت تقام في القرى لسد حاجات المناطق الريفية والجهات المجاورة[٤٠].

ولقد شكلت التجارة جانبا هاما من نشاط مصر في العصر البيزنطي[٤١]، إذ كانت مصر تقع على الطريق الذي يربط الشرق بالغرب، والذي تتجمع فيه متاجر الشرق الأقصى وآسيا وإفريقيا وبلاد ما بين النهرين وفلسطين في

(38) Bury: op. cit. 1, p. 444

(٣٩) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٢-٢٣

(٤٠) مراد كامل : نفس المرجع ص ٢٣

(41) Vasiliev: op. cit. 1, p.160

طريقها إلى الغرب الأوربي، فقد استقبلت مصر البيزنطية السفن الواردة من الصين والهند وجنوب شرق أسيا وسيلان محملة بالأخشاب والحراير والخزف والفلفل والعطور والتوابل والقرنفل والمسك والقطن والنحاس، وما كان يرد من الأحجار الكريمة واللؤلؤ وغيرها من محاصيل الشرق، لتنزل في منطقة القصير ثم تحملها القوافل إلى مدينة قفط على النيل، حيث تشحن في مراكب إلى الإسكندرية حيث تفرض عليها الضرائب [٤٢].

كما استقبلت مصر الحاصلات الإفريقية تتضمن الزمرد والعاج والأبنوس والرقيق والبخور والتوابل والذهب من أواسط إفريقيا، وحملت هذه المتاجر منذ بداية القرن السادس في البحر الأحمر[٤٣]، إلى مدينة القلزم (مكان السويس الحالية)، ثم تتجه هذه المتاجر غربا في القناة التي كانت تصل القلزم بالنيل عند حصن بابليون، ثم إلى مواني البحر المتوسط عن طريق النيل[٤٤]، أما حاصلات بلاد ما بين النهرين وفلسطين فقد كانت تحملها القوافل البرية في طريق يصل إلى مدينة غزة ثم الفرما لتصل إلى مدينة بلبيس فمدينة أون ومنها إلى الإسكندرية [٤٥].

ويشير المؤرخون إلى أن تجارة مصر في العصر البيزنطي تعثرت كثيرا بسبب منافسة الفرس وتحكمهم في بعض الطرق بين الشرق والغرب، والتي ترتب عليها تحويل جانب كبير من التجارة الشرقية إلى الخليج ، وعدم وروده إلى مصر عبر البحرالأحمر، وحاول الإمبراطور جستنيان إعادة النشاط

---

(42) Bury: op. cit. 1, p.53
(43) Ostrogorsky: op. cit. P. 68

(٤٤) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٣

(٤٥) مراد كامل : المرجع السابق ص٢٤

التجاري إلى البحر الأحمر إلى سابق عهده[٤٦]، فأجرى مفاوضات مع الأحباش ليحلو محل الفرس في الوساطة لجلب المتاجر من جزيرة سيلان إلى بيزنطة عبر مصر، ولكن الأحباش لم ينجحوا كثيرا في هذه المهمة، ولم يصب جستنيان في مسعاه توفيقا كبيرا[٤٧]، هذا فضلا عن وجود عوامل أخرى تسببت في تعثر التجارة في ذلك العصر، إذ كان لسخط الشعب المصري وثوراته على الحكم البيزنطي بسبب فداحة الضرائب وعسف جباتها، وعجز الحكومة عن إصلاح فساد الإدارة وعدم استتباب الأمن في الأقاليم والاضطرابات في العاصمة، والاضطهادات الدينية كل ذلك كان له أثر فعال في القضاء على ازدهار التجارة وانتعاش الصناعة في مصر البيزنطية[٤٨].

إذ لم تكن مصر في نظر الأباطرة البيزنطيين إلا حقلا كبيرا ينتج الحبوب، ويثري خزانة الدولة بالأموال، فاستغلوها كما لو كانت موردا لا ينضب وبلدا لا ينتهي ثراؤه دون النظر إلى شعبها أو الاهتمام برخاء أهلها أو النظر فيما عم هذه الولاية أحيانا من فقر وقحط وفساد[٤٩]، ولهذا تسبب البيزنطيون في خراب البلاد وإحداث الدمار بها، ولعل في ذلك يكمن السبب في ترحيب المصريين بالعرب المسلمين والفتح العربي لمصر يحدوهم الأمل في استعادة الأمن والطمأنينة والرخاء والتمتع بحقبة جديدة يظللها الرخاء والثراء ومجتمع ترفرف عليه السعادة والرفاهية[٥٠].

---

(46) Ostrogorski: op. cit. p. 68

(٤٧) مراد كامل : نفس المرجع ص ٢٤

(٤٨) العريني: المرجع السابق ص ٩٤

(٤٩) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٦-٢٧

(50) Butler: the Arab conquest of Egypt, pp. 177-9

التنظيمات الاقتصادية والمالية بعد جستنيان وحتى نهاية العصر البيزنطي في مصر :

باعتلاء جستنيان العرش البيزنطي سنة ٥٢٧م بدأت حقبة جديدة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فقد اهتم جستبنيان كثيرا بإصلاح أحوال الإمبراطورية وإكسابها الوجه الحضاري الذي تميزت به من قبل والاهتمام كثيرا بأحوالها المالية والاقتصادية [٥١]، ونالت مصر منه عناية فائقة - كما سوف يتضح في الفصل التالي- إذ اهتم بإصلاح أحوالها المالية والاقتصادية ليتسنى له جباية الضرائب المقررة، خاصة وأنه لم يفرض ضرائب جديدة، وإنما كان معنيا فقط بجباية ما كان مقررا من قبل من هذه الضرائب وإن اشتد كثيرا في تحصيلها [٥٢].

ولمعرفة جستنيان بطبيعة مصر وثرائها وخصوبة أراضيها وإمكاناتها الاقتصادية، اهتم كثيرا بالإدارة المالية فيها وحاول جاهدا إصلاح هذه الإدارة وحث الموظفين الماليين على بذل كل جهد لضمان استغلالها ، إذ كانت مصر تؤدي ما تؤديه سائر أقاليم الإمبراطورية من الضرائب فضلا عما كانت تؤديه من ضريبة القمح للإمبراطورية بشكل جعل لها وضعا خاصا بين أقاليم هذه الإمبراطورية [٥٣].

ومنذ عهد جستنيان غدت الضرائب المفروضة على مصر نوعان : الضرائب المباشرة، والضرائب غير المباشرة، أ ا الضرائب المباشرة فهي ضريبيا الأرض وضريبة الرأس، وتعتبر ضريبة الأرض أهم الضرائب المباشرة، ويجري تحصيلها عينا أو نوعا إما من نفس محصول الأرض أو تقديرا لهذا

---

(51) Lemerle : Histoire de byzance, pp. 56-7
(52) Vasiliev: op. cit. 1. pp. 162-3
(53) Diehl: L' Egypt Byzantin , p. 465

المحصول. وتشكل هذه الضريبة الجانب الأعظم من الحصيلة الضريبية في مصر البيزنطية[٥٤]. أما ضريبة الرأس فكانت ضريبة شخصية يدفعها السكان كل بحسب مقر إقامته، إذ يجري تسجيل وإثبات أسماء دافعي هذه الضريبة حسب مقر إقامتهم في الشوارع والدروب، كما جرى إلزام أصحاب الحرف بدفع هذه الضريبة، ومنذ أوائل القرن الرابع تقررت هذه الضريبة على الذكور البالغين من العمر ما بين١٢، ٤٥ سنة [٥٥]، كأنها أشبه بضريبة الدفاع.

أما الضرائب غير المباشرة فمنها الضرائب الثابتة أو الدائمة ومنها كذلك الالتزامات الاستثنائية، فالمكوس الجمركية كانت من الضرائب غير المباشرة، وتفرض على السلع والمتاجر التي ترد إلى مصر أو تخرج منها خاصة وأن الحركة التجارية عبر مصر كانت بالغة النشاط [٥٦]، فلقد كان التجار -كما سبق أن أشرنا- يرتحلون من الإسكندرية ومن مواني مصر على البحر الأحمر إلى آسيا يسعون للحصول على متاجر وسلع الشرق كالعطور والمر من اليمن والتوابل واللؤلؤ من الهند والحرير من الصين، وإن تعرضت تجارة الحرير في القرن السادس للأخطار بسبب الحروب التي اندلعت بين بلاد فارس وبيزنطة، خاصة وأن هذه المتاجر بالذات كانت ترد إلى بيزنطة عبر إيران [٥٧]، فحاول جستنيان أن يتخذ طريقا جديدا لتجارة الحرير عبر مصر بوساطة الأحباش اعتبارا من سنة ٥٣٢م، إلا أنه لم يصادف توفيقا كبيرا، وإن عادت الأمور إلى نصابها بين بيزنطة والفرس، وهدأت الأحوال بينهما

---

(54) Camb. Med. Hist. V. XII, p. 400, العريني: المرجع السابق ص١٧٨

(55) Johnson : Economic Studies, p. 259

(56) Vasiliev: op. cit. 1, p. 163

العريني: نفس المرجع السابق ص ١٨٠-١٨١

(57) Vasiliev: op. cit. 1. p. 163

فعادت تجارة الحرير عبر إيران إلى سابق عـهدها[٥٨]، هـذا فضـلا عـن ورود المتاجر من قلب إفريقية إلى مصر مثل الزمرد والعاج والذهب، وصارت السفن المصرية تحمل مقابل ذلك اللحوم والملح والحديد إلى أهل إفريقية[٥٩].

هذا في الوقت الذي كان فيه من حق مصر أن تصدر بعض منجاتها أو ما تستغني عنـه مـن القمح بعـد تأديـة مـا كـان ٥ة ررا عليـها مـن الضريبـة للقسـطنطينية. وكذلـك أوراق الـبردي والأوانـي الفخاريـة المصنوعـة في مصـر والمنسوجات الحريرية والعقاقـير وغيرهـا مـن الصناعـات الـتي برعـت فيـها مصر[٦٠]. فترتب على ذلك أن أفادت بيزنطة كثيرا من هذا النشـاط التجـاري بالبلاد بما كانت تفرضـه مـن ضرائـب ومكـوس جمركيـة [٦١]، وكـانت هـذه المكوس الجمركية زمـن جسـتنيان باهظـة حتـى اشـتكى السـكان مـن عبئـها! فاضطر جستنيان إلى تخفيض هذه المكوس بمقتضى القـانون رقـم ١٣ الصـادر سنة ٥٣٨م [٦٢].

ومن الضرائب غير المباشرة أيضا الالتزامات الاستثنائية، فقد حدث في القرن السادس الميلادي أن تكفلت المدن والقري ... رية بدفع مرتبات موظفي الحكومة. فأضيفت هذه الضرائب الجديـدة إلى مـا كـان يتحملـه النـاس مـن ضرائب والتزامات، وأثقلت بطبيعة الحال كواهل المصريين بهذه الالتزامات الجديدة [٦٣]. إذ أصبح من المفروض أن يفي الناس برواتب موظفي الدوقية أو

---

(٥٨) أسد رستم: الروم ج١ ص ١٧٧

(٥٩) العريني : المرجع السابق ص ١٨٠

(٦٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٢

(61) Bury: op. cit. 1, p. 53
(62) Ibid. V. 2, p. 350

(٦٣) مراد كامل: نفس المرجع ص ٢٥

الأبروشية أو الباجركية، دون أن يعفوا مقابل ذلك من أية التزامات أخـرى، فاعتبرت هذه الضريبة ضريبة غير مباشرة (٦٤).

ومن الضرائب غير المباشرة أيضا ما تحمله الناس مـن أعباء السخرة للحكومة كصيانة الجسور وحفر الترع وتطهيرها وزراعة الأراضي العامة وتمهيد الطرق وشق المصارف وغيرها من الأعباء(٦٥)، فإذا أضفنا إلى ذلك ما كان يتحمله الناس من الرسوم لسد نفقات المحليات وتزويد الجيش بالمؤن والميرة وإمداده بما يحتاج إليه تأكدنا أن الضرائب غير المباشرة شكلت جانبا كبيرا من الأعباء التي تحملها المصريون في الفترة التي تلت عهد جستنيان إلى نهاية العصر البيزنطي في مصر (٦٦).

أما عن تقدير الضرائب في هذه الفترة فتشير الدلائل إلى أنه لم تتعرض المبادىء الأساسية لتقدير الضرائب على الأراضي إلا لبعض التعديلات الطفيفة، فلا زالت النظم التي اتبعها البيزنطيون منذ القرن الرابع سارية تقريبا باستثناء تعديلات قليلة (٦٧)، إذ ظلت أراضي مصر مقسمة إلى الوحدات المساحية التي عرفتها مصر البيزنطية منذ البداية، ربما منذ عهد الإمبراطور دقلديانوس، فضلا عن أن ما كان مقررا على كل وحدة من هذه الوحدات من الضريبة ،إنما جرى بمقتضى العرف والعادة، وما كان ساريا لفترة طويلة، لكن نوع الضريبة نفسه هو الذي ارتبط بحالة الإقليم وقدرته الإنتاجية (٦٨) وظلت بيزنطة ترسل من قبلها مندوبين إلى مصر لشرح الطريقة التي تتبع في

---

(64) Johnson : op. cit.p.325
(65) Ibid.p.330

(٦٦) مراد كامل :نفسه ص ٢٦

(67) Bury : op. cit. 1,p. 46

(٦٨) العريني: المرجع السابق ص ١٨٢

تقدير الضريبة وتحصيلها في سائر الأقاليم، وسرت التفرقة عند تقدير الضرائب، بين الأرض المهملة وبين الأرض المنتجة وبين الأرض التي لا تصلها مياه الفيضان والأرض التي تروي بسهولة.

واستمرت بيزنطة أيضا في هذه الفترة في اتباع الطريقة المعتادة التي تجعل المسئولية جماعية يتحملها دافعوا الضرائب في كل جهه، فتقوم بتوزيع الضرائب على جميع الأراضي سواء كان لها مالك أو لم يكن لها مالك[٦٩] أو أهملت بتحميل جيرانها ما هو مقرر عليها من ضرائب، فتضمن بذلك جباية الضرائب على الأرض التي هرب ملاكها تجنبا لدفع هذه الضرائب، أو الأراضي التي أهملها أصحابها لسبب أو لآخر، فأصبح لزاما على أهل المنطقة التضامن لدفع ضرائب الأراضي التي هجرها أصحابها أو هربوا منها والأراضي التي أهملها أصحابها لسبب أو لآخر[٧٠]. ويبدو أنه منذ عهد جستنيان أصبح أهل كل إقليم مطالبين بزراعة الأراضي المهملة، أي أن يزرع الشخص ما يجاوره من أراضي مهملة أن وجدت، لأنه في النهاية مطالب بدفع ما هو مقرر عليها من ضرائب، وظل هذا النظام معمولا به حتى نهاية الفترة البيزنطية في مصر[٧١].

وحرصت بيزنطة على تقدير الضريبة المراد تحصيلها من أهل كل قرية، فمتي تحدد مقدار هذه الضريبة جرى توزيع هذا المقدار على كل سكان القرية. مع الأخذ في الاعتبار مساحة الأرض ودرجة خصوبتها والحالة التي هي عليها سلبا أو إيجابا[٧٢]، ويبدو أن أعيان كل قرية أو شيوخها كانوا

---

(69) Ostrogorsky: op. cit . p. 38

(٧٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٥

(71) Vasiliev : op. cit.1.p.161

(٧٢) العريني: نفسه ص ١٨٣

يشتركون في تقدير هذه الضرائب في الوقت الذي أنيط فيه بأعضاء المجلس البلدي التحري جيدا عن دافعي الضرائب وعدم التسليم بما يقدمه أعيان القرية وشيوخها من بيانات في ذلك أو بما يقدمه الملاك من إقرارات بقبول ما قدر عليهم من ضرائب [٧٣]، فإذا كان ذلك قد حدث فعلا فإنه إنما يؤكد حرص بيزنطة على أن يأتي تقدير الضرائب مناسبا للغالبية العظمى من أهل كل قرية ، وإن لم تلتزم بذلك كثيرا[٧٤].

أما عن جباية الضرائب فتشير الروايات والوثائق من ذلك العصر إلي أن الضريبة ظلت تؤدى في هذه الفترة على ثلاثة أقساط خلال السنة ، وكان هذا التقليد هو المتبع منذ أوائل القرن الخامس الميلادي أي منذ عهد الإمبراطور أنستاسيوس، ولم تتغير هذه القاعدة في الفترة التي نحن بصددها، ولا بد وأن بيزنطة أدركت أن تحصيل الضريبة على ثلاثة أقساط خلال العام، إنما يخفف العبء إلى حد كبير على دافعي الضرائب ويعطيهم فرصة الأداء ويسهل عليهم المهمة كثيرا، وجرت العادة على أن قسما من الضريبة كان يرسل إلى الخزانة العامة بالعاصمة [٧٥]، بينما يجري إرسال القسم الآخر إلى خزانة الوالي الكبير بالإسكندرية.

وعلى هذا أصبح تحصيل الضرائب أو القسم الذي برسم الخزانة العامة من الضرائب من مهام الدوق وإدارته المالية، يعاونهم الجند ويساعدهم أحيانا الموظفون المدنيون في استخلاص هذا القسم من الضرائب، وكانت مهمة شاقة وشديدة الوطأة على هؤلاء [٧٦]، على حين كان تحصيل الضرائب المقررة على

---

(73) Bury: op. cit. 1. [illegible]. 46-7

(٧٤) مراد كامل : نفس المرجع السابق ص ٢٥

(75) Bury: op .cit.1,pp. 46-47

(76) Vasiliev : op. cit. 1.p.161

الأبروشية أو الوحدة الإدارية من مهام رئيس الأبروشية دون أن تكون له سلطة جباية الضرائب في المدن، أي أنه كان يجبي الضرائب في قسمه الإداري الريفي دون المدن، فقد كانت هذه المدن ومجالسها البلدية خاضعة للدوق مباشرة في هذه الناحية، في الوقت الذي تولى فيه الباجركات أو حكام المدن الريفية الإشراف على جباية الضرائب في مدنهم أو الباجركات الخاصة بهم ويعطون الإيصالات بذلك لدافعي الضرائب فضلا عن قيام نوابهم في القرى التابعة للباجركية بتحصيل الضرائب من موظفي هذه القرى(٧٧).

ومعنى ذلك أن جباية الضرائب جرت في الدوقية والأبروشية والباجركية. فالدوقية هي القسم الإداري الكبير أو الإقليم ، والأبروشية هي القسم الإداري الأصغر، ثم الباجركية وهي المنطقة الريفية التي تتوسطها مدينة ريفية. أما المدن المصرية الكبيرة غير الريفية فقد تولى جمع الضرائب فيها نواب البلدية الخاضعون مباشرة لسلطة الدوق- كما سبق أن أشرنا - لأن سلطتهم لم تتجاوز كثيرا الأراضي المحيطة بهذه المدن (٧٨). وهناك أيضا ما كان يعرف بالقرى المتمتعة بحق الجباية الذاتية تمييزا لها عن القرى العادية، فكان أعيان تلك القرى يعتبرون مسئولين عن جباية الضرائب تحت إشراف مندوبي الحكومة ، وهناك أيضا الضياع المتمتعة بحق الجباية الذاتية، والتي كان يتولى تحصيل الضرائب فيها جباة معينون لجباية ما هو مقرر عليها من الضرائب من الفلاحين المقيمين بأرض ملاكها ويعطون الفلاحين إيصالات بذلك نظرا لأنه لم يكن من حق مندوبي الإدارة المالية المركزية الدخول إلى هذه الضياع(٧٩).

---

(77) Johnson : Economic studies , p. 219

(٧٨) العريني: المرجع السابق ص ١٨٨

(79) Bury : op. cit. 1, p. 48
Lemerle : op. cit. p. 61

أما ضرائب الجمارك فقد تولى تحصيلها موظفون عينوا لإدارة نقط الجمارك التي لم تختلف مواضعها عما كانت عليه في العهد الروماني ، فجمارك الشمال كانت بجوار الإسكندرية ، وجمارك الشرق كانت بمدينة القلزم ، وجمارك الجنوب كانت في أطراف طيبة ، وكانت نقط الجمارك هذه كبيرة الأهمية لبيزنطة ، لأنها تولت تحصيل الضرائب على الصادر والوارد إلى مصر من متاجر وسلع والتي من خلالها كانت بيزنطة تحصل على أموال كثيرة ، باعتبار مصر بلدا تجاريا وصناعيا عظيما وطريقا للتجارة بين الشرق والغرب في ذلك الوقت[٨٠].

ومنذ عهد جستنيان اهتمت بيزنطة كثيرا بجباية الضرائب في مصر خاصة تقدير المبالغ المقررة على الناس والوقت المناسب لتأديتها ، وإعطاء الإيصالات الدالة على أدائها لدافعي الضرائب لتكون مستندا لكل منهم أمام السلطات المالية ، ويبدو أن جستنيان نفسه هو الذي أظهر هذا الاهتمام البالغ بجباية الضرائب في مصر [٨١] ، لحرصه على إثراء خزانة الدولة من جهة ولحماية سكان مصر من جهة أخرى ، وليجنب الإمبراطورية ما يمكن أن يحدث من أزمات مالية تهدد أمنها وسلامتها من جهة ثالثة ، فضلا عن حرصه على كفالة أمن مصر واستمرار الهدوء فيها خاصة بعد أن شهدت مصر اضطرابات مالية ونقدية في بداية عهده[٨٢] ، وربما لهذا أصدر جستنان القانون رقم ١٣ المشار إليه آنفا والذي سوف نتحدث عنه بالتفصيل في

---

(٨٠) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٣-٢٤ ،

العريني: المرجع السابق ص ١٨٠

(81) Lemerle: op. cit. p. 61
(82) Vasiliev : op. cit. 1,p. 161
Bury : op. cit. Vol. 1, p.49

القانون رقم ١٣ المشار إليه آنفا والذي سوف نتحدث عنه بالتفصيل في الفصل التالي لمعالجة الأضرار التي نجمت عن تعرض مصر لأزمة مالية واقتصادية بسبب انخفاض سعر العملة واضطراب الأمور المالية فيها[٨٣]، وهذا يفسر أيضا تقبل الحكومة في تلك الفترة من دافعي الضرائب ما هو مقرر عليهم من ضرائب عينا بدلا من أدائه نقدا وذلك منذ سنة ٥٥٩م[٨٤].

وعلى الرغم من ذلك كله، وما أظهره جستنيان من حرص على إصلاح نظم الضرائب في مصر البيزنطية، فقد تسربت عيوب ونقائص إلى نظمه المالية والاقتصادية في مصر، فقد ظهر ما عرف بحق الاحتماء أو الحماية الذي تمتعت به الكنائس بصفة خاصة والذي منحته لمن كان يلجأ إليها هربا من الضرائب وعسف رجال الحكومة في جبايتها. واستغل كثير من المدنيين هذه الثغرة للتهرب من دفع الضرائب، كما استغله بعض المختلسين من موظفي الدولة للاستيلاء على ما كانوا يقومون بتحصيله من ضرائب دون توريده لخزانة الدولة[٨٥]، فضلا عما قام به موظفو الأبروشيات من منح بعض دافعي الضرائب هذا الحق أيضا ليحتفظوا لأنفسهم بأكبر قدر من الأموال التي يجمعونها وعدم توريدها لخزانة الحكومة[٨٦].

ولهذا تنبه جستنيان إلى هذه العيوب، وأصدر أوامره للموظفين ليكفوا عن منح حق الالتجاء أو الحماية هذا لدافعي الضرائب، وإن لم يؤد هذا الإجراء إلى ما كان يؤمله جستنيان من ذلك [٨٧]، ولهذا فقد نص جستنيان في

---

(83) Johnson : op. cit. pp. 173-4
Bury : op. cit. 2. pp.357-8

(٨٤) العريني: نفس المرجع السابق ص ١٩٢

(85) Diehl : op. cit. p. 466
(86) Ibid.p.466
(87) Lemerle : op. cit. p. 61

مرسومه رقم ١٣ على أنه ليس من حق بطريرق الإسكندرية الحصول من المدنيين ودافعي الضرائب على أية أموال . كان ينبغي أن يؤدوها للدولة وإن كان من حق البطريرق- في حالات معينة فقط- إيواء المولين الذين حصلوا على موافقة على تأجيل سدادهم للضرائب من موظفي الدولة، إذ يعتبر التأجيل في هذه الحالة وحدها أمرا مشروعا، على أن يلتزموا بدفع ما عليهم من ضرائب عند انقضاء أجل المهمة التي منحها لهم البطريرق بموافقة الوالي وموظفيه(٨٨).

وفي هذا الإطار أيضا اهتم جستنيان بموضوع الإيصالات التي ينبغي أن يمنحها الموظفون الماليون لدافعي الضرائب. فأصدر تعليماته بذلك ليمنع هؤلاء الموظفين من اختلاس جانب مما كانوا يجمعونه من الضرائب، وتعمدوا الإهمال في تحرير الإيصالات أو حرروها دون تحديد ليتيسر لهم إخفاء ما صار في حوزتهم من أموال(٨٩)، فأمر جستنيان بأن يسلم دافع الضريبة إيصالا وتحرر نسخة أخرى فيها تحديد عدد الوحدات التي أديت عنها الضريبة واسم المالك وقيمة الضريبة التي حصلت منه برسم خزانة الوالي. أو ما كان برسم خزانة الإمبراطور، وأكد جستنيان على ألا يطلب جباة الضرائب من المولين إلا ما هو مقرر عليهم من الضرائب دون زيادة(٩٠).

ننتقل الآن إلى موضوع إيداع الضرائب، فقد سبق أن أشرنا إلى أن الضرائب المحصلة من مصر لم تكن كلها تذهب إلى بيزنطة أو إلى خزائنها العامة. إذ أن جانبا منها فقط هو الذي يجري إرسالة إلى الخزانة العامة والجانب الآخر يجرى إنفاقه في مصر ، وفي هذه الفترة كان الجانب الثالث

---

(88) Deihl: op. cit. p. 466
(89) Bury : op. cit. p. 466
(90) Ostrogorski: op. cit. Vol. p. 60

يرسل إلى خزانة والي الشرق، وهذا يفسر أن والي الشرق الذي كان مقره القسطنطينية كان يرسل في كل عام مندوبين من لدنه إلى مصر ليطلعوا المسئولين فيها على ما ينبغي إرساله إلى الخزانة العامة وإلى خزانة والي الشرق. وما ينبغي إبقاؤه في مصر[٩١].

ويؤكد المؤرخون أن جستنيان أصر على ضرورة عمل موازنة دقيقة للإيرادات والمصروفات في مصر حتى تتضح المبالغ التي ينبغي أن ترد إلى خزانة والي الشرق، وما كان يخصص في مصر لدفع رواتب الموظفين ونفقات الجند المرابطين بمصر وغير ذلك من النفقات الحكومية [٩٢]، وبالتالي يتضح المبلغ الذي يجري إرساله إلى الخزانة العامة بالقسطنطينية في النهاية، ولهذا تقرر منذ عهد جستنيان أن تخصص في كل وحدة إدارية إدارة متخصصة لمراقبة ما تحصل من الوحدة من ضرائب وما ينبغي أن ينفق من هذه الضرائب وما ينبغي أن يرسل إلى خزانة الدولة[٩٣].

ولهذا كان إيداع الضرائب يجري في دقة في الوحدات الإدارية طبقا للنظام التالي: في القرى المتمتعة بحق الجباية الذاتية كانت هناك خزانة وإدارة للحسابات يثبت بها إجمالا الإيرادات والمصروفات وقوائم بأسماء الممولين من دافعي الضرائب بالقرية، وما يجري تحصيله من أموال يجمع في الخزانة، ثم يبعث به إلى حاضرة الأبروشية، وفي الأبروشية أيضا موظفون وخزانة يحفظ بها ما تحصل من سائر أنحاء الأبروشية من قرى وضياع، ويشرف متولي الخزانة في الأبروشية على تسلم الضرائب والإشراف على

---

(٩١) العريني: المرجع السابق ص ١٩٤

(92) Johnson: op .cit. p. 275
(93) Bury : op. cit. V.2, p. 358

حفظها[٩٤]، على حين كانت المدن الريفية أو ما عرف بالباجركات، وهي التي سبق تعريفها بأنها المدن التي تتوسط أماكن ريفية، فكان في كل منها خزانة أيضا يودع فيها ما يتحصل من ضرائب وبها إدارة للحسابات وموظفين ماليين وكتبه للقيام بهذه الأعمال المالية. أما المدن غير الريفية فكان نوابها يؤدون ما يتحصل لديهم من ضرائب إلى خزانة الدوق مباشرة [٩٥].

واتضحت بذلك الخطوط العريضة لعملية إيداع الضرائب، كما اتضحت أيضا البنود الثلاثة الهامة التي توزع بموجبها الضرائب المتحصلة في مصر، فالقسم الذي يخص الخزانة العامة بالعاصمة القسطنطينية يرسل من أجله مندوبين من العاصمة للإشراف على نقله من مصر إلى القسطنطينية بعد أن يجري تجميعه في الإسكندرية من سائر الوحدات الإدارية [٩٦]، بينما القسم الذي برسم خزانة والي الشرق يأتي من أجله مندوبين أيضا لتسلم هذا الجانب من أموال الضرائب برسم خزانة والي الشرق [٩٧]، على حين يشرف عدد من الموظفين في ديوان الدوق الكبير بمصر على القسم الثالث من متحصلات الضرائب وهو الذي ينفق منه على رواتب الموظفين ونفقات الجند المرابطين بمصر وغير ذلك من النفقات الحكومية الحربية والمدنية والنفقات العامة [٩٨].

ويمكن تحديد النفقات الداخلية التي كان يصرف عليها هذا القسم من الضرائب بأنها نفقات الدوقية ونفقات الأبروشية ونفقات الباجركية، ونفقات المدن غير الريفية. أما نفقات الدوقية فقد اختصت برواتب الدوق ورواتب

---

(94) Johnson: op. cit. p.178

(٩٥) العريني: المرجع السابق ص ١٩٥-١٩٦

(96) Vasiliev: op. cit. V.1, p.161

(٩٧) العريني: نفس المرجع السابق ص ١٩٦

(98) Johnson: op. cit. p. 275

موظفي ديوانه الماليين والإداريين ومعظمها نفقات مدنية ، إلا إذا التزمت الدوقية بدفع رواتب بعض الجند المرابطين بها إن وجدوا[٩٩]. أما نفقات الأبروشية فقد تكفل رؤساء الأبروشيات بدفع أيضا رواتب موظفيها سواء كانوا ماليين أو إداريين ، خاصة وأن هذه الوحدة الإدارية ضمت العديد من القرى والضياع المختلفة وعمل فيها عدد من الموظفين تكفلت الأبروشية بدفع رواتبهم[١٠٠]. أما نفقات الباجركية أو المناطق الريفية التي تتوسطها مدن فكان على الباجرك مسئولية دفع رواتب الموظفين وتوزيع النفقات التي تدخل في نطاق وحدته الإدارية بعد أن يتسلم الضرائب من القرى والمدينة الداخلة في زمام باجركيته. أما نفقات المدن غير الريفية فتشمل مرتبات موظفي البلديات والإنفاق على الخدمات العامة كالبريد والحمامات العامة والمدارس وغير ذلك من الخدمات المدنية[١٠١]. أما مدينة الإسكندرية بوصفها عاصمة لمصر فمنذ عهد جستنيان جرى الاهتمام بها وبنفقاتها وتخصيص ميزانية خاصة بها، ونص قانون جستنيان رقم ١٣ على تخصيص ما يسد نفقاتها العامة كالحمامات والملاعب وخزانات المياه العامة ووقود الحمامات وأيضا ما يخص نقل القمح إلى العاصمة وغير ذلك من النفقات العامة في هذه المدينة الكبيرة[١٠٢].

أما عن العقوبات التي يجري توقيعها على موظفي المالية في حالة إهمالهم. فمنذ عهد جستنيان لجأت السلطة إلى توقيع العقوبات على موظفي الإدارات المالية إذا ثبت إهمالهم أو ركنوا إلى التقصير في أداء مهامهم أو

---

(99) Bury: op. cit. V. 2, p.358
(100) Johnson : op. cit. p.271
(101) Ibid.p.303
(102) Vasiliev : op. cit. V.1, p160
Johnson : op. cit.p.104

ارتكبوا أية مخلفات، فيبدو أن جستنيان نفسه أدرك أن هؤلاء الموظفين بجانب قيامهم بما هو موكول إليهم من أعمال فإنهم سوف لا يغفلون أيضا مصالحهم الخاصة(١٠٣)، ولهذا سن جستنيان القوانين التي تبيح له معاقبة المهملين منهم والمخالفين وتوقيع الجزاءات عليهم. ولا شك أن ذلك أدى إلى نتائج طيبة إلى حد كبير، فصار الموظفون أو الجانب الأعظم منهم يعملون لصالح الدولة، ويلتزمون بأداء مهامهم وأعمالهم بهمة وبالدقة المطلوبة، فأدت إصلاحات جستنيان المالية في مصر البيزنطية فضلا عن استتباب الأمن والطمأنينة إلى اختفاء ما كان يحدث من سرقات أو على الأقل الإقلال منها كثيرا. فبدأت مرحلة هامة في حياة مصر المالية والاقتصادية(١٠٤).

وتشير وثائق ذلك العصر إلى أن هذه العقوبات تراوحت بين الطرد من الوظيفة ودفع الغرامات ومصادرة الممتلكات، لكل من ثبت إدانته من الموظفين الماليين بالإهمال أو التقصير أو حجز جانب من الأموال لنفسه أو التغاضي عن تحصيل ما هو مقرر من الضرائب أو ارتكاب أيه مخالفة مالية بالتزوير أو التدليس أو السرقة(١٠٥)، فقد طالبتهم الدولة برعاية المصالح العامة والالتزام بالأمانة في أداء أعمالهم ومنحتهم الحماية أيضا لأداء هذه المهام، وسهلت مهمتهم بأن وضعت في سلطتهم استخدام العسكريين وقادة الجند، وكذلك المدنيين لمساعدتهم وتعضيدهم. فإذا تعرض أحد منهم للمقاومة من دافعي الضرائب جاز لهم الاستعانة بالجند العسكريين وموظفي الديوان لمساعدتهم

---

(103) Bury: op. cit. V.2, p.358
(104) Diehl: op. cit. p. 467
(105) Ibid.p.467

واستخدام الشدة في معاملة المعارضين، فإذا قصر هؤلاء في المساعدة تعرضوا أيضا بدورهم للعقوبة (١٠٦).

ونصت قوانين جستنيان على توقيع العقوبات أيضا على رجال الكنيسة، إذا منح أحدهم متهربا من الضرائب حق الالتجاء أو الحماية في غير الحالات التي أشرنا إليها من قبل والتي تقرها القوانين الإمبراطورية وبدون موافقة البطريرق. فقد تقرر عزلهم من وظائفهم وحرمانهم من الانتساب إلى الكنيسة منعا للكنيسة من أن تظل تمارس منح الحماية والالتجاء للمولين وحرمان الدولة من جانب كبير من دخلها من الضرائب(١٠٧)، بل نصت قوانين جستنيان أيضا على التزام الكنيسة إذا ثبت مخالفتها بدفع التعويض المالي المناسب بجانب توقيع العقوبات المشار إليها علي رجالها المخالفين.

ولم تثتثن قوانين جستنيان أحدا من توقيع هذه العقوبات حتى من الموظفين الكبار في مصر. فنصت علي توقيع الجزاءات أيضا علي الدوق والباجرك، وعلي القادة العسكريين في مصر في حالة ثبوت إهمالهم أو مخالفتهم للنظم المالية والاقتصادية أو ارتكاب أية مخالفة في هذا الشان (١٠٨)، وصلت حد العزل من الوظيفة والطرد وتوقيع الغر.. في كثير من الأحيان بل والمصادرات إذا ثبتت السرقة أو حجز جانب من أموال الدولة لأنفسهم، وتشير النصوص إلي أن جستنيان نفسه تولي محاكمة بعض الباجركات أو رؤساء المدن الريفية الذين أهملوا في أداء وظائفهم، والتي تسبب عنها أنه لم

---

(106) Vasiliev:op. cit. V. 1,p.159

(١٠٧) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٠

(108) Diehl: op. cit. p.467

يكن يصل إلي خزانه الدولة مما يجمعونه سوي الثلث في حين يصل الباقي إلي جيوبهم [١٠٩]

أما عن العقوبات التي توقع على المتنعين عن دفع الضرائب من المولين أو الذين يقامون السلطات منهم أو الذين يثيرون الفتن أو يتمادون في إثارتها وإحداث القلاقل حتى لا يؤدون ما هو مقرر عليهم من ضرائب، فقد تقرر مصادرة أملاكهم وأموالهم ونفيهم في بعض الأحيان من مصر هم ومن يساعدونهم من الأصدقاء أو الأقارب أن من يثبت معاونتهم في التهرب من دفع الضرائب أو عرقلة أعمال الجباة[١١٠] أما أولئك الذين هجروا أراضيهم تهربا من تأدية الضرائب المقررة عليها، فقد أمر جستنيان الوالي في مصر بأن يتتبعهم ويجد في البحث عنهم حتى ولو امتد هذا البحث في إقليم لا يدخل أصلا ضمن نطاق عمله[١١١].

ويشير المؤرخون إلى أنه على الرغم من ذلك كله، وعلى الرغم من حرص جستنيان على توفير الحماية للسكان من عسف الموظفين الماليين، وما يمكن أن يرتكبوه من مظالم في مصر، وتوفير الأمن وكفالة الطمأنينة في البلاد، وحرصه أيضا على استخلاص الضرائب كاملة ومنع الموظفين من اختلاسها أو اختلاس جانب منها. بمختلف الطرق، فإن ما اتخذه هذا الإمبراطور من أساليب وما وضعه من خطط لم يثمر كثيرا ولم يحقق له ما أراد[١١٢]، وظلت جوانب من هذه الأموال تذهب إلى جيوب الموظفين والمختلسين منهم، ولم

---

(١٠٩) فشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ق١ ص٥٣
بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص٥٠

(110) Diehl: op. cit. p.120
(111) Vasiliev: op. cit. V.1p.159
(112) Bury : op. cit. V.2,p.358

يصل إلى خزانة الدولة العامة إلا جزءاً من تلك الأموال، ولم يستطيع جستنيان سد كل الثغرات أمام اللصوص والمختلسين. ولهذا لم تتحسن كثيرا أحوال البلاد المالية والاقتصادية، خاصة في الفترة التي تلت عهد هذا الإمبراطور (١١٣).

أما بالنسبة لضريبة القمح المفروضة على مصر، فقد كانت من الضرائب الهامة في العصر البيزنطي فقد حرص الحكام الذين استولوا على مصر في كل الأزمنة على استغلال موارد البلاد إلى أقصى حد وإلزام الفلاحين المصريين بملئ شونهم ومخازن الحكومة بالغلال(١١٤). ومنذ أن أصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية توقف ما كان يرسل إلى روما من القمح برسم الميرة أو ما كان يعرف باسم " الميرة المدنية" تمييزا لها عن " الميرة العسكرية" التي كانت تقدم لإطعام الجنود، وغدت الشحنة تبحر ي كل سنة من الإسكندرية نحو البسفور إلى القسطنطينية لإطعام أهلها. بينما جانب من القمح يبقى في الإسكندرية لإطعام أهلها أيضا(١١٥).

ويذكر المؤرخون أن الإمبراطور جستنيان اهتم كثيرا بهذه الضريبة، وما كان يرد إلى العاصمة منها باسم الميرة. لأن تأخير تسليم القمح أو أي نقص في الكمية المطلوبة إنما يؤدي إلى أثارة الفوضى في القسطنطينية ووقوع الحوادث الخطيرة (١١٦). وكذلك يحدث في مدينة الإسكندرية، ولهذا اهتم جستنيان كثيرا بجباية هذه الضريبة. وأمر بأن ينقل القمح تباعا بواسطة القنوات المنتشرة في أنحاء مصر إلى النيل حيث يجري حملة إلى مدينة الإسكندرية،

---

(113) Ostrogorski:op.cit.p.67
(114) Diehl:op.cit.p.469
(115) Bury: op. cit. V.1,p.46-47
(116) Vasiliev: op. cit. V.1,p,160

ومنها تشحن الكمية المخصصة للقسطنطينية[١١٧]، وتضمن القانون رقم ١٣ كل التفاصيل المتعلقة بالقمح وجمعه ونقله وكذلك العقوبات التي توقع على كل من يتسبب في تأخير حملة أو شحنة إلى الإسكندرية وإلى العاصمة الإمبراطورية[١١٨].

وكان قد جرى تحديد كمية القمح التي ينبغي شحنها إلى القسطنطينية منذ عهد قنسطنطين أي أن ما يخص العاصمة من ضريبة القمح كان قد تحدد منذ فترة طويلة، ولهذا لم يشر القانون رقم ١٣ الذي أصدره جستنيان إلى ثمة تعديلات جوهرية في هذه الناحية. وظلت الكمية المراد شحنها إلى العاصمة كما هي تقريبا دون تغيير كبير. وإن ارتفعت إلى حد ما نفقات نقل القمح أو ما عرف بالنولون لنقل هذه الكمية التي بلغ مقدارها نحو ٨ مليون إردب أو (٢٤مليون مد)، وبعد أن أصبح إقليم ليبيا تابعا لمصر، رأت الحكومة البيزنطية أن إنتاج هذا الإقليم يقل كثيرا عما تنتجه أقاليم مصر الخصبة، ولهذا مالت في كثير من الأحيان إلى إعفاء هذا الإقليم من تقديم ما كانت تقدمه أقاليم مصر من القمح[١١٩].

واتبع في تقدير ضريبة القمح ما كان يتبع في تقدير الضرائب النقدية الأخرى في أنحاء مصر في تلك الفترة، فجرت العادة أن يقوم والي الشرق بتقدير الكمية التي ينبغي إرسالها إلى العاصمة من القمح، فتتولى إدارات الدوق اتخاذ ما يلزم لتوزيع هذه الكمية على الأقسام الإدارية في كل أبروشية وما تتعبها من المدن والقرى والضياع[١٢٠]، وروعي في توزيع ضريبة القمح

(117) Diehl: op. cit. p. 469
(118) Ibid. p. 469

(١١٩) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٣

(١٢٠) العريني: نفسه ص ٢٠٤

مساحة الأرض ودرجة خصوبتها وحالتها الزراعية سلبا أو إيجابا، فالأرض الصالحة تماما للزراعة غير الأرض التي تعاني أي نوع من القصور فتكفلت الأراضي شديدة الخصوبة أو التي عرفت بالجزائر وهي الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان والتي يصيبها أكبر قدر من غرين النيل ما يجعلها أخصب أراضي مصر بتوريد أعلى نسبة من ضريبة القمح[١٢١]، إذ كان يؤدي الفدان منها مقدار أردب ونصف من القمح كضريبة سنوية، ويؤدي الفدان في الأراضي الأخرى الصالحة للزراعة مقدار أردب وربع من القمح سنويا، بينما يؤدي الفدان من الأراضي الأقل خصوبة نصف إردب قمح فقط في كل عام، وكانت الحكومة تلزم أصحاب المستنقعات وأصحاب البساتين أداء نصف أردب من القمح لكل فدان على الرغم من أن هذه المستنقعات لم تكن تصلح لزراعة القمح بينما كانت البساتين معنية بإنتاج محاصيل أخرى غير القمح[١٢٢].

ويشير ا المؤرخون إلى أن الحكومة البيزنطية لم تكن في كل الفترات متعسفة في جباية هذه الضريبة ، بل إنها أظهرت أحيانا بعض المرونة في نظمها الضرائبية في مصر، فقد اهتمت في كثير ،٠ الأحيان بتفقد مندوبيها أراضي مصر لتقدير درجة خصوبتها وتحديد نصيبها من هذه الضريبة وما يمكن أن تؤديه منها، فأرسلت مساحين للأراضي للقيام بهذه المهمة[١٢٣].وحدث أحيانا أن انخفض النيل أو خاب المحصول لسبب أو لآخر. لم يجر دائما التمسك بتحصيل الكميات المحددة على الفلاحين بل

---

(121) Johnson: Economic studies. p. 288
(122) Ibid.p.279
(123) Vasiliev: op. cit. V. 1, p. 160

جرى في تلك الأحيان التجاور عن بعض الضرائب خاصة بالنسبة للمزارعين الذين لم تتوافر لهم كميات المياه اللازمة لري أراضيهم ووفرة محاصيلهم(١٢٤).

وجرت جباية القمح وفق نظم وقواعد محددة، فكان ينبغي جباية الكمية المقررة في نفس السنة التي تحددت فيها، وليس عن سنة سابقة أو لاحقة وفي هذه الفترة منذ عهد جستنيان والتي صار للدوق فيها الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، أصبحت سلطة الدوق مطلقة في كل ما يتعلق بجباية القمح في القرى والضياع والأبروشيات والباجركات الواقعة في نطاق دوقيته، وهذا النظام الذي اتبع بعد صدور القانون رقم ١٣ غاير به جستنيان النظم التي كانت تتبعها بيزنطة في جباية القمح في الفترة السابقة(١٢٥).

وغدا من الشروط الهامة لجباية القمح في هذه الفترة التزام عمال الخراج بالتأكد من جودة القمح وصنفه وخلوه من العيوب قبل تسلمه من الفلاحين. وكذلك التأكد من خلوه من كل وسائل الغش، نظرا لأنه يمكن للفلاح أن يخلط أنواعا رديئة بغيرها طيبة أو أن يضيف إلى القمح مواد أخرى تعطيه فرصة كسب جزء مما هو مقرر عليه من ضريبة(١٢٦)، وكان ينبغي أيضا جباية القمح في سرعة بالغة من سائر أنحاء القطر المصري لتصل الكمية في الوقت المحدد خشية التلف من ناحية وللوصول قبل قدوم قوافل السفن التي تحمله إلى الإسكندرية من ناحية أخرى(١٢٧).

ويشير المؤرخون إلى أنه في بعض الأحوال الاستثنائية جرى تحصيل هذه الضريبة نقدا بدلا من القمح في هذه الفترة بالذات، التي تلت عهد

---

(124) Bury:op.cit.V.1 pp. 46-47
(125) Diehl: op. cit. p. 469

(١٢٦) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٧

(127) Diehl:op.cit,p.469

جستنيان. حتى تحولت ضريبة القمح أحيانا إلى ضريبة نقدية ربما منذ أوائل القرن السابع الميلادي، ويقال أن الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) باع كل ما تقرر على مصر من ضريبة القمح مستعيضا عنها بالنقد أو بالضريبة النقدية[١٢٨]. وهذا يوحي بأن بيزنطة قبلت أحيانا تحصيل هذه الضريبة نقدا ربما حين عجزت عن إرغام الفلاحين على الوفاء بما كان مقررا عليهم من هذه الضريبة أو حين عانى هذا المحصول في بعض الأحيان بعض المصاعب ولم تنجح مصر في إنتاج ما كانت تتوقعه بيزنطة من القمح، أو حين عجزت مصر عن الوفاء بما كانت ترسله للعاصمة وللإسكندرية منه فضلا عما احتاجه الفلاحون من كميات منه.

وكان يجرى تخزين القمح في الشون العامة التي يرد إليها القمح، ويظل بها حتى يشحن إلى الإسكندرية وهذه الشون العامة كانت نوعان: الشون الكبيرة والشون الصغيرة. وكانت الشون الكبيرة تستخدم لخزن القمح الذي يرسل إلي العاصمة القسطنطينية بينما اختصت الشون الصغيرة بالقمح الخاص بإعاشة مدينة الإسكندرية، ولهذا كانت الإدارات المتعلقة بحسابات القمح تقع عادة بجوار هذه الشون العامة لإجراء ما يلزم، وكل ما يتعلق بهذه الكميات من القمح[١٢٩]، ولم يكن القمح الذي يجري تجميعه في الشون العامة الصغيرة يشحن جميع إلى الإسكندرية لأن جانبا منه كان يبقى في الإقليم أو المنطقة لدفع المرتبات العينية للموظفين المحليين أو للوفاء بما يمنحه الإمبراطور من الإعانات سنويا للأديرة والكنائس. ولهذا كانت الشون العامة الصغيرة تنتشر بالقرى والمدن الريفية المصرية لهذا الغرض[١٣٠].

---

(128) Johnson :op. cit. p. 286

(١٢٩) العريني: المرجع السابق ص ٢٠٧

(130) Diehl: op .cit .p. 469

أما عن نقل القمح إلى الإسكندرية. فلقد تولى الملاحون هذه المسئولية وهؤلاء الملاحون ينتمون عادة إلى نقابات ملاحي النيل ويلتزمون بتأدية هذه الخدمة للحكومة ويصبحون مسئولين مسئولية كاملة عن نقل القمح الذي يتحصل من سائر الجهات لتسلمه إلى المختصين (١٣١)، أما في حالة وجود موظفين يصحبون شحنات القمح من جهات معينة، تصبح مسئولية هؤلاء الملاحين مسئولية جزئية، وجرت العادة أن تتجمع كل السفن القادمة من أنحاء الدوقية في عاصمة الدوقية في الموعد المحدد عن طريق النيل أو الترع المتفرعة منه، وفي عاصمة الدوقية يتولى الدوق وموظفوه الإشراف على نقل القمح على السفن إلى الإسكندرية على دفعتين (١٣٢). ونص القانون رقم ١٣ على أن قمح طيبة المتحصل برسم الميرة والموجه إلى القسطنطينية، ينبغي أن يتجمع ويصل إلى الإسكندرية قبل العاشر من شهر سبتمبر من كل سنة، على حين ينبغي أن تصل الشحنة المتحصلة برسم الإسكندرية والمخصصة لأعاشه أهل الإسكندرية قبل اليوم العاشر من شهر أكتوبر من كل عام (١٣٣).

وتتوقف الفترة التي كان يستغرقها وصول القمح إلى الإسكندرية على نجاح ديوان الدوق في شحنه على سفن صغيرة تستطيع أن تبلغ الإسكندرية في يسر وسهولة. لأنه إذا شحن على سفن كبيرة، فإن هذه لا تستطيع أن تجتاز القناة التي تربط النيل بالإسكندرية، فكان عليها أن تتوقف عند مدخل هذه القناة على النيل حيث يجري تفريغها ثم إعادة شحن القمح على سفن

---

(131) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, C111,p.165 (Eng. Trans.)

(132) Diehl: op. cit. p. 69

(١٣٣) العريني: المرجع نفسه ص ٢٠٩

أخرى أصغر حجما لتحمله إلى الإسكندرية [١٣٤]. أما الجهات التي لم يكن يوجد فيها قنوات صالحة للملاحة، فإن القمح ينقل في هذه الحالة برا إلى أقرب ميناء حيث يجري تخزينه في شون تمهيدا لنقله على سفن صغيرة إلى الإسكندرية. وأشارت الوثائق إلى أن هناك عقوبات توقع على كل من يثبت إهماله في نقل القمح أو التقصير في أداء هذه المهمة [١٣٥].

أما عن شحن القمح إلى القسطنطينية فكانت من المهام الثقيلة على الوالي الكبير بالإسكندرية إذ كان عليه ن يعجل بشحنه إلى العاصمة حتى لا يتأخر من ناحية أو يضيع إذا حدثت اضطرابات أو ثورة بالمدينة من ناحية أخرى. فإذا تأخر شحن القمح إلى العاصمة اشتدت الضائقة بسكانها وأظهروا العصيان. وإذا حدثت قلاقل في الإسكندرية يصبح محصول القمح نهبا للسكان الثائرين ، ولهذا كانت مسئولية نقل القمح إلى القسطنطينية والإسراع في شحنه من المهام الشاقة الثقيلة على الوالي [١٣٦].

وتذكر النصوص أن الوالي الكبير بالإسكندرية لم يكن يهدأ له بال إلا بعد إعداد الأسطول اللازم لشحن القمح إلى العاصمة والتأكد من تحرك هذا الأسطول في طريقة إلى هناك، ولهذا كان ينبغي عليه اعتبارا من منتصف سبتمبر تقريبا من كل عام إعداد هذا الأسطول لأداء هذه المهمة وبعدها ويبدأ في توزيع قمح الإسكندرية ويعطي لهذه المهمة الأقل صعوبة كل اهتمامه [١٣٧].

---

(134) Johnson: op. cit. pp. 156-8
(135) Ibid. pp. 156-8
(136) Diehl: op. cit. p. 470

ويشير المؤرخون إلى أن مكانة والي الإسكندرية توقفت على نجاحه في مهمته في شحن القمح إلى القسطنطينية. ولم يتنون أحد من ولاة الإسكندرية على أقرانه إلا بحكم جهوده لانتظام شحن المحصول إلى العاصمة، ولهذا اهتم القانون بتوقيع العقوبة على الوالي إذا تأخر في ذلك بدفع دينار (صولد) عن كل إردب يتأخر في القيام بشحنه إلى هناك. ولتسهيل مهمته وتجنبه التأخير كانت الأوامر بأن تتعاون أساطيل الإسكندرية وسوريا وإفريقيا في نقل القمح إلى العاصمة (١٣٨).

ويجرى شحن القمح إلى العاصمة على أسطول الميرة الذي يسيره تجار الإسكندرية الذين ألفوا من أنفسهم نقابة تعـ ـب بإعداد هذا الأسطول وتسييره حتى القرن السادس، مقابل أن تدفع لهم الحكومة أجرا معتدلا أو تقدم لهم بعض الامتيازات الخاصة إذا التزموا بحمل القمح في كل سنة وأدوا هذه المهمة بنجاح (١٣٩). ولهذا كانت المسئولية مشتركة بينهم وبين الدوق الكبير في عملية النقل هذه فلم يكن التجار سوى طائفة صغيرة من أرباب السفن تحملوا المسئولية أو الجانب الأعظم منها في الوقت الذي لم يجر فيه ذكر للأساطيل العامة، وحتى القانون رقم ١٣ لم يشر إلى الأساطيل العامة في هذه العملية، فأصبحت المسئولية كاملة أمام قادة هذه الأساطيل في عملية نقل القمح (١٤٠)، وحددت القوانين هذه المسئولية، ونصت على تحصيل غرامات

(137) Johnson: op. cit. p. 156
(138) Ibid. p. 160

(١٣٩) العريني: المرجع السابق ص٢١١

(140) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CIII p. 165

منهم إذا غرقت سفينة من السفن الناقلة للقمح أو تعرضت للضياع، وظل هذا القانون الصارم ساريا حتى ألغاه الإمبراطور موريس في أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين (١٤١)

ومن الأمور التي ساعدت علي شحن القمح إلي القسطنطينية ونجاح هذه العملية أن الفترة التي كان يجري فيها نقل القمح إلي العاصمة كانت فترة ملائمة للإبحار في شهري أغسطس وسبتمبر من كل عام وفترة مناسبة للملاحة في البحر المتوسط بصفة خاصة (١٤٢)، وكان من المستطاع القيام برحلتين أو ثلاث رحلات بحرية في هذه الفترة وقبل حلول الشتاء، علي الرغم من أن أخطر مرحلة من الرحلة هي التي تقع فيما بين الدردنيل والبسفور بسبب عدم اتساع البوغاز في هذه المنطقية فيصبح من المتعذر علي السفن دخول المضايق في تلك المنطقة ما لم تهب الرياح الجنوبية لتدفع السفن نحو العاصمة في الوقت الذي كانت الرياح الشمالية والتيارات البحرية تعاكس تقدم هذه السفن نحو القسطنطينية (١٤٣).

ولابد وأن الإمبراطور جستنيان أدرك عمق هذه المشكلة لأنه أمر بتشييد شون كبيرة عند بداية هذه المنطقة تبلغ من الضخامة بحيث تتسع لكل حمولة الأسطول الذي يجري تفريغه هناك إذا ظلت هذه العقبات تحول دون

---

(141) The Chronicle of John Bishop of Nikiu, CIII, p. 165
(142) Procopius: Buildinds of Justinian V. 1, pp. 7-16
(143) Johnson: op. cit. p. 156,

العريني: نفسه ص٢١٢

تقدم السفن نحو العاصمة. وفي حالة تفريغ الأسطول في تلك المنطقة يصبح في وسع قادته العودة به إلي الإسكندرية. علي أن يتولي أسطول آخر نقل القمح إلي القسطنطينية حينما تسمح الظروف وتتحسن الأحوال الجوية[١٤٤].

أما عن أجور نقل القمح فمنذ عهد جستنيان اهتمت بيزنطة بجباية الضريبة المعروفة باسم النولون والمخصصة لسد نفقات نقل القمح إلي القسطنطينية، حتى لا تتعرض عملية نقل القمح لأي عائق أو تأخير، ونص القانون رقم ١٣ علي جباية هذه الضريبة التي قدرت بعشرة في المائة (١٠٪) من ثمن القمح، أي أن سعر الشحن جري تقديره بعشرة في المائة من ثمن الشحنة ذاتها[١٤٥]، وقرر جستنيان أن تجبي هذه الضريبة مع ضريبة القمح ذاتها أو ضريبة الميرة، أي يجري جباية الضريبتين في وقت واحد. ويجري توزيعها علي الوحدات الإدارية لتحصل من الأبروشيات والباجركات والمدن والقري والضياع الكبيرة، وأمر بأن يهتم الدوق وموظفو الديوان وجباة النولون بهذه الضريبة[١٤٦]، علي أن يمنح موظفو المالية دافعي هذه الضريبة الايصالات الدالة علي تسديد ضريبة القمح متضمنة أيضا تسديد هذه الضريبة المعروفة باسم النولون. ويجري إثبات الضريبتين معا في إدارة الحسابات، ضريبة القمح وضريبة النولون وتنقل هذه الضريبة الأخيرة أيضا مع القمح وتسلم إلي يد المشرف علي شحن القمح إلي العاصمة البيزنطية الذي يقوم بدوره بتوزيعها علي أصحاب المراكب والسفن التي تتولي نقل القمح إلي العاصمة.

---

(144) Johnson: op. cit. p. 156
(145) Ibid. p. 160

(١٤٦) العريني: نفسه ص٢١٣

وكل هذا الاهتمام بهذه الضريبة كي لا تتعرض عملية نقل القمح لأي تأخير أو عائق (١٤٧).

وتشددت القوانين البيزنطية في محاسبة المقصرين في تحصيل هذه الضريبة لأهميتها، فإذا حدث إهمال من جانب الدوق أو إدارته في تحصيلها أو لم يتم جمع المبلغ المطلوب في الوقت المحدد لتسليمه إلي المشرف علي نقل القمح وشحنه، تقرر أن يؤدي الدوق وإدارته ضعف المبلغ المطلوب كتعويض عن هذا الإهمال (١٤٨)، كما اهتم القانون أيضا بتحصيل رسوم أخري إضافية كانت تحصل نوعا أو نقدا تراوح مقدارها ما بين ١،٦٠٪ من ثمن الشحنة لتدفع للعاملين في عملية القمح هذه في كيله أو العناية به، ونظافته من الشوائب وسلامته وخلوه من الآفات (١٤٩).

وعلي الرغم من قيام الحكومة البيزنطية بمقاومة الموظفين المهملين أو الذين لا يتصفون بالأمانة والنزاهة أو أولئك الذين درجوا علي استغلال وظائفهم ومناصبهم للإثراء علي حساب الحكومة ودافعي الضرائب، إلا أنها مع ذلك أثقلت كاهل المصريين وقست إلي حد كبير علي دافعي الضرائب

(147) Diehl: op. cit. p. 470

(١٤٨) العريني: المرجع السابق ص٢١٤

(149) Johnson: op. cit. pp. 241-245

لاستنزاف ثروات مصر وتحصيل ضرائب مصر وفي مقدمتها القمح [١٥٠]، ومهما أظهره بعض الأباطرة من نوايا طيبة تجاه مصر وأهلها وما أجروه من إصلاحات تهدف إلي تحسين أحوال البلاد والسكان، إلا أن ذلك كله لم يفلح، ولم تكن له كبير فائدة أمام الثغرات التي كانت تنشأ عند تطبيق القوانين، ولهذا ليس بمستغرب أن تعرضت مصر البيزنطية للانهيار والاضمحلال في كثير من الأحيان خاصة في الميدان الاقتصادي والمالي حتى مجيء العرب المسلمين قرب منتصف القرن السابع الميلادي[١٥١].

(١٥٠) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٦

(151) Diehl: op. cit. p. 470

الفصل الخامس

التنظيمات الحربية والأمن الداخلى فى مصر البيزنطية

الفصل الخامس

التنظيمات الحربية والأمن الداخلي في مصر البيزنطية

التنظيمات الحربية والأمن الداخلي في مصر البيزنطية حتى أوائل القرن السادس الميلادي:

شهدت الفترة الأخيرة من القرن الثالث الميلادي، أي منذ عهد الإمبراطور دقلديانوس، تغييرات جوهرية في نظم الجيش الإمبراطوري، وجري إحداث تعديلات هامة في هيكل القوات البيزنطية المحاربة منذ ذلك الوقت وفي الفترة التالية [1]، وظهر صدي هذا التغيير في الفرق المرابطة في مصر البيزنطية فمس الجيش الإقليمي فيها جانب من هذا التغيير منذ بداية العصر البيزنطي، ولهذا ينبغي دراسة التغييرات والإصلاحات التي حدثت في الجيش الإمبراطوري أولا، ثم دراسة صدي هذه التغييرات في مصر البيزنطية بعد ذلك.

ويشير المؤرخون إلي أنه منذ ذلك الوقت، حدثت تغييرات في الخصائص الأساسية للنظام الحربي في الإمبراطورية البيزنطية بتأليف جيش نظامي يمكن أن ينتقل من مكان إلي آخر في يسر وسهولة [2]، بجعل هذا الجيش النظامي خفيف الحركة، يمكن تحريكه من مكان إلي أخر في يسر وسهولة وكذلك جري فصل قوة الفرسان عن قوة المشاة واعتبار كل قوة مستقلة

---

(1) Ostrogorski: op. cit. p.32

(٢) العريني: المرجع السابق ص١٣٠،

Ostrogorski: op. cit. p.40

بذاتها مع تقليل حجم الفرق العسكرية عما كانت عليه في الفترة السابقة [٣]، أي أن الجيش الإمبراطوري نظم بحيث يسهل تحريكه من مكان إلي أخر في سرعة، مواكبة لأحداث العصر من ناحية، وللتصدي بسرعة للأخطار التي بدأت تهدد الإمبراطورية في أي مكان من ناحية أخري، في الوقت الذي رابطت فيه فرق أخري علي أطراف الإمبراطورية لحمايتها من الأخطار، وبذلك تألفت القوة العسكرية البيزنطية من الجيش النظامي وجيش الأطراف أو الحدود بالإضافة إلي قوة الحرس الإمبراطوري الموجودة أصلا قبل هذه التعديلات [٤].

أما الجيش النظامي فيتكون من الفرق التي يقودها الإمبراطور والتي تصحبه في تحركاته وفي الحروب الهامة، ويتكون من المشاة والفرسان معا، وتميزت بعض فرقه من حيث التدريب والأسلحة، وتفوقت علي غيرها من الفرق واعتبرت من خيرة الفرق العسكرية [٥]، ورابطت بعض هذه الفرق بالقرب من القسطنطينية أو في إيطاليا لحماية العاصمة ولسرعة تلبية طلب الإمبراطور من جهة، بينما وكلت للفرق المرابطة في إيطاليا حماية الغرب انطلاقا من مركزها في إيطاليا من جهة أخري، وكانت هذه القوات النظامية تحتل مكانة أعلا من مكانة الجند المرابطين علي الحدود أو الأطراف الخارجية للإمبراطورية [٦].

---

(3) Bury: op. cit. V. 1, pp. 34 -5
(4) Katz: op. cit. pp.45-6
Came. Med. Hist. V. 1, p.44
(5) Bury: op. cit. 1, p. 35

(٦) العريني: المرجع السابق ص١٣٠

أما جيش الأطراف أو جيش الحدود، فإن أفراده يقومون عادة بزراعة الأرض الواقعة علي امتداد الحدود ويحوزونها علي أنها نوعا من الإقطاع الحربي، الذي يساعدهم علي تجهيز أنفسهم للدفاع عن حدود الإمبراطورية، ويرث أبناؤهم هذه الإقطاعات عند دخولهم في الخدمة الحربية، ليواصلوا القيام بالدفاع عن حدود الإمبراطورية، معتمدين علي ما تدره هذه الإقطاعات من دخول [٧].

وإلي جانب هاتين الفئتين، كانت هناك فرق الحرس الإمبراطوري التي حازت شهرة كبيرة في العصر البيزنطي، وتميزت كثيرا في تسليحها وتدريبها وقادتها الذين يهتم الأباطرة باختيارهم من بين المقربين لهم، وشكل الجرمان والبرابرة جانبا هاما من قوة الحرس الإمبراطوري بحكم شدة مراسهم في الحرب وإخلاصهم لقادتهم [٨]. ثم ضمت هذه الفرق أيضا بعض الرومان من مختلف الطبقات العليا والدنيا، وكان الإمبراطور يختار أحيانا من هذه الفئة بعض قادة الجيش النظامي، وتمتع أفراد هذه الفرق بمكانة زادت علي مكانة الجنود العاديين من حيث التدريب والأسلحة والأجور الخاصة [٩].

أما عن تقدير عدد الجيش الإمبراطوري في تلك الفترة، فقد تضاربت الروايات في ذلك، فقيل في رواية أن عدد أفراد هذا الجيش زمن الإمبراطورين دقلديانوس وقنسطنطين بلغ نحو ثلاثمائة وستين ألف جندي، شكل الفرسان نحو مائة وعشرة آلاف فارس، وبلغ المشاة نحو مائتين وخمسين ألف جندي، وفي رواية أخري قيل أنهم بلغوا نحو - اثني ألف جندي شكل

(7) Bury: op. cit. V. 1, p. 35
(8) Burckhardt: The Age of Constantine the great, p.53
Camb. Med. Hist. V. 1, pp. 45-6
(9) Bury: op. cit. V. 1, p. 37

الفرسان نحو ستة وأربعين ألف جندي وشكل المشاة الباقي، ولا يخلو الأمر في الروايتين مبالغة ظاهرة [١٠]، ولا سبيل إلي معرفة العدد الحقيقي لهذا الجيش خاصة وق. رابطت فرق منه قرب ا. اصمة كما رابطت فرق أخري في إيطاليا، فضلا عما أرسل إلي الولايات المختلفة بما فيها مصر من فرق عسكرية، فضلا عن أن عدد أفراد الفرق الإمبراطورية أخذ يتضاءل بمرور الزمن[١١].

وتبدو هذه الحقيقة في ظل معرفتنا بما أصاب الإمبراطورية من تطور في نظمها وقوانينها، فلقد كانت الفرق الرومانية تتألف أصلا من المواطنين الرومان، حتي جري في القرن الثالث الميلادي منح حق المواطنة لكل سكان الإمبراطورية بما في ذلك الولايات التابعة لها، والتي خضعت مؤخرا لحكم الإمبراطورية [١٢]، وزالت في نفس الوقت التفرقة بين المواطنين الأصليين والرعايا المنضمين ورسخت أوضاع الفرق المرابطة علي الأطراف والتي تألف معظمها من العنصر المتبربر، وجري السماح للأجانب بالانخراط في الخدمة العسكرية والتخلي في نفس الوقت عن مبدأ فرض هذه الخدمة علي المواطنين الرومان إلا في حالة الدفاع عن مقر الإقامة المهدد ضد الأخطار، أي انه لا يجوز إرغام أحد المواطنين الرومان علي الخدمة العسكرية إلا إذا تعرضت مدينته أو محل إقامته للخطر [١٣]، لهذا كله لم يعد من السهل حصر عدد أفراد الجيش أو تقدير عدد الجنود تقديرا دقيقا .

(10) Camb. Med. Hist. V.1, p.45

(١١) العريني: نفس المرجع ص١٣١

(12) Bury: op. cit. V. I, p. 39
(13) Ibid. p. 39

وعلي هذا تغير نظام التجنيد والمجندين، وتشكل المجندون من فئات مختلفة من المواطنين والرعايا في هذه الفترة فمن المجندين: عدد من المواطنين الرومان أو الأجانب الذين يتقدمون من تلقاء أنفسهم للخدمة العسكرية أي المتطوعين والذين تصل مدة تطوعهم أحيانا إلي نحو خمسة وعشرين عاما [١٤]، ويمثل هذا الفريق الفئة الأولى من المجندين، ثم هناك أيضا فئة من الناس يجمعهم كبار ملاك الأراضي من بين فلاحيهم للخدمة العسكرية كنوع من الالتزامات المفروضة علي الضياع، ويشكل هؤلاء الفئة الثانية من المجندين، ثم هناك أيضا أبناء الجنود الذين تحتم عليهم أن يرثوا آبائهم في هذه المهنة ليشكلوا الفئة الثالثة من المجندين [١٥]، وإن بطلت هذه الخدمة الوراثية قبل زمن جستنيان وألغيت، ثم هناك فئة من المتبربرين الذين كانت منازلهم أو محلاتهم تقع داخل حدود الإمبراطورية، والذين جري تنظيمهم في جماعات عسكرية تخضع لسلطة القادة الرومان ليمثلوا الفئة الرابعة من المجندين [١٦].

وعلي الرغم من هذا التباين في تكوين الجيش وبين المجندين للخدمة العسكرية الذين ضموا المواطنين الرومان والرعايا الأجانب والفلاحين الذين يجمعهم كبار الملاك الزراعيين وأبناء الجنود الوارثين لمهنة آبائهم والمتبربرين الداخلين في نطاق الإمبراطورية، فلم يكن ثمة ما يمنع الجندي أيا كان أصله أو كانت منزلته من الترقي حتى رتب القيادة في الجيش الإمبراطوري طالما

---

(14) Jones: The Decline of the Ancient world, p.212 (London 1948)

(١٥) العريني: المرجع السابق ص١٣٤

(16) Arnold: The end of the Byzantine Empire p.28 (D.M. Nicol. 1979)
Bury : op. cit. V. I, p. 40

أظهر الشجاعة في الحرب والإخلاص والولاء للإمبراطور [١٧]، ولعل ذلك يفسر وصول بعض الرجال إلي منصب القيادة العليا في الجيش الإمبراطوري رغم أنه كانت تجري في عروقهم دماء الجرمان أو دماء المتبربرين.

ويشير المؤرخون إلي انه في الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي حدثت ثورة هامة في نظم الجيش الإمبراطوري، وأدخلت تعديلات أساسية علي نظم ذلك الجيش خاصة بعد معركة أدرنه التي اكتسح فيها الجرمان مشاة الجيش الإمبراطوري سنة ٣٧٨م، تحت قيادة الإمبراطور فالنز Valenz (٣٦٤-٣٧٨م)، إذ اضطر ثيودسيوس العظيم إلي إعادة تنظيم الجيش وتدريبه والاعتماد علي فرق الفرسان والعناية بهم، وبفضل ذلك أحرزت الإمبراطورية انتصاراتها الباهرة بعد ذلك، واستمر الأباطرة في تطوير الجيش والاعتماد علي طبقة الفرسان [١٨]، كما اهتموا بالرماة في الفرق العسكرية نتيجة للخبرات التي اكتسبها الجيش الإمبراطوري من الحروب التي خاضها في الشرق، فادخل هذا السلاح وجرت العناية به في الجيش الإمبراطوري، بعد أن جري تغيير نظام الفرق الإمبراطورية تغييرا كاملا [١٩].

وفي إطار هذه الثورة في نظم الجيش والتعديلات الأساسية في فرقه العسكرية اهتمت الإمبراطورية أيضا بدفاعاتها، واعتمدت في حماية حدودها علي مساعدات الإمارات الصغيرة والقبائل الضاربة علي حدودها، والاستفادة من هذه الإمكانات في كفالة الأمن والأمان علي حدود الإمبراطورية، وهو ما

---

(17) Hussey: The Byzantine World. P.13
Burckhardt: op. cit. p. 53
(18) Jones: op. cit. p. 40
Vasiliev: op. cit. V. 1, p. 87
(19) Bury: op. cit. V. 1, p. 42

عرف بنظام المحالفة [٢٠]، أو نظام التعاهد أو المعاهدة، فقد حرصت الإمبراطورية علي ربط هؤلاء المحالفين بمعاهدات تحالف والتزام بالدفاع عن أنفسهم من ناحية وعن حدود الإمبراطورية من ناحية أخري، مقابل الإعفاء من الضرائب المقررة عليهم أو الإتاوات من جهة، ومنحهم حماية الإمبراطورية أو شمولهم بحمايتها ضد الأخطار من جهة أخري، ثم تطور الأمر حد أن يتلقي هؤلاء مبالغ معينة من المال كل عام من الإمبراطورية علي أنها رواتب أو أجور الجند الذين ينضمون إلي الجيش الإمبراطوري في المعارك الحربية التي يخوضها [٢١].

ومن أمثلة هؤلاء المحالفين: الأبخاز في هضبة القوقاز والعرب علي نهر الفرات والأحباش علي أطراف مصر الجنوبية. وهكذا وجدت في القرن الخامس الميلادي فرق عسكرية سميت بفرق المعاهدين أو المحالفين، كانت ضمن فرق الجيش الإمبراطوري، وتولت الحكومة دفع رواتب أفرادها، وقادهم قادة من البيزنطيين، وأضحوا في القرن السادس الميلادي من أكثر الجند قوة وأشدهم مراسا وأكثرهم أهمية في الجيش الإمبراطوري [٢٢].

ولقد احتلت مصر البيزنطية مكانة خاصة بين أقاليم الإمبراطورية لكونها مستودعا للغلال ولنزوع أهلها إلي مقاومة السلطة الحاكمة وشدة الحاجة إلي حفظ الأمن الداخلي بها، لذا خصصت لها حامية عسكرية قوية، بلغت في القرون الأولى للميلاد ثلاث فرق عسكرية، فضلا عن القوات المساعدة

---

(٢٠) العريني: نفس المرجع السابق ص١٣٥

(21) Bury: op. cit. V. 1, p. 42
(22) Ibid. p. 43

الملحقة بها (٢٣)، فإذا أضفنا إلي ذلك ما كان يحدث بها بين الحين والحين من الخلافات الدينية والنزاعات المذهبية التي ترتبت عليها ثورات وقلاقل، أدركنا أن بيزنطة كانت بحاجة إلي كفالة الأمن وتهدئة الأمور بها ولو اضطرت إلي استخدام القوة العسكرية، ومن هنا كان الاهتمام الكبير بحاميتها العسكرية (٢٤).

ولم يختلف الجيش الإقليمي في مصر البيزنطية في تكوينه عن الجيش الرئيسي للإمبراطورية، فهناك فئة أفرادها من خيرة الجند يجري تجنيدهم بطريق التطوع أي المتقدمين للخدمة العسكرية من تلقاء أنفسهم (٢٥)، وبطريق الإلزام من الفلاحين الذين يجمعهم كبار الملاك الزراعيين للخدمة العسكرية وبالوراثة من بين أبناء الجنود الذين ورثوا مهنة آبائهم حتى عهد جستنيان(٢٦)، وهذه هي الفئة الأولى في جيش مصر وهي تماثل تماما الفئات الثلاث في الجيش الإمبراطوري الرئيسي، أما الفئة الثانية في جيش مصر فهم الجنود المرابطون علي الحدود أو جيش الأطراف وسهمتهم حراسة الحدود والقلاع علي أطراف البلاد، ويعيش أفرادها علي الأراضي الزراعية الواقعة علي الحدود (٢٧)، أما الفئة الثالثة في جيش مصر فهم المحالفون الذين انحاز إليهم أحيانا بعض المغامرين والوافدين من خارج الحدود، وتولي قيادتهم قادة معينون من قبل الإمبراطور، ثم هناك أيضا فئة من المأجورين وهم جنود كانوا

---

(23) Bell: Egypt under the Early principate, in Camb.Anc. Hist. Vol.10,ch.x, pp. 243-44
(24) Procopius: De bello vandalico, p.342
(25) Jones: op. cit. p. 212
(26) Maspero: Organisation Militaire de L'Egypte Byzantin,p.44 (paris 1912)
(٢٧) العريني: المرجع السابق ص١٣٧

يتبعون بعض الأشخاص كحرس خصوصيين، ويتولي هؤلاء الأشخاص دفع رواتبهم وإعاشتهم ومنهم أيضا من كان ينتمي إلي كبار موظفي الإمبراطررية أو جندا خصوصيين لبعض الأفراد [٢٨]، فكان يحدث أحيانا أن يقوم سادة هؤلاء الجنود بعرض خدماتهم علي الدولة نظير مبالغ معينة وأجرر خاصة، فيسهم هؤلاء في الدفاع عن الإمبراطورية علي الرغم من أنهم لم يكن لهم أصلا صلة بالجيش الإمبراطوري.

وعلي هذا تشكل جيش مصر البيزنطية الإقليمي من الفئات الأربعة المذكورة، فئة بالتطوع والإلزام والوراثة [٢٩]، وفئة من المرابطين علي الحدود أو ما عرف بجيش الأطراف، وفئة من المحالفين الذين كان ينحاز إليهم أحيانا بعض المغامرين والوافدين، وفئة من المأجورين الذين كان بعضهم يتبع أشخاصا معينين كحرس خصوصيين ثم جري عرضهم علي جيش الدولة نظير أجور خاصة ومبالغ معينة، فأسهموا في الدفاع عن مصر وشكلوا الفئة الرابعة من فئات جيش مصر الإقليمي في العصر البيزنطي [٣٠].

ويذكر المؤرخون اعتمادا علي برديات ووثائق هذا العصر أن الفئة الأولي من جيش مصر الإقليمي التي تشكلت من المتطوعين والملزمين وبالوراثة، هذه الفئة جري انتزاعها من الجيش النظامي الإمبراطوري وأنزلت بمصر، وأضيف إليها من التزام الملاك في مصر بتقديمهم للخدمة بما يتفق ومساحة أراضيهم، ومن تطوع لأداء الخدمة من المصرين ومن ورث مهنة والده العسكرية الأمر

---

(28) Maspero: op. cit. pp. 47-55

(29) Diehl: Etude sur L'administration Byzantin dans le exarchat de Ravenne, p.48(Paris 1907)

(30) Maspero: op. cit. pp.47-55

الذي جعل القوة المرابطة بمصر أو الجانب الأعظم منها يتألف من المصريين[٣١]. فليس صحيحا إذن ما يقال بأن أمن مصر خلال تبعيتها لغيرها كفله غير المصريين، إذ من الثابت أن الجانب الأعظم من الجنود المرابطين بمصر في العصر البيزنطي كانوا من أبناء مصر.

وإن كان بعض المؤرخين يذهب إلي القول بأن هذه العناصر المصرية التي حلت محل مواطني الإمبراطورية في الجيش في مصر، كانت علي قدر ضئيل من الثقافة والتعليم [٣٢]، الأمر الذي أدي إلي انخفاض مستوي الجيش ومقدرته الحربية في القتال، فضلا عن سريان روح جديدة لا تحافظ علي التقاليد العسكرية وتبدي عدم الاكتراث وعدم النظام، فضلا عن نقص روح الإخلاص للإمبراطورية بسبب كراهيتهم للسلطة الأجنبية في مصر [٣٣]، لكن علي الرغم من كل ذلك فالذي يعنينا أن الجانب الأكبر من الجنود المرابطين في مصر البيزنطية كانوا من أبناء مصر، وإن لم يتحمسوا كثيرا لتحقيق أغراض السلطة البيزنطية، علي الرغم من أنهم اشتهروا منذ القدم بأنهم من خيرة جنود الدنيا مقدرة وشجاعة وأكثرهم جلدا وصبرا في القتال حققوا سيادة مصر علي جانب كبير من العالم المتحضر [٣٤].

---

(31) Bell: Egypt from Augustus to Diocletian, p. 484 (Cairo 1938).
Maspero: op. cit. pp.47-55

(٣٢) العريني: المرجع السابق ص١٣٨-١٣٩،
Diehl: op. cit. p.476, Maspero: op. cit. pp.56-7

(33) Aussaresses: L'Armee Byzantin a la fin Du vie D'apres Le Strategos de l'Emperur Maurice, p.105 (Paris 1909).

(34) Amelineou: La geographie d'l'Egypt Copte, p.13

واشترطت الحكومة في مصر البيزنطية أن يتفرغ الجنود للقتال وممارسة استخدام السلاح والتدريب العسكري تحت إشراف القادة، وحرم عليهم القيام بعمل من الأعمال كالتجارة أو تولي أعمال حكومية أو أهلية أو غير ذلك، وإنما اشترط أن ينصرف الجنود للتدريب علي استخدام السلاح وممارسة الحياة العسكرية طوال زمن السلام قبل زمن الحرب [٣٥].

وكان من واجبات الجند في مصر البيزنطية حراسة الطرق وملاحظة القبائل المتمردة ومنع هروب الرعايا إلي بلاد البربر، ولهذا رابط الجند علي امتداد الحدود التي أقيمت عليها قلاع متقاربة [٣٦].

وفي هذه الفترة كان الجندي يتقاضي راتبا مناسبا إذا قسم علي أيام الشهر غدا يساوي أجر العامل المتوسط في اليوم علي وجه التقريب، ويستقطع منه جزء مقابل ما كان يقدم له من طعام [٣٧]، ويبدو أن هذا النظام هو نظام الجيش المركزي الذي تحدث عنه المؤرخ بروكوبيوس علي عهد الإمبراطور جستنيان، ويبدو أن جنود مصر تمتعوا مثل غيرهم في الولايات الأخرى بوجبات طيبة كانت تقدمها لهم الحكومة [٣٨]، فضلا عما كان يحصل عليه الجندي من منح استثنائية بين الحين والحين وفي المناسبات التي تغدق فيها الدولة علي جنودها، فضلا عن نصيبه من الغنائم التي يحصل عليها الجيش عند انتصاراته وعند بلوغ الجندي سن التقاعد كان يتقاضي معاشا من الخزانة

---

(٣٥) العريني: المرجع السابق ص١٣٩

(36) Maspero: op. cit. p.42, p.60

(37) Brehier : la Mond Byzantin les institution de L'Empire Byzantin, p.400 (Paris 1949).

(38) Procopius: The Secret History, trans. By Dewing, p.143 (London 1969)

العسكرية [٣٩]، هذا كله عدا ما كان يقدم له من رواتب عينية ومؤن لحصانه أو ما عرف بالميرة.

وكانت الخدمة العسكرية تمتد بالجندي إلي أن يبلغ أربعين سنة من عمره، وهذه هي العادة التي جرت في سائر أنحاء الإمبراطورية، فإذا جاوز الجندي هذا الحد من العمر تقرر إعفاؤه من الخدمة وصارت له امتيازات وحقوق خاصة مثل الإعفاء من الضرائب والالتزامات البلدية، علي حين كانت الخدمة في جيش الأطراف في مصر خدمة وراثية، إذ يخدم الجنود في الجهات التي كانوا يقيمون فيها أو ينزلون بها بطريقة الوراثة، علي أن يخصصوا جانبا من وقتهم لمارسة التدريبات الحربية [٤٠]

أما عن المحالفين أو المعاهدين الذين يمثلون الشعوب أو الأقوام المجاورين فيمثلهم النوباد علي الطرف الجنوبي لمصر، وظل الأباطرة يدفعون لهم الإعانات حتى يخلدوا للهدوء والسكينة من ناحية، ولكي يدافعوا عن حدود مصر ضد غيرهم من المتبربرين من ناحية أخري، ومن المحالفين أيضا لبيزنطة في غرب مصر بعض قبائل البدو التي أفادت الدولة من مساعداتهم الحربية أحيانا وحماية الحدود الغربية لمصر من هجمات الأعداء أحيانا أخري [٤١].

أما عن فئة الجند المأجورين، فهم الحرس الخصوصيين الذين اتخذهم بعض ملاك الأراضي لأنفسهم، فضلا عن قيام بعض المغامرين بتأليف جماعات مسلحة تحولوا عند حاجة الحكومة إلي قوي نظامية يحاربون للدفاع

(39) Bury: op. cit. Vol.1, p. 47
(40) Bell: Egypt under the Early principate. C.A.H.10,X, pp.243
والعريني: نفس المرجع السابق ص١٤٠
(41) Diehl: op. cit. p.478

عنها مشكلين مع الحرس الخصوصيين فئة المأجورين الذين قدموا خدماتهم للحكومة نظير الأعطيات والرواتب والمبالغ التي كانت تدفعها لهم السلطة، وأشارت بعض برديات مصر في العصر البيزنطي إلي هذه الطوائف من الجند المأجورين الذين انحازوا بصفة دائمة إلي الجيش النظامي في مصر، وتقاضوا من أجل ذلك ما تقرر لهم من رواتب [٤٢].

ومن الثابت أن الحكومة الإمبراطورية أقامت في مصر قوة حربية كبيرة وفيرة العدد لحفظ الأمن الداخلي من ناحية ولرد المغيرين واللصوص من ناحية أخري، فضلا عما كان لهذه القوة من أهمية في جباية الضرائب وإخماد الثورات المندلعة بسبب النزاعات الدينية والخلافات المذهبية من ناحية ثالثة، يضاف إلي ذلك اهتمام الحكومة بإظهار مالها من سيادة مطلقة في مصر لأهمية هذا الإقليم كمركز من المراكز الهامة لمد الإمبراطورية بالغلال من جهة رابعة [٤٣].

ويؤكد المؤرخون اعتمادا علي وثائق وبرديات ذلك العصر أن الأمن الداخلي والسلام توفر لمصر البيزنطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي إلي أوائل القرن السابع الميلادي، أي إلي قرب مجيء العرب المسلمين إلي مصر، بسبب عناية الإمبراطورية بقوات حفظ الأمن الداخلي من ناحية [٤٤]، وكذلك عنايتها بالقوة المرابطة في مصر والحامية المخصصة لحماية هذا الإقليم الهام،

(42) Maspero: op. cit. pp.67-8
(43) Diehl: op. cit. p.473
Procopius: De bello Vandalico, p.342
(٤٤) نقولا ناهض: الموسوعة ص٨٢٩

وعلي الرغم من ذلك ظلت الحكومة تبدي اهتمامها وعنايتها بمصر وأمن مصر وتحتفظ فيها بقوة عسكرية رادعة [٤٥].

وفي هذا الإطار اهتمت الإمبراطورية باحتلال المنطقة الواقعة في أقصي جنوب مصر حتى قرب مدينة حلفا، وهي المنطقة التي خضعت من الناحية الإدارية للإقليم الواقع في أقصي الجنوب وتحميها سلسلة من القلاع الحربية المنيعة، ووضعت فيها فرقة عسكرية من الفرسان [٤٦]، كما اعتبرت الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من الحدود الطبيعية لمصر خاصة وأن إغارات القبائل النازلة فيها لم تكن من الخطورة بدرجة تدعو إلي تعكير صفو السلام من هذه الجهات [٤٧]، أما الدلتا فتعتبر مثلثا يشمل رءوسه: الإسكندرية وبابليون والفرما [٤٨].

فالإسكندرية كانت قاعدة برية وبحرية هامة ازدادت أهميتها بمضي الزمن وأولتها الإمبراطورية اهتماما كبيرا بتحصينها وإقامة القلاع القريبة، وحشدت فيها قوات كبيرة وأساطيل بحرية لحمايتها، فضلا عما يمكن أن تتلقاه من مساعدة الأسطول البيزنطي العامل في شرق البحر المتوسط [٤٩]. أما حصن بابليون فكان يتحكم في الطرق بين الدلتا والصعيد وحشدت فيه بيزنطة قوات عسكرية هائلة قوامها فرقة فرسان تضم ثلاث كتائب عند هذا الحصن [٥٠]،واعتبرته مركز الدفاع عن مصر كلها، وأكسبه أهمية عسكرية وقوعه علي النيل مباشرة فأصبحت القوات العسكرية البيزنطية في هذا

---

(45) Bell: op. cit. pp. 243-4
(46) Jones: op. cit. p.212
(47) Amelineau: op. cit. p.13
(48) Bell: op. cit. pp.243-6
(49) Ostrogorski: op. cit. p.103
(50) grass: The Standard work on the later Roman army, p.29 (Berlin 1920)

الحصن تأمن علي نفسها، إذ يصعب حصاره برا وبحرا، بينما كان يمكن أن يتلقي الإمدادات والمقاتلين من النيل عن طريق الأبواب الواقعة علي النيل مباشرة [٥١]. أما الفرما فقد كانت لها أهمية ومكانة خاصة لاحتلالها موقعا بريا خطيرا شرقي بور سعيد الحالية، ورابطت بها حامية عسكرية هامة لحماية حدود مصر الشرقية الساحلية واعتبرت الفرما أو بلوزيوم من المراكز البيزنطية الهامة في شرق مصر، وأظهرت أطلال هذه القلعة مدي اهتمام الإمبراطورية بتحصينها والعناية بها كطرف من أطراف مصر العسكرية، ونقطة ارتكاز لحماية الدلتا كلها [٥٢].

كما جري تشييد قلاع علي امتداد الطريق الساحلي المؤدي إلي سوريا لمنع غارات العرب والبدو في هذه الجهات، وتشييد مثلها علي الحافة الشرقية للدلتا بين الفرما وبابليون ومنف وعلي الطريق الممتد من الفرما إلي مدينة القلزم علي خليج السويس [٥٣]، مكان مدينة السويس الحالية، فضلا عن إقامة حصون متباعدة في برقة علي حدود مصر الغربية، كما رابطت حاميات في مواضع أخري من وادي النيل [٥٤]، مثل الأشمونين وقفط لأهميتهما التجارية وحماية ما كان يصل إليهما من سلع ومتاجر فضلا عن منتجات مصر [٥٥]. وهكذا كان اهتمام الإمبراطورية البيزنطية بأمن مصر وحمايتها من الأعداء، ومما كان يحدث فيها من فتن وقلاقل لأسباب كثيرة ومتنوعة.

---

(٥١) بتلر: فتح العرب لمصر ص٢١٥-٢١٦

(52) Bell: op. cit. pp.243-6
(53) Maspero: op. cit. p.42
(54) Ostrogorski: op. cit. p.31
(55) Bell: op. cit. p.243

التنظيمات الحربية والأمن الداخلي منذ أوائل القرن السادس حتى نهاية العصر البيزنطي في مصر:

بزغت حقبة جديدة وهامة في تاريخ الإمبراطورية وتاريخ مصر البيزنطية بولاية الإمبراطور جستنيان، الذي بدأ حركة إصلاح كبيرة في الإمبراطورية شملت الجيش الإمبراطوري أيضا، خاصة بعد أن أصبح الأدواق يجمعون في أيديهم السلطتين المدنية والعسكرية (٥٦).

وفي هذه الفترة حددت مواضع ثلاثة حدود القطر المصري منذ زمن جستنيان وخلفائه وهي: العريش وبرقة (بوريون Borion) وجزيرة فيلة، إذ كانت مدينة العريش أكثر المدن تطرفا نحو الشرق ويمتد خط الحدود بينها وبين مدينة رفح الواقعة في فلسطين طوال العصر البيزنطي، أما برقة فكانت تقع في أقصي الغرب علي حدود إقليم ليبيا، وظلت تعتبر حدا غربيا لمصر إلي أن صار الساحل كله من توابع مصر بعد إضافة ليبيا إلي مصر (٥٧)، أما جزيرة فيلة فقد كان ينتهي إليها الحد الجنوبي بعد أن انسحبت القوات البيزنطية زمن دقلديانوس من النوبة، وفي زمن الإمبراطور موريس اهتم دوق طيبة بعمارة استحكامات قلعة فيلة لمنع غارات النوبيين (٥٨).

وبدت أهمية النقط الثلاث التي كانت تنتهي إليها أطراف القطر المصري في ذلك الوقت، وعظمت مكانتها في تلك الفترة، فقد أشار ماسبيرو إلي أن هذه النقط كانت مدنا حصينة لتستطيع أن تصمد في مواجهة المغيرين الذين ارتادوا الصحاري والفيافي والجبال قرب حدود مصر (٥٩)، إذ كان

---

(56) Camb. Med. Hist. Vol. 2, pp. 11-12

(٥٧) العريني: المرجع السابق ص٢٣٣

(58) Maspero:Organisation Militaire de l'Egypte Byzantin,p.9

(59) Ibid. p. 9, العريني: نفس المرجع السابق ص٢٣٣

النوبيون والبليميون يشنون الغارات علي حدود مصر الجنوبية، علي الرغم من أنه جري تنظيم جيش الأطراف في طيبة منذ زمن الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م)، وجري تقوية سلطة حاكم طيبة بأن صار يجمع في يده السلطتين المدنية والعسكرية [٦٠]

ولهذا سرعان ما حلت الهزيمة بالنوبيين وتداعي أمر البليميين خاصة بعد أن تلقي هؤلاء الأخيرين هزيمة ساحقة علي يد النوبيين سنة ٥٣٥م، أي في عهد الإمبراطور جستنيان، ثم قام دوق طيبة البيزنطي بإغلاق معبد إيزيس في فيلة نهائيا فغادر باقي البليميين مواطنهم متجهين إلي الصحراء الممتدة ما بين النيل والبحر الأحمر، وبانتهاء القرن السادس الميلادي لم يعد للبليميين ذكر في التاريخ [٦١].

أما النوبيون فلم يعودوا مصدر خوف للإمبراطورية منذ أن حصلوا من الإمبراطورية البيزنطية علي إتاوات كفت أيديهم وجعلتهم يخلدون إلي السكينة، ثم كان اعتناقهم المسيحية سنة ٥٤٠م بفضل تشجيع ورعاية الإمبراطورة ثيودورا أثر كبير في تحولهم عن العداء لبيزنطة، بل أنهم سرعان ما دخلوا في دائرة النفوذ البيزنطي، وصار للإمبراطور البيزنطي نفوذ كبير عندهم وممثل خاص لدي ملكهم [٦٢].

كما أن البيزنطيين لم يتخلوا مطلقا عن سيادتهم علي الصحراء العربية لأن هذه الصحراء بالذات كانت أهم صحاري مصر، لما توافر بها من عيون الماء والأعشاب والزراعة في بعض جهاتها وما زخرت به من المناجم والمعادن والأحجار الكريمة مثل الزمرد والمرمر، والتي جري استغلالها في كل العصور،

---

(60) Diehl: op. cit. p.473

(٦١) العريني: نفس المرجع السابق ص٢٣٣

(62) Bury: op. cit. Vol. I. p. 237

يضاف إلي ذلك أنها ضمت طرقا هامة للقوافل، أبـدت الإمبراطوريـة اهتمامـا كبيرا بصيانتها والحفاظ عليها، لتسهيل مسـار التوافـل مـن طيبـة وقفط إلي مواني البحر الأحمـر مثـل برنيـس (قـرب سـفاجة الحاليـة) وميـوس هورمـز (القصير) التي كانت تمارس التجارة مع الهنود، علـي الرغـم مـن أن سـلطة الحكومة البيزنطية لم تكن قوية علي تلك الجهات [٦٣].

أمـا مدينـة القلـزم (السـويس الحاليـة) علـي الطـرف الشـمالي لخليـج السـويس، فقد كانت الموضع الذي حشدت فيه بيزنطة قوات مناسـبة، وظـل النفوذ البيزنطي قويا به في تلك الفترة خاصة وقد ضمت المنطقة المجاورة لها أديرة هامة مثل دير القديس أنطون بالقرب من سـاحل البحـر الأحمـر [٦٤]، وإلي الجنوب منه دير الأنبا بولا- الذي جرت الإشارة إليه من قبـل- حيـث استقبلت هذه المنطقة الجنود للدفاع عن هذا الركن من أركان مصر البيزنطية. وهذه المواضع هي التي اهتمت بها بيزنطة في مصر وركزت قواتـها العسكرية فيها، ودون ذلك لم تبد كبير اهتمام [٦٥].

أما الحدود الغربية فقد ازداد اهتمام بيزنطة بها وخصصت لها بعض القوات نظرا لأن البربر كانوا من أخطر المغيرين علي هذه الحدود، إذ أمعنـوا مرارا في إغاراتهم واختراقهم لأراضـي مصـر مـن هـذه الجـهـة، حتـى وصلـوا أحيانا إلي النيل [٦٦]، زمن الإمبراطور موريس، فـاضطر دوق مصـر أرسـتوماك لقيادة حملة ضدهم، وأنزل بهم هزيمة ساحقة، وأجبرهم إلي العودة من حيث أتوا، كما تعرض رهبان وادي النطرون لغارات القبـائل الضاربـة والبـدو عـبر

---

(٦٣) العريني: نفسه ص٢٣٣

(64) Chadwick: op. cit. p.178
(65) Maspero: op. cit. p.11
(66) Diehl: op. cit. p.473

الواحات الداخلة في الغرب، وهاجم بعضهم مدينة برقة وواحة سيوة وأديرة وادي النطرون، وأثاروا القلق والاضطراب في هذه الجهات في القرنين الخامس والسادس الميلاديين (٦٧).

ولم يكن اهتمام بيزنطة بهذه الحدود الغربية بسبب غارات البربر والقبائل البدوية من الغرب فحسب، وإنما أيضا لرغبتها في الحفاظ علي الواحات الخصيبة في تلك الجهات، ولهذا اهتم البيزنطيون بحشد قوات في مواضع مثل هيبس وفي أنجيلا التي شيد بها جستنيان كنيسة كبيرة أفادت في تحول كثير من الرعايا إلي المسيحية (٦٨)، وحرصت بيزنطة علي سد المنافذ أمام المغيرين حتى لا يصلوا إلي تلك المواضع الخصبة عبر حدود مصر الغربية.

ويذكر المؤرخون أن اهتمام بيزنطة بالصحاري المحيطة بمصر وحدود مصر شرقا وغربا وجنوبا، قد أرغمهم علي توزيع جنودهم علي النقط الهامة التي تتعرض للإغارات، وذلك علي حساب تمركز الجند في داخل البلاد في الوقت الذي احتاج فيه الأمن الداخلي لمساعدة الجند خاصة وقد اندلعت الثورات في الإسكندرية بالذات (٦٩)، وحدثت اضطرابات وقلاقل وفتن في جهات مختلفة من مصر في مناسبات كثيرة وعند احتدام النزاعات الدينية والمذهبية، فضلا عن حاجة السلطات في مصر لمعاونة الجند في جباية الضرائب- كما سبقت الإشارة- وهي المهمة التي أثقلت كاهل المسئولين عن هذه الجباية في مصر البيزنطية (٧٠).

---

(67) Maspero: op. cit. p. 13
Bury: op. cit.2, p. 371
Maspero: op. cit. p. 12

(٦٨) العريني: المرجع السابق ص٢٣٤

(69) Procopius: De bello Vandalico, p.342
(70) Maspero: op. cit. p.16

لهذه الأسباب كلها حرصت بيزنطة علي توفير عدد كبـير مـن الجنـد بالقطر المصري للنهوض بالأعباء الكثيرة لحماية أمن البلاد مـن المغـيرين مـن ناحية والمساعدة علي حفظ الأمن الداخلي من ناحية أخري، وكذلك المعاونـة في جباية الضرائب من جهة ثالثة (٧١)، علي الرغم من أن الروايات تذهب إلي القول بأن عددا كبيرا مـن الجنـود الذيـن حشـدوا في مصـر في هـذه الفـترة لم يمارسوا في كثير من الأحيان الحرب والقتـال، ولم تكـن لهـم خـبرات كبـيرة بالشئون العسكرية، ولهذا انصب اهتمامهم علي حفظ الأمن الداخلي والمعاونة في جباية الضرائب، فضلا عن التواجد في نقط الحدود البعيدة (٧٢).

وربما لهذا السبب تركز اهتمـام بيزنطـة بصفـة أساسـية علـي حمايـة المنافذ المؤدية إلي أبواب يمكن اختراقها عند حدود مصـر، فحشـدت بيزنطـة الجنود في هذه المنافذ نظرا لأن الصحراء لا تحيط بمصر إحاطة كاملة أو تلفها من كل الجهات، وإنما هناك منافذ وأبواب يمكن أن ينفذ منها المغيرون (٧٣)، مثل ليبيا في الغرب ووادي النيل الأعلى عند فيلة وهو الطريق الطبيعي الـذي كان يجتازه النوبيون في إغاراتهم علـي مصـر، وكذلك خليـج السـويس عنـد القلزم حيث تمتد من خلفه أراضي واسعة تتصل بشبه جزيـرة سـيناء وإقليـم فلسطين حيث يكثر العرب من التردد علي هـذه الجـهات ويصبـح بإمكانـهم اختراق هذا المنفذ إلي مصر (٧٤)، ولهذا كله اشتدت الحاجـة إلي حمايـة هذه المنافذ والأبواب الرئيسية وبذلت الحكومة جهودا مضنية للدفاع عن مصر عند هذه المواضع، خاصة في القرن السادس الميلادي بحشد قوات مناسبة عند كل

---

(71) Ibid. p. 16
(72) Aussaresses: op. cit. p. 105
(73) Vasiliev: op. cit Vol. 1, p.142
(74) Maspero: op. cit. p. 23

منفذ من هذه المنافذ وتقارب القلاع التي رابط فيها الجند علي هـذه الأطـراف لتحقيق هذا الهدف [٧٥].

وحفظت لنا المصادر نص مرسوم بيزنطي يشرح بالتفصيل ما كان يجب أن تؤديه القوات المرابطة علي حـدود مصـر الغربيـة عنـد ليبيـا، وفي القـلاع الواقعة علي تلك الحدود الغربية كجيش للأطراف فنص علي أن يقوم الجنـد بإخضاع القبائل المتمردة وحراسـة الطـرق ومراقبتـها ومنـع أحـد مـن اجتيـاز حدود البلاد حتى في أوقات السلم إلا بإذن من الدوق [٧٦].

وتشير الدلائل إلي أن جستنيان قد أبقي علي هذه النظم الحربيـة، ولم يغير كثيرا في تلك النظم، إذ ظل المرابطون من الجند الفلاحين يدافعـون عـن هذه الحدود وينفذون أوامر الدولة بعد أن حصلوا من الحكومة علي إقطاعات من الأراضي مقابل هذه الخدمة، فضلا عن أن جستنيان أعاد تنظيـم الجيـش في مصر البيزنطية، وأنشأ الفرقة المعروفة بفرقة جستنيان الليبية، وعمر أسوار طرابلس عاصمة ليبيا كما عمر مدن وحصون عديدة هناك لتوفير الأمن والسلام لتلك الحـدود، واسـتمر خلفـاؤه في العنايـة بتـأمين هـذه الحـدود في القرنـين السادس والسابع الميلاديين [٧٧].

هذا فيما يتعلق بالحدود الغربيـة، أمـا الحـدود الجنوبيـة فقـد اسـتمر البيزنطيون في الاهتمام بصيانة استحكامات جزيرة فيلة في القرنيين السـادس والسابع الميلاديين نظرا لتعرض هذه الحدود لخطـر النوبيـين بعـد أن انتقـل الحد الجنوبي إلي تلك الجزيرة، إذ حشد البيـزنطيون بـها حاميـة عسـكرية

---

(75) Diehl: op. cit. p. 474

(٧٦) العريني: المرجع السابق ص٢٣٦-٢٣٧

Maspero: op. cit. p.42, p. 60

(77) Diehl: op. cit. p. 473, *Maspero: op. cit. p.24*

ووالـوا صيانـة استحكامات الجزيـرة (٧٨)، فضـلا عـن اسـتكمال سلسـلة التحصينات حتى جزيرة إلفنتين وحشد قوات مرابطة فيها، ولهذا تألف خط الحدود الجنوبية من القلاع والحصـون المتـدة إلي مـا وراء جزيـرة فيلـة(٧٩)، وصار دير سان سيمون المواجه لأسوان الحالية مقراً لحامية عسكرية أيضا.

أما الحدود الشرقية في القرنين السادس والسـابع الميلاديـين فاعتـبرت من أهم الحدود من جهة آسيا، علي الرغم من أنها لم تتعرض للـهجوم قبـل القرن السابع الميلادي، ومع ذلك قدرت بيزنطة أنه لو وقع هجـوم مـن هـذه الجـهة فسوف يكون من أشد الهجمات خطورة، لما قام وراء هذه الحدود مـن ممالك عربية في بلاد الشام فضلا عما أظهرته دولة الفرس الساسانية من عداء ضد بيزنطة ورغبة في الهجوم علي أملاكها في الشرق (٨٠)، والدليل علي ذلـك توغل بعض القوات الفارسية في الدلتـا حتـى بلغـت ضواحـي الإسـكندرية في إحدى الهجمات، فصار لزامـا علـي بيزنطـة حمايـة مـزارع الوجـه البحـري الوفيرة وإغلاق الطرق المؤدية إلي الإسكندرية (٨١).

وفي إطار هذه السياسة جري تحصـين المـدن الواقعـة علـي الحـدود في الشرق مثل القلزم ومدينة العريش والفرما والاهتمام بشبه جزيرة سيناء، لما لها من أهمية في صد هذه الأخطار (٨٢)، ثـم جـري إقامـة خـط قـلاع قويـة علـي الحدود في غرب برزخ السويس، وعلي حافة الدلتا الآهلة بالسكان من الفرمـا

(78) Ostrogorski: op. cit. pp. 87-88
(79) Vasiliev: op. cit. Vol. 1 pp. 228-9

(٨٠) العريني: المرجع السابق ص٢٣٧،

Diehl: op. cit. p. 475

(٨١) العريني: نفس المرجع ص٢٣٧

(٨٢) نعوم شقير: تاريخ سيناء ص٢٨٥

(بلوزيوم) إلي حصن بابليون لحماية الطريق الذي تتخذه عادة القوافل من الشام إلي مصر [٨٣]، وتركزت التحصينات عند الطرف الجنوبي للدلتا لمنع المغيرين من الهبوط إلي الإسكندرية عن طريق الدلتا . كما جري تحصين مدينة العريش التي أقيمت حولها الأسوار الشاهقة والتحصينات القوية التي ظلت بقاياها قائمة حتى القرن الثاني عشر الميلادي، وكذلك مدينة الفرما أو بلوزيوم التي نالت اهتمام بيزنطة، وحظيت بتحصينات قوية في تلك الفترة، ولهذا صمدت لحصار العرب أكثر من شهر قبل انطلاقهم إلي قلب الدلتا [٨٤].

وإكمالا لهذه السياسة العسكرية في القرنين السادس والسابع الميلاديين جري أيضا تحصين المدن الداخلية، لاسيما مدينة الإسكندرية التي تحولت إلي حصن منيع وقلعة عسكرية قوية أحاطت بها قنوات المياه من كل جانب، فجعلت منها جزيرة حصينة، فضلا عما أقيم أمامها من الحصون ذات الخنادق وما شيد حولها من الأسوار الضخمة الشامخة [٨٥]، وما حشد فيها من أدوات الحرب وأسلحة الدفاع، يضاف إلي ذلك اتصال الإسكندرية بحرا بالعالم البيزنطي عن طريق أسطول بحري قوي يستطيع أن ينهض في أي ساعة لمساعدتها إذا تعرضت للخطر [٨٦].

ومن المدن التي نالت عناية البيزنطيين في هذه الفترة مدينةسايس وهليوبوليس ومدينة نقيوس التي أحيطت بأسوار ضخمة وحصون قوية وعدة أبواب أشار إليها المؤرخ ذائع الصيت حنا النقيوسي، مما يؤكد تمتع هذه

---

(83) Br`ehier: op. cit. p. 342
(84) Maspero: op. cit . 40

(٨٥) بتلر: فتح العرب لمصر ص٢٥٨ (مترجم)

(86) Maspero: op. cit. p.37

المدينة بحصانة خاصة واهتمام كبير من البيزنطيين في هذه الفترة، وكذلك نالت مدينة البهنسا ومدينة أنتينوي (أنصنا) مركز ملوي بأسيوط حاليا، اهتماما كبيرا كإحدى المدن الداخلية الهامة، حيث حشدت بيزنطة قوات مرابطة في كل هذه المدن ووالت الدفاع عنها باعتبارها من المواقع المعرضة للأخطار وهجمات الأعداء (٨٧)

وأكدت البرديات المنتمية إلي هذه الفترة اهتمام بيزنطة بوضع حاميات مرابطة في بعض مدن مصر مثل أبوللو نوبوليس (مدينة قوص) وأرسينوي (الفيوم) (٨٨)، وغيرها من المدن الهامة، وبذلت الإمبراطورية جهودا مضنية في بناء الحصون وترميم ما هو قائم منها وإصلاح المواني وتوفير الأسلحة وأدوات الحرب والصرف علي رواتب ومخصصات الجنود المرتزقة والاهتمام بالأسطول(٨٩).

وإذا انتقلنا إلي الحديث عن مكونات الجيش في مصر البيزنطية في هذه الفترة الجديدة، نجد أن جيش مصر البيزنطية لم يتغير تشكيله في هذه الفترة كثيرا عن الفترة السابقة إذ ضم الجيش النظامي الذي يعتبر جنوده من خيرة الجنود وأكثرهم أهمية ويجري تجنيدهم بطريق الإلزام أو التطوع أو الوراثة، كما مر بنا وهي الفئات التي تألف منها الجيش الرئيسي في الدولة البيزنطية(٩٠)، كما ضم أيضا جيش الحدود الذي يتكون جنوده من الفلاحين الذين حصلوا علي إقطاعات زراعية علي الحدود يتعيشون منها ويقيمون فيها

---

(87) Ibid. p. 40
(88) Johnson: Economic Studies, p. 214
(٨٩)حسين مؤنس: دراسة في خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضاري ص١٥٩ (القاهرة ١٩٨٩).
(90) Diehl: op. cit. p. 46

لا يغادرونها (٩١)، ويتدربون علي استخدام السلاح تحت قيادة قادة معينين ويقومون بحراسة الحدود من الهجمات الخارجية وصد المغيرين (٩٢)، وضم أيضا فرق المعاهدين أو المحالفين الذين شكلوا فرقا خاصة ويرجعون عادة إلي أصل متبربر وانحاز إليهم بعض المغامرين من خارج الإمبراطورية أخذت الدولة تنفق عليهم وتقدم لهم الأجور والرواتب نظير قيامهم بالدفاع عن المناطق التي أقاموا فيها ومنع الهجمات الخارجية من هذه المواضع وتولي قيادتهم قادة عينوا من قبل الإمبراطور (٩٣)، يضاف إلي ذلك فئة الجند المأجورين الذين شكلوا جيشا خاصا غدا جزء من جيش مصر البيزنطية في هذه الفترة أيضا (٩٤)، وكانوا فريقين فريق كان ينتمي إلي كبار موظفي الحكومة البيزنطة كالأدواق وقادة الجيش، وفريق كان ينتمي إلي الأشخاص كحرس خصوصيين داخلين في خدمة هؤلاء الأشخاص وعلي الرغم من أن هاتين الفئتين لم يكن لهما صلة أصلا بالجيش، إلا أنه كان يحدث أحيانا أن يقوم سادة هذه الفئات بعرض خدماتهم علي الدولة وتقديمهم لخدمة الدولة عسكريا نظير مبالغ معينة تدفعها الحكومة (٩٥)، وبذلك أضيف هذا الفريق إلي جيش مصر وأسهم في الدفاع عن مصر كجزء من الإمبراطورية البيزنطية.

ومثلما حدث في الفترة السابقة تؤكد الشواهد التاريخية أن الجند أو الجانب الأعظم منهم كانوا مصريين، بعد أن تغيرت سياسة بيزنطة في اتخاذهم من أقاليم أخري غير مصر، فقد أصبح من واجب كل مالك من ملاك

---

(91) Ostrogorski: op. cit. p.90
(92) Camb. Med. Hist. Vol. X11, p. 210
Bell: op. cit. p. 246
(93) Diehl: op. cit. p. 476
(94) Maspero: op. cit. p.51
(95) Ibid. p. 46

الأراضي تقديم عدد من الأفراد للجيش يتفق مع مساحة ما يملكه من أرض وبحسب كبر ثروته [٩٦]. وتجري القرعة العسكرية أو الاقتراع العسكري في مواطن هؤلاء المجندين تحت إشراف موظف حكومي خاص، حيث يحصل كل من تقرر تجنيده على شهادة رسمية تثبت تجنيده ودخوله الخدمة العسكرية، وتتضمن أمرا من الدوق بتسجيل اسم صاحب الشهادة في سجلات الجيش، ومن ثم يتقدم الشخص الحاصل على هذه الشهادة إلي الفرقة التي ألحق بها والتي أصبح ينتمي إليها بهذه الشهادة أو هذا الأمر، فيصبح منذ ذلك الوقت معدودا من جند مصر [٩٧]، ولقد أشارت بردية إلفنتين التي ترجع إلي القرن السادس الميلادي إلي هذه العملية وإلي طريقة تجنيد أبناء مصر وإلحاقهم بالجيش فأكدت هذه البردية أن القوة المرابطة بكل إقليم من أقاليم مصر إنما تنتمي إلي سكان ذلك الإقليم أو علي الأقل الجانب الأكبر منها [٩٨]

وهكذا غدا معظم جند مصر البيزنطية من المصريين سواء أكانوا ملحقين بالجيش النظامي أو داخلين في جيش الأطراف، فكلا الفئتين كان يجند عساكرها من أهل مصر ومن سكان البلاد إما بالتجنيد الإجباري وإما بالتطوع وإما بالإلزام المفروض علي أبناء المقاتلين بأن يخلف الابن أباه في الخدمة الحربية، وهو ما عرف بالوراثة، وعلي هذا تألف معظم جيش مصر البيزنطية من المصريين [٩٩]، ولم يكن به من الجند المتبربرين إلا قلة نادرة، كما لم يكن بمصر من الجند المعاهدين أو المأجورين أو المرتزقة إلا بعض الكتائب التي

---

(٩٦) العريني: المرجع السابق ص٢٣٩

(97) Diehl: op. cit. p. 476
(98) Maspero: op. cit. p.51
(99) Diehl: op. cit. p. 476

تألفت زمن جستنيان من العناصر الأجنبية، والتي أخذت تتناقص كثيرا في هذه الفترة وعلي مدي السنوات من القرنين السادس والسابع الميلاديين [١٠٠].

فإذا انتقلنا إلي الحديث عن عدد الجيش في مصر في هذه الفترة اصطدمنا بروايات متعددة ومبالغات كثيرة، ولا سبيل إلي حسم هذه القضية والبت فيها برأي. وأغلب الروايات تشير إلي أن عدد الجيش في هذه الفترة تراوح بين خمسة وعشرين ألف جندي وثلاثين ألف جندي اعتمادا علي دلائل كثيرة تتعلق بالمواضع التي تحتم الدفاع عنها وحساب الأخطار التي كانت مصر معرضة لها في ذلك الوقت [١٠١]، وكذلك اتساقا مع عدد السكان في مصر البيزنطية، إذ أشار المؤرخون إلي أن هذه المواضع تراوحت ما بين خمس وسبعين موضعا وسبع وثمانين موضعا أو مدينة رابطت في كل موضع منها كتيبة تراوح عدد أفرادها ما بين ثلاثمائة جندي وخمسمائة جندي، فإذا حسبنا متوسط هذه المواقع ومتوسط عدد أفراد من شغلها من الجنود، جاء عدد أفراد جيش مصر حينئذ نحو ثلاثين ألف جندي في المتوسط [١٠٢]، ويشير المؤرخ المحدث ذائع الصيت شارل ديل Diehl إلي هذه النقطة بان جيش مصر البيزنطي قد بلغ نحو ثماني عشرة ألف جندي جري توزيعهم علي المراكز العسكرية في الداخل وفي المدن الهامة وكذلك علي حدود البلاد [١٠٣].

ومهما يكن من أمر فقد انتظم هذا الكم في وحدات عسكرية تولي قيادة كل وحدة منها قائد اشتهر باسم التريبون Tribun، وهي الوحدة المقاتلة في جميع أقسام الجيش من الفرسان والرجالة، وكان التريبون يلي الدوق في

---

(١٠٠) العريني: المرجع السابق ص٢٤٠

(101) Maspero: op. cit. p.78

(١٠٢) مراد كامل: المرجع السابق ص٢١، Maspero: op. Cit. p.115

(103) Diehl: op. cit. p. 243

الأهميـة العسـكرية (١٠٤)، وهـو يقابـل البـاجرك في النظـام الإداري، إلا أن التريبون اختص بقيادة الوحدة العسكرية، وأقام من أجل ذلك عادة في عاصمة المنطقة أي في الباجركية التي تقع فيها أيضا أكبر ثكنة عسكرية للوحدة(١٠٥)، وربما جري إقامتها خارج أسوار المدينة أو في برج من أبـراج أسـوار المدينـة، وكان في كثير من الأحيان يجمع بين السلطتين أو الوظيفتين، علي حين كان الدوق يعتبر القائد الأعلى لكل الكتائب التي يتألف منها جيش إقليمه، وكان يتولي أيضا السلطتين العسكرية والإدارية بإقليمه (١٠٦).

وكان المفروض أن يخضع جيش مصر البيزنطية في هـذه الفـترة لأوامـر القائد الأعلى للجيش البيزنطي في الشرق، إلا أن سـلطة هـذا القـائد أخـذت تتضاءل علي جيوش الأقاليم بما فيها مصـر رويـدا رويـدا حتـى لم تعـد ثمـة علاقة بين جيش مصر وقادة الجيوش في الشرق، حتى أنه لم يحدث أن أتي القائد العام للجيوش بالشرق إلي مصر مطلقا، كما لم تخرج القوات المصرية من مصر إطلاقا (١٠٧).

والسؤال الذي يفرض نفسه إذن: هل كـان "قـوات المرابطـة بمصـر في هذه الفترة قائد عام يأتي مركزه وسطا بين القائد العام في الشرق وبين الأدواق في مصر؟ الواقع أنه لم يكن هناك ثمة قائد مـن هـذا القبيـل يمكـن أن يكـون أعلي مكانة من الدوق وأقل مكانة من القائد العام في الشرق (١٠٨)، بمـا يعـني أن كل دوق من أدواق مصر، كانت له القيادة العامة علي الجيش في إقليمه،

(104) Arnold; op. cit. pp. 30-31
(105) Maspero: op. cit. p. 72
(106) Bury: op. cit. Vol. 1, pp. 338-9
Vasliev: op. cit. Vol. 1, p. 160
(107) Maspero: op. cit. p. 79
(١٠٨) العريني: المرجع السابق ص٢٤١

حتى أن الدوق الكبير أو الأوجستال بالإسكندرية لم تكن له أيضا سلطة عامة علي سائر الأدواق، بل اقتصرت سلطته العسكرية علي الإشراف علي جند الإسكندرية (١٠٩)، بقسميها الذين تتألف منهما دوقيته، علي الرغم من انه كان يعتبر أهم الأدواق في مصر نظرا لأهمية دوقيته وأهمية الإقليم الذي يحكمه دون أن تكون له الرئاسة علي غيره من الأدواق من الناحية الرسمية.

وعلي هذا كانت الجيوش في مصر البيزنطية تخضع لقيادة خمسة أدواق متساوين في المكانة دون أن تكون لأحدهم سلطة علي الباقين، أي أن الدوق كان هو القائد الأعلى للكتائب المرابطة في إقليمه (١١٠)، ويلي الدوق في المكانة العسكرية التريبون- كما سبق أن أشرنا- الذي يماثل الباجرك في النظام الإداري، والذي كان يختار بواسطة الدوق لقيادة الوحدة وهو الذي يعزله أيضا (١١١). وكان يختاره من بين السكان الوطنيين ومن أعيان المدينة التي يباشر فيها عمله، وكان كبار الملاك يرحبون بتولي هذه الوظيفة لأنها تزيد في سلطاتهم، لأن التريبون كان مستقلا لا يخضع إلا للدوق مباشرة (١١٢).

أما عن رواتب الجند في جيش مصر في هذه الفترة، فقد كان الجندي يتقاضي نوعين من الرواتب راتب نقدي وراتب عيني، أو ما كان يعرف بالجراية أو المؤونة (١١٣)، وتتولي الحكومة مده بالسلاح والكسوة، وجرت الإشارة إلي أنه جري تخصيص جانب من خراج مصر لمؤونة الجيش، إذ

---

(109) Maspero: op. cit. p.79
(110) Clary: Etude sur l'arm`ee et l'Administration, p.187
(١١١) بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتي الفتح العربي ص٩١ (مترجم)
(112) Diehl: op. cit. p. 477
(113) Van Berchem: L'Arm`ee de Diocletien et la reforme constantiniemme, p.129 (Paris 1952)

تكفلت كل منطقة حربية بتموين الجند المرابطين بها [١١٤]، فكان يجبي جانب من القمح برسم الميرة العسكرية- كما مر بنا- وغدا يصرف للجندي جراية شملت القمح والشعير والنبيذ والخل والزيت والتبن للدواب والخيل واللحم والدجاج والسمك المملح، فضلا عما يلزمه من الحبال والسروج والفحم النباتي. بالإضافة إلي ما كان يسلم له أحيانا من ماشية وبغال [١١٥]، كل هذا مضافا إليه ما كان يتقاضاه من الأموال التي كان يصرفها له صاحب الخزانة أو الصراف التابع للحكومة المركزية [١١٦]،ويبدو أن هذه الالتزامات المالية أرهقت خزائن الإمبراطورية، حتى أصبحت مواردها في أوائل القرن السابع الميلادي لا تكفي تغطية هذه الالتزامات، ولهذا لم تتردد في تخفيض الإنفاق علي الجيش البيزنطي في مصر وضغط كثير من مخصصاته [١١٧].

ولم يكن جيش مصر البيزنطية إلا جيشا إقليميا مهمته الدفاع عن الجهات التي رابط بها والمحافظة علي الأمن في تلك الجهات، فإذا استقر الجند بقسم من أقسام القطر المصري أو إقليم من أقاليمها فلا يبرحونه إلي جهة أخري، وأحيانا كانت بعض الفصائل أو السرايا الحربية تتخذ مواطن دائمة أو مؤقتة في بعض الجهات لحماية مركز أو موقع له أهمية خاصة، أو

---

(114) Jones: The Deline of the Ancient world, p.219
Johnson: Economic Studies, p.225

العريني: المرجع السابق ص٢٤٢

(115) Bury: op. cit. Vol. 2, pp. 351-2
(116) Oman: A Hist. Of the Art of War in the Middle Ages, Vol.2, p.4 (London 1924)

(١١٧) ورث: الإمبراطورية الرومانية ص٥١ (مترجم القاهرة ١٩٦١)

ترابط في بعض الكفور التابعة لقرية من القري المعرضة لخطر من الأخطار أو ترابط في دير قريب من القرية لغرض أو لآخر، علي حين تطلب الأمر وجود فرق مرابطة علي الحدود وفي القلاع بالأطراف، اتخذت شكل قطاعات خضع كل قطاع منها لسلطة قائد، وظل هذا النظام معروفا في مصر طوال القرنين السادس والسابع الميلاديين (١١٨).

ويذكر المؤرخون أن قوات مصر البيزنطية رابطت في مواضع حربية معينة، لم تكن تقل عن أربع وثمانين موضعا أو مدينة فضلا عن الإسكندرية التي رابطت فيها ثلاث كتائب (١١٩)، فإذا أضفنا لها مدن ليبيا صار مجموع هذه المواضع سبع وثمانين موضعا- كما سبق أن أشرنا- وكان كل موضع من هذه المواضع ترابط فيه كتيبة واحدة غير أنه حدث في كثير من الأحيان أن اجتمع جنود موضعين معا تحت قيادة تريبون واحد، وربما كان ذلك بسبب قلة العدد فترتب علي ذلك أن أصبح بمصر نحو خمس وسبعين كتيبة عاملة، جري توزيعها توزيعا مناسبا يتلاءم مع الحاجة إلي هذه الكتائب (١٢٠).

وقد يبدو هذا النظام من الناحية النظرية نظاما محكما متكاملا يخلوا من العيوب، بدت في ظله حدود مصر بالغة المناعة وتحصيناتها بالغة القوة والمتانة، حشد فيها الجنود بأعداد وفيرة، وجري توزيعهم توزيعا طيبا بحسب الحاجة إليهم (١٢١). غير أن الحقيقة غير ذلك بكثير، إذ يؤكد

(118) Maspero: op. cit. p. 103
(119) Bell: op. cit. p. 130
Zenon papyri: no 48450, trans. Edgar, p.161 (Le Caire 19[illegible]); "Des antiquites egyptinnes du musee du Caire, trans. Edgar,3 Vol. (Caire 1925-8)
(120) Maspero: op. Cit. p.115

(١٢١) العريني: المرجع السابق ص٢٤٣

المؤرخون أن هذا النظام لم يكن هو النظام الأمثل، ولم يكن يضمن الحد المعقول من كفالة الأمن والطمأنينة لمصر في ذلك العصر، بل ظهرت عدم كفايته وكثرة عيوبه (١٢٢)، فلم يكن جيش مصر البيزنطية في هذه الفترة أكثر من جيش إقليمي جري تجنيد أفراده من سكان البلاد، وتولي قيادته أفراد من نفس سكان الإقليم في أغلب الأحيان لم يغادروا موطنهم إطلاقا، ولم يكن لهم دراية كبيرة بفنون الحرب والقتال (١٢٣)، ولم يحظ هذا الجيش بالروح العسكرية الحقيقية كثيرا، ولم تكن له من صفات العسكرية إلا القليل، حتى إنه بمرور الوقت أغفل جنوده التدريب العسكري وأهملوا النظم الحربية، واتخذ كثيرا منهم لأنفسهم مهنا مدنية وأعمالا أخري إلي جانب مهنة الحرب(١٢٤)، فصاروا يستثمرون الأموال في شراء الأراضي والعقارات، وبعدوا كثيرا عن ممارسة الحرب والحياة العسكرية الصارمة، ونظرا لأن أغلبهم كان من المصريين، فقد شاركوا مواطنيهم ما يشعرون به من آلام وما يعانون من مشاكل، واشتركوا معهم في كراهية اليونانيين وكل ما يمت للعنصر البيزنطي حتى أصبح إخلاصهم للدولة البيزنطية موضع شك كبير، وجعل حماستهم للقتال لصالحها أو في جانبها أمرا غير مضمون (١٢٥).

ومن عيوب هذا الجيش أيضا أن أفراده لم يزيدوا كثيرا عن كونهم قوة للشرطة اختصت بحفظ الأمن ومساعدة ولاة الخراج وموظفي المالية في جباية الضرائب (١٢٦)، إذ كانت مهمة الأدواق الذين تولوا قيادة هذا الجيش جباية

(122) Diehl: op. cit. p.477
(123) Aussaresses: op. cit. p.105

(١٢٤) مراد كامل: المرجع السابق ص٢١

(125) Aussaresses: op. cit. p.105
(126) Rouillard : l'Administration civile de l'Egypte Byzantin p.38 (Paris 1928)

الضرائب وجمع القمح وإرساله إلي العاصمة بالدرجة الأولي، فلم يتفرغوا للقتال أو يحفلوا بما يتطلبه الجيش من تدريب، وكذلك كان قادة الوحدات أو التريبونات الذين كانوا ينبضون أيضا لمساعدة الموظفين الماليين، أو لفض المنازعات التي كانت تثور أحيانا بين أهالي القري بعضهم والبعض الآخر(١٢٧).

ومن عيوب هذا الجيش أيضا أنه لم يكن يخضع لقيادة موحدة- كما مر بنا- فكل دوق يتولي قيادة الجند المرابطين بدوقيته، وعليه أن يقاتل وحده إذا لزم الأمر نظرا، لأنه لم تكن له من الصلاحيات ما يجعله يطلب المساعدة من أقرانه الآخرين (١٢٨)، يضاف إلي ذلك أن معظم الأدواق لم يكونوا من رجال الحرب إذ تحولوا في ظل الأمان والسلام وعدم تعرض مصر كثيرا للأخطار إلي رؤساء دواوين، فضلا عن أن المنازعات الشخصية قد استشرت بينهم، وانعدمت روح الولاء العام للدولة وتقدير الصالح العام للبلاد (١٢٩).

ومن العيوب الكبيرة أيضا لهذا النظام الحربي في مصر البيزنطية في تلك الفترة أن الجند المرابطين بمصر لم يغادروها مطلقا- كما سبق أن أشرنا- أو يشاركوا في حروب حقيقية في خارج البلاد أو لصالح الإمبراطورية في أي مكان لاكتساب الخبرة الحربية والتمرس علي القتال، وذلك عكس ما جري في القرن الرابع الميلادي، حين كانت بعض الفرق العسكرية تنتقل من مواضعها إلي جهات أخري في إفريقيا أو في أسيا أو حتى سورية (١٣٠)، وكل ما قامت به الجيوش البيزنطية في مصر من حرب وفي القرن السادس الميلادي

---

(127) "New classical frogments and other greek and latin papyri," trans. By Grenfell and other, Oxford 1897. Oxy. N.1155. p.153(London 1953)

(128) Maspero: op. cit. p.121

(129) Diehl: op. cit. p.477, p.535

(130) Bury: op. cit.1, pp. 34-5

لم يتجاوز قتال النوبيين وبعض قبائل البدو الضارية علي الحدود وفي الصحاري المحيطة، الذين كانوا يهبطون أحيانا إلي فيلة ليثيروا الشغب في بعض جهات مصر العليا، أو في الجانب الغربي للبلاد عبر الحدود بين مصر وليبيا (١٣١)، وما عدا ذلك لم يتمرس الجنود علي قتال حقيقي مع جيوش منظمة أو مدربة.

والدليل علي فساد هذه النظم الحربية في تلك الفترة ما كان يحدث من ثورات محلية وداخلية عجز الجيش في كثير من الأحيان عن قمعها، رغم ضآلتها وقلة إمكانات القائمين بها، بل إن هذا الجيش عجز أحيانا عن القضاء علي بعض قطاع الطرق الذين روعوا الآمنين وأثاروا الشغب في بعض المناطق (١٣٢)، الأمر الذي دفع الحكومة المركزية في بعض الأحيان إلي المبادرة بإرسال قوات إمبراطورية لتعيد الأمور إلي نصابها (١٣٣)، فقد كان جيش مصر كثير العدد فعلا، لكنه كان سيئ القيادة قليل التنظيم والتدريب مع تطاحن القادة وتفرق كلمة رجاله، فضلا عما اتصف به الجميع من عدم الإخلاص والولاء للحكومة المركزية (١٣٤)، فإذا أضفنا إلي ذلك كله الخلافات الدينية والمذهبية وكذلك الانقسامات السياسية، أدركنا عيوب هذا الجيش وقلة كفايته في تلك الفترة من تاريخ مصر البيزنطية (١٣٥)، أضف إلي ذلك قيام الحكومة المركزية بتخفيض مخصصات الجند بداية من أوائل القرن السابع الميلادي حينما أثقلت الالتزامات الخاصة بهذا الجيش خزائن الحكومة،

---

(131) Maspero: op. cit. p.129
(132) Ibid. p.130

(١٣٣) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٠

(134) Aussaresses: op. cit. p.105
(135) Ostrogorski: op. cit. p.28

الأمر الذي أضعف كثيرا هذا الجيش وساعد علي تحقيق العرب انتصاراتهم في مصر سنة ٦٤١م [١٣٦].

(136) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 158

الفصل السادس

تنظيمات جستنيان في مصر البيزنطية

الفصل السادس

تنظيمات جستنيان في مصر البيزنطية

المطالع لتاريخ مصر البيزنطية منذ القرن الخامس الميلادي، يستطيع أن يلحظ في يسر وسهولة أن ثمة فساد للنظم الإدارية والمالية والاقتصادية قد بدأ يستشري في البلاد، حتي أن إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس في مجال الإدارة والمال بصفة خاصة قد أصابها كثير من التغيير، وفقدت كثيرا من فاعليتها ولم يعد قائما ما أراده هذا الإمبراطور من فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية [١]، لأنه تحت ضغط الأحوال السيئة لجأ المسئولون في مصر البيزنطية إلي جمع السلطتين في يد الوالي [٢]، في الوقت الذي ساءت فيه الإدارة، واضطربت الشئون المالية والاقتصادية وفسد القضاء والشئون القضائية وتفجرت النزاعات الدينية والفتن المذهبية في أوائل القرن السادس الميلادي، الأمر الذي تطلب إصلاحات جديدة لكل هذه الشئون المضطربة [٣].

ففي الميدان الإداري عانت مصر كثيرا من فساد الإدارة وانحراف الموظفين الإداريين، ولم يجد نفعا ما لجأ إليه بعض الأباطرة من فرض العقوبات علي الموظفين الإداريين الذين أمعنوا في ظلم السكان، كما فشلت تدابير الحكومة المركزية في إصلاح أحوال نواب البلديات وتقويم اعوجاجهم [٤]، كما أسهم في ضعف سلطة الحكومة في مصر وزعزعة سياسة الإمبراطورية ما حدث من انهيار وتلاشي طبقة أعضاء البلدية بمرور الوقت،

---

(1) Bury: op. cit. Vol. 1, p. 27, Vol. 2, p. 338

(٢) العريني: المرجع السابق ص١٤٤

(3) Rouillard: op. cit. p. 4
Diehl: op. cit. p. 454

(4) Rouillard: op. cit. p. 6

وهم الذين تتألف منهم الطبقة الأرستقراطية في المدن، وهي الطبقة التي كانت تعتمد عليها الحكومة في تنفيذ سياستها في مصر (٥).

وفي النواحي المالية والاقتصادية عانت مصر أيضا فسادا، فاضطربت إدارتها المالية، ودفع السكان ثمن هذا الفساد، ولم ينجح مصلحو القرن الرابع الميلادي في إصلاح نظام الضرائب وطرق جبايتها فتحمل دافعوا الضرائب فوق طاقتهم، في الوقت الذي لجأ فيه دافعوا الضرائب أنفسهم إلي وسائل متعددة للتخلص من دفع الضرائب وتأدية ما كان مقررا عليهم من التزامات، كما لجأوا إلي الغش والخداع ليفلتوا من عمال الخراج (٦)، فإذا كانوا من الملاك بادروا بالتخلي عن أراضيهم حتى لا يدفعوا ما تقرر عليها من ضرائب جائرة، وإذا كانوا من المستأجرين لجأوا إلي المماطلة في الدفع، أو إلي هجر أراضيهم أيضا، حتى خربت الحقول وأقفرت المزارع وهجرها أصحابها إلي الأديرة أو إلي الانخراط في الخدمة العسكرية أو الهيام في الصحاري والقفار، علي حين استفاد جباة الضرائب، فلم يرسلوا إلي القسطنطينية من الضرائب التي يحصلونها إلا النذر اليسير(٧).

وأسهم في فساد النواحي المالية والاقتصادية أيضا انهيار الطبقة الأرستقراطية التي كانت تعتمد عليها الحكومة في تنفيذ سياستها في مصر وكذلك الطبقة الوسطي، التي كانت تعد الدعامة الأساسية للحكومة البيزنطية وحضارتها في مصر، بعد أن حل محلها عنصر وطني يتمثل في المصريين الذين

---

(5) Diehl: op. cit. p.455,

العريني: نفس المرجع ص١٤٦

(6) Ostrogorski: op. cit. p. 38, pp. 244-5

(٧) فشر: تاريخ أوروبا في العصور ق١، ص٥٣، بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص٥٠

اشتهروا بحماستهم الوطنية وكراهيتهم الشديدة لكل ما هو يوناني بيزنطي(٨)، بفضل ما وهبته لهم عقيدتهم المسيحية من الثقة والقوة، حتى لم يعد الإمبراطور يعتمد في توطيد سلطته في مصر إلا علي طبقة اليونانيين بالإسكندرية، وعلي موظفي الإدارة الأجانب والجند النظاميين(٩).

كما أسهم في ضعف سلطة الإمبراطور في مصر أيضا، وفساد الأحوال المالية والاقتصادية ما حدث من نمو الملكيات الكبيرة، وظهور طبقة أرستقراطية شبه إقطاعية اشتهرت بالثروة والجاه والقدرة علي مناهضة الجهاز الإداري والموظفين (١٠)، وما ترتب علي ذلك من نشأة ما عرف بنظام الحماية- الذي أشرنا إليه فيما سبق- والذي يقضي بأن يبسط كبار الملاك حمايتهم علي من يلجأ إليهم من المتذمرين من عسف جباه الضرائب وشدتهم ومن فداحة الأعباء الملقاة علي عاتقهم، سواء أكان هؤلاء الساخطين من الفلاحين أو من صغار الملاك(١١)، وزاد أيضا في مكانة كبار الملاك أنهم تولوا أحيانا الوظائف العامة، وجري انتخابهم في المجالس البلدية، فأضحي لهم نفوذ كبير في الشئون المالية والإدارية، مما أضعف من سلطة الحكومة المركزية في مصر، واقتصر الأمر حينئذ علي وجود طبقتين: طبقة أرستقراطية إقطاعية وطبقة فقيرة من المسترقين، وتلاشت الطبقة الوسطي واختل البناء الاجتماعي في مصر في تلك الفترة(١٢).

---

(8) Diehl: op. cit. p. 255
(9) Ibid. p. 255
(10) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 159
(11) Diehl: op. cit. p. 466
(12) Rouillard: op. cit. p.12
Diehl: op. cit. p.456

أما في الشئون القضائية فقد عـانت مصر أيضـا فساد القضاء في تلك الفترة، فعلـي الرغم من جعـل السـلطات القضائيـة في أيـدي موظفـين إداريين،فإن العدالة لم تتحقق لكل سكان القطر المصـري، إذ اشـتهر القضـاة بـالانحراف والفسـاد وقبـول الرشـوة، ولم تمتـد سـلطة القوانـين إلي الأقويـاء والأغنياء مما أوقع البلاد في قضاء فاسد بغيض[١٣]. والقضــاء هـو عنـوان رقـي الأمم ونجاح القضاء وسريان العدالة دليل العظمة والقوة لأي أمة، لأنـه ليـس أقسى علي النفس من الشعور بالظلم وقصور يد العدالة،وعدم إحساس المواطن بقوة القانون ونزاهة القضاء وعدالة القضاة وضمان الحقوق، ولهذا فقد أضيـف فساد القضاء في تلك الفترة إلي ما عانته مصر البيزنطية مـن اضطـراب في كـل شئونها الإدارية والمالية والاقتصادية وكذلك في الشئون الدينية.

أما فيما يختص بالشئون الدينية في تلـك الفـترة، فقد اشـتدت أيضـا المنازعات الدينية والخلافات المذهبية، وجنح مفجرو هذه الخلافات الدينيـة إلي إثارة الفوضى وأحداث الفـتن والقلاقـل، فأضـافت هـذه إلي الاضطرابـات الأخـرى، وأسـهمت في إظـهار النزعـة الانفصاليـة منـذ القـرن الخـامس الميلادي[١٤]، وترتب علي تلـك الخصومـات الدينيـة والفـتن المذهبيـة انـدلاع المظاهرات الشعبية وحدوث المصادمات الخطيرة بين الناس، الأمر الذي سبب متـاعب جديـدة لـولاة مصـر، خاصـة حـين اندلعـت الفتنـة حـول المونوفيزيتية،وظهر التعصب الديني حول هذه النحلة [١٥]، حتى لم يجد نفعا ما اتخذته الحكومة من التدابير وما بذلته من جهد لقمع هذه الثورات الدينية

---

(13) Rouillard: op. cit. p.4
(14) Chadwick: op. cit. p. 205
(15) Ostrogorski: op. cit. p. 62, p. 71

التي فجرها المصريون وأهل الإسكندرية بالذات لما اشتهر به أهل هذه المدينة من العناد والصلابة في كل ما يتعلق بالشئون الدينية و لمذهبية [١٦].

والمعروف أن أهل مصر تعصبوا كثيرا للمونوفيزيتية، مذهب الطبيعة الواحدة، وغدا لهم قوة كبيرة في مواجهة الإمبراطورية، التي أخذت بمذهب الطبيعتين. أو المذهب الأرثوذكسي أو ما عرف بالمذهب الملكاني، وهو المذهب الرسمي للدولة [١٧]. فأبدي المصريون إصرارا شديدا علي الدفاع عن مذهبهم ومقاومة عنيفة أمام رغبة بيزنطة في فرض الأرثوذكسية عليهم، وساعد المصريون علي مواصلة عنادهم وأثار حميتهم ما اشتهروا به من الصلابة في الشئون الدينية والإخلاص الشديد لما يؤمنون به [١٨]، كما أظهر الرهبان المتفردون أو رهبان الصحراء حماسة شديدة وتعصبا كبيرا للمنوفيزيتية وتأييدا لرجال كنيسة الإسكندرية.

وحين تجرأت بيزنطة عقب مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١م وأعفت بطريرق الإسكندرية ذائع الصيت "ديوسقروس" المونوفيزيتي، وعينت بطريرقا جديدا علي المذهب الرسمي للدولة أو المذهب الخلقدوني، تفجرت الثورة في مصر [١٩]. وأندلع الشجار وانتهت الثورة بمقتل البطريرق الجديد الذي نصبه الإمبراطور البيزنطي، وجري انتخاب بطريرق مونوفيزيتي سنة ٥١٨م يدعي "تيموتيوس Timotheus" فازدهرت المونوفيزيتية علي يديه، لأن الخلقدونيين لم يكونوا في مصر إلا أقلية ضئيلة، ولما توفي تيموتيوس هذا سنة ٥٣٦م اندلعت الاضطرابات في مصر من جديد وعاشت البلاد فترة من القلاقل

(16) Hardy: Christian Egypt, p. 119
(17) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p.105
(18) Chadwick: op. cit. p. 206
(19) Ostrogorski: op. cit. p. 71

والفتن(٢٠)، خاصة وقد حدثت انقسامات وخلافات في جوف المونوفيزيتية ذاتها، وظهرت نحل عديدة تفرعت منها،فغدت الحاجة ماسة لتدخل الدولة، لاسيما وأن الجالس علي عرش بيزنطة في ذلك الوقت كان الإمبراطور جستنيان، بما عرف عنه من رغبة في إصلاح شئون الإمبراطورية بكل أقاليمها في الوقت الذي أظهرت فيه زوجته الإمبراطورة ثيودورا حماسة كبيرة للمونوفيزيتية وشملت أتباع هذا المذهب بحمايتها وتأييدها (٢١).

بدأ جستنيان إصلاحاته الدينية في مصر حين أدرك ضرورة التدخل لوقف تدهور الأحوال فيها ووضع حد للخلافات المذهبية التي فجرت تلك القلاقل والفتن، فبادر عقب وفاة تيموتيوس بتعيين بطريرق خلقدوني المذهب، أو المذهب الرسمي للدولة محاولا حسم الأمور في مصر، ووضع حد لتلك الفوضى في الشئون الدينية (٢٢)، غير أن الإمبراطورة ثيودورا تدخلت بنفوذها لانتخاب بطريرق مونوفيزيتي، فجري اختيار ثيودسيوس الذي عرف بأنه كان معتدلا في محاولة لإقرار الأمور في الإسكندرية وتهدئة الناس فيها(٢٣).

وعلي الرغم مما عرف عن ثيودسيوس من الاعتدال وعدم التعصب، فإنه تعرض لكثير من سخط أهل الإسكندرية ورهبان مصر وكراهيتهم، فضلا عما أظهره كبار الملاك والجند وأرباب الحرف من كراهية لهذا الرجل، ليس لخلاف مذهبي وإنما باعتباره من صنائع الحكومة البيزنطية، ويتمتع بعطف الإمبراطورة ثيودورا، فتقرر طرده من كرسيه الديني بعد يومين فقط من

(20) Diehl: op. cit. p.456, Bury: op. cit. Vol.2, pp.384-5
(21) Rouillard: op. cit. p.17, Vasiliev: op. cit.1, pp.151-2
(22) Chadwick: op. cit. p.209
(23) Diehl: op. cit. p.457

انتخابه (٢٤)، وجري انتخاب بطريرق جديد هو "جائينوس" الذي لم يعمر هو الآخر في منصبه سوي عدة أشهر، لأن الإمبراطورة ثيودورا عادت فأرسلت مندوبها القائد ذائع الصيت نارسيس إلي الإسكندرية ليعيد البطريرق المونوفيزيتي المعتدل ثيودسيوس إلي كرسي البطريرقية (٢٥).

وعلي عادتهم لم يقبل أهل الإسكندرية تدخل الإمبراطورة في شئونهم الدينية، لهذا اندلعت الثورة في المدينة من جديد، وجرت معارك عنيفة بين جنود الحكومة والأهالي، وأريقت فيها كثير من الدماء، الأمر الذي دفع القائد نارسيس إليَ إظهار الشدة والقسوة في قمع الثورة، فأشعل الحرائق في بعض أحياء الإسكندرية وقتل كثيرا من أهلها وقبض علي عدد آخر منهم ليقضي علي الثورة ويعيد الأمن والهدوء إلي البلاد (٢٦)، ونجح نارسيس في ذلك فعلا، فأنزل الهزيمة بأهل الإسكندرية وقضي علي مقاومتهم وألجأهم- كما يقول المؤرخون- إلي اتباع أسلوب الثورة الصامتة ضد السلطة وأسلوب المقاطعة، فلم يعد يرتاد الكنائس سوي الموظفون الإمبراطوريون، وران علي البلاد كثير من الجمود في الشئون الدينية (٢٧)، الأمر الذي دفع البطريرق ثيودسيوس إلي الهرب من الإسكندرية سرا، وفي نفس الوقت عدل جستنيان عن سياسة اللين والتسامح مع المونوفيزيتيين، وأصر علي تحقيق الوحدة الدينية في سائر أنحاء الإمبراطورية.

---

(24) Bury: op. cit. Vol. 2 p.380

عاش ثيودسيوس بعد ذلك في القسطنطينية متمتعا بعطف ثيودورا، وتوفي بعد وفاة جستنيان مباشرة أي في نفس العام سنة ٥٦٥م انظر:

Bury : op. cit. V.2,N.1, p. 319

(25) Rouillard: op. cit. p.18

(26) Diehl: op. cit. p.458

(٢٧) العريني: المرجع السابق ص١٥١

فجري اختيار "بولس" بطريرقا علي الإسكندرية سنة ٥٣٧م [٢٨]، وكان مقدما لأحد الأديرة في مصر كما كان علي دراية تامة بما كان يجري في مصر من منازعات دينية، فضلا عن أنه زود بسلطات استثنائية وصلاحيات واسعة ليتخذ من الإجراءات ما يمنع حدوث أية اضطرابات أو ثورات في مصر، فأصبح من حقه تعيين رجال الدين، ومن حقه أيضا عزلهم من مناصبهم [٢٩]، غير أن هذا الرجل جري اختياره في هذا الكرسي الديني الكبير أثناء وجوده في القسطنطينية في مهمة، ولهذا عاد إلي الإسكندرية بعد تعيينه في هذه الوظيفة الهامة.

ومن الطبيعي أن يستقبل أهل الإسكندرية هذا البطريرق استقبالا سيئا باعتباره هو الآخر من صنائع الحكومة ومن رجال العاصمة، وباعتباره أيضا دخيلا علي الإسكندرية مرتدا عن المذهب المونوفيزيتي [٣٠]، غير أن هذا الرجل كانت له من القوة والسلطة ما يكفل له الاحتفاظ بمركزه، لذا لم يتردد في استخدام القوة ضد السكان، ففرض عليهم حكم الإرهاب، بل تمادي في ذلك، فأمر بإغلاق الكنائس المونوفيزيتية، وقرب إليه الخلقدونيين [٣١]، ولم يستطع الشعب السكندري في هذه الظروف القيام بالثورة أو إعلان النضال في هذه المرة، وإنما اكتفي بإظهار الحزن العميق والثورة الصامتة، الأمر الذي جعل الإمبراطور جستنيان يفخر بأنه أرغم السكندريين علي الإخلاد

---

(28) Bury: op. cit. Vol. 2, p.380
(29) Rouillard: op. cit. p.20
(30) Diehl: op.cit. p.459

(٣١) العريني: نفسه ص١٥٢

للسكينة، وفرض عليهم احترام الأرثوذكسية، مذهب الدولة الرسمي من خلال هذه الأحداث [٣٢].

أدي نجاح جستنيان في إصلاح الشئون الدينية في مصر إلي تفكيره جديا في إصلاح الإدارة وعلاج القصور الذي ظهر في النظم الإدارية، ويذكر المؤرخون أن هذه الرغبة كانت وراء إصدار جستنيان للقانون رقم ١٣، الذي أمل من إصدارة إعادة تنظيم الإدارة في مصر، وتلافي القصور في النظم الإدارية فيها. وجري إصدار هذا القانون سنة ٥٣٨/٥٣٩م لمواكبة الإصلاح في سائر أنحاء الإمبراطورية بجعل السلطتين المدنية والعسكرية في يد شخص واحد، وإلغاء وظيفة الحاكم العام في سائر الأقاليم [٣٣].

ومن الأسباب التي أدت إلي إصدار هذا القانون أيضا ما حدث من اشتداد كراهية الناس للإدارة في مصر، وانتشار الرشوة واستشراء الفساد وعجز السلطات عن وقف تدهور الأحوال وفشلها في منع تفاقم الأزمة الاقتصادية وارتفاع الأسعار وزيادة ضعف الحكومة وانتشار السخط بين الناس وكراهيتهم للسلطة المركزية. وما ترتب علي ذلك من صعوبة تحصيل الضرائب وجمع القمح وانتظام حمله علي السفن إلي العاصمة [٣٤]، ولهذا كان لابد من إجراء هذا الإصلاح لإقرار الأوضاع وإعادة الهيبة للحكومة في مصر.

وبعبارة أخري كان الهدف من إصدار جستنيان للقانون رقم ١٣ لسنة ٥٣٨/٥٣٩م هو التخلص من الفساد الإداري، وإقرار الأمن وإعادة الوحدة إلي البلاد، إكساب الإدارة في مصر ما كانت تفتقده من التوافق بسبب الفوضى

---

(32) Diehl: op. cit. p.459
(33) Bury: op. cit. Vol. 2, p.339
(34) Diehl: op. cit. p. 459

التي تراكمت منذ القرن الثالث الميلادي[٣٥]، حتى غدا هذا المرسوم أكبر محاولة لبسط سلطان الإمبراطور علي الولاة من ناحية، والرعية من ناحية أخري. وهي محاولة لم يقم بها أحد من الأباطرة منذ القرن الثالث الميلادي.

أي أن التنظيمات الإدارية كانت جوهر الإصلاحات التي قام بها جستنيان في مصر البيزنطية، هدف من ورائها تحسين الأوضاع الداخلية في مصر. فقد حرص علي زيادة سلطة الموظفين بتحديد طبيعة ومدي هذه السلطة، فجعل النائب الإمبراطوري في مصر مجرد حاكم علي وحدته الإدارية، وفي نفس الوقت جعل الحكام الإداريين علي بقية الوحدات الأصغر في مصر خاضعين لوالي الشرق [٣٦]، يرجعون في تصريف الأمور إلي والي الشرق مباشرة، لا إلي نائب الإمبراطور، ولذا جري توجيه المرسوم رقم ١٣ إلي والي الشرق لا إلي نائب الإمبراطور في مصر، فأضحي القطر المصري بذلك مجموعة وحدات إدارية لكل منها إدارة خاصة [٣٧]،وإن تميز الوالي في الإسكندرية بمكانة ملحوظة بين حكام الإدارات بحكم أن الإسكندرية التي اتخذها مقرا له لازالت تعتبر أكبر مدينة في مصر، وبها يجمع القمح من جميع أنحاء القطر. ويتولي الوالي الكبير بها أو الدوق الكبير الإشراف علي نقله بحرا إلي القسطنطينية [٣٨]، ومن ثم قسم جستنيان مصر إلي خمس دوقيات أو أقسام إدارية. وهذه بدورها انقسمت إلي أقسام ثانوية وحدد واجبات الموظفين

---

(35) Rouillard: op. cit. p. 25

(٣٦) مراد كامل: *المرجع السابق* ص١٨-١٩

(37) Bury: op. cit. Vol. 2, p. 338-9
(38) Vasiliev: op. cit. Vol. 1, p. 160

المسئولين لدي الحكومة عن الإدارات الخاصة بهم [٣٩]، وهذه الأقسام الإدارية هي:

– دوقية مصر وتشمل الجزء الواقع غرب الدلتا بما فيه مدينة الإسكندرية، وكان يشمل أبروشيتين أو قسمين علي رأسهما مدينة الإسكندرية، فأبقي جستنيان علي هذا التقسيم وعين عليه دوقا عهد إليه بالسلطتين المدنية والعسكرية، فصار يؤدي الأعمال المدنية وتخضع له قيادة جميع القوات المرابطة بالأبروشيتين، فضلا عن الإسكندرية، واتخذ هذا الدوق لقب نائب قائد جند الشرق [٤٠]، وصار من مهامه المبادرة بقمع الثورات، وحفظ الأمن بمدينة الإسكندرية، وصارت سلطته بالغة القوة، إذ جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية.

– شرق الدلتا وشملت الجزء الشرقي للدلتا، وضم أيضا أبروشيتين وتولي أمره والي جمع أيضا في يده السلطتين المدنية والعسكرية [٤١].

– أركاديا وتمتد علي الشاطئ الأيسر للنيل ابتداء من رأس الدلتا حتى مدينة الشيخ فضل الحالية، ولم تنقسم أركاديا إلي أبروشيتين ولكنها اشتهرت بوفرة مزروعاتها وخصب تربتها، وجمع حاكم أركاديا أيضا بين السلطتين المدنية والعسكرية، وكانت عاصمة هذا القسم مدينة أرسينوي (الفيوم الحالية)[٤٢].

---

(39) Diehl: op. cit. p.462
(40) Rouillard: op. cit. p.30
(41) Maspero: op. cit. p.29
(42) Bury: op. cit. Vol. 2, p.343

– طيبة واشتملت علي الجزء الجنوبي من القطر المصري حتى جزيرة فيلة. واعتبرت إقليم أطراف بحكم مجاورتها للأقاليم الصحراوية التي تعرضت للغارات من قطاع الطرق واللصوص، وانقسمت طيبة إلي أبروشيتين، وخضعت لسلطة والي يجمع في يده أيضا السلطتين المدنية والعسكرية (٤٣).

– ليبيا وكان هذا القسم قد جري إضافته إلي مصر منذ عهد الإمبراطور أنستاسيوس (٤٩١–٥١٨م) أي في أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس، كإجراء إداري رؤى وقتها فائدته الأمنية للقطر المصري، واعتبر هو الآخر من أقاليم الأطراف لتعرضه لغارات البدو والبربر (٤٤)، وإذا كان دوق هذا الإقليم قد احتفظ زمن جستنيان بسلطته المدنية فقط فإن ذلك إنما يرجع إلي أنه لم تكن له سوي هذه السلطة زمن الإمبراطور أنستاسيوس، ولهذا فقد استمر هذا الوضع أيضا زمن جستنيان (٤٥).

والملاحظ علي هذا التقسيم الإداري أن الأقسام الإدارية الخمسة التي انقسمت إليها مصر، تولي كل منها حاكم يجمع في يده بين السلطتين المدنية والعسكرية ماعدا القسم الأخير (ليبيا) الذي ظل حاكمه يحتفظ بسلطته المدنية فقط دون العسكرية زمن جستنيان، كما انقسمت هذه الأقسام الخمسة بدورها إلي أبروشيات، ضمت كل دوقية أبروشيتين ماعدا القسم الثالث (أركاديا)، والقسم الخامس (ليبيا)، إذ ضم كل منهما أبروشية واحدة (٤٦)، وتولي أمر كل أبروشية في الأقسام الثلاثة حاكم تغلب عليه الصفة المدنية. وانقسمت

---

(43) Rouillard: op. cit. p.33
(44) Maspero: op. cit. p.76
(٤٥) العريني: المرجع السابق ص١٥٩
(46) Diehl: op. cit. p.463

الأبروشيات إلي وحدات إدارية أصغر هي الباجركات التي ضمت المدن والقري والضياع الكبيرة، ولاشك أن هذه الإصلاحات الإدارية التي جرت في مصر ارتبطت بالخطة العامة للإصلاحات التي نفذها الإمبراطور جستنيان في كل الأقاليم الشرقية للإمبراطورية (٤٧).

وعلي الرغم من كل ذلك، فقد لاحظ المؤرخون أنه ترتب علي هذا الإصلاح الإداري نتائج بالغة الأهمية، إذ انهارت وحدة البلاد السياسية، وأصبح كل دوق معنيا بقسمة الإداري دون غيره (٤٨)، فضلا عن تمتعه بالجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية مما أشعره بنوع من الاستقلال في الرأي واتخاذ القرار، وساعده علي ذلك أن جستنيان ألغي وظيفة نائب الإمبراطور في مصر، فأعطي فرصة للأدواق للاستقلال في أقسامهم الإدارية، مع منحهم الجمع بين السلطتين المذكورين (٤٩)، ولابد وأن جستنيان رأي في ذلك فائدة لتقوية سلطة الأدواق كوسيلة فعالة لحفظ الأمن في مصر واستعادة هيبة الحكومة الإمبراطورية، وإضعاف مقاومة مصر، ووضع حد لعناد أهلها وكراهيتهم الحكومة المركزية (٥٠).

ونستطيع أن نكون فكرة عن جوهر إصلاحات جستنيان الإدارية في مصر البيزنطية إذا استعرضنا ما وكل إلي الموظفين الإداريين الكبار من سلطة، وما أنيط بهم بمقتضى القانون رقم ١٣ من صلاحيات خاصة الأدواق ورؤساء الأبروشيات والباجركات وإدارات المدن أو البلدات وكذلك في القري، إذ بدأت بهذه الإصلاحات الإدارية فترة بالغة الأهمية في تاريخ مصر البيزنطية

---

(47) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p.160

(٤٨) العريني: نفسه ص١٥٩

(49) Bury: op. cit. Vol.2, p.339
(50) Diehl: op. cit. p.463

جري المؤرخون علي تمييزها عن الفترة التي سبقت عهد جستنيان، باعتبار أن إصلاحات هذا الإمبراطور الإدارية بصفة خاصة وما استحدثه من نظم غيرت كثيرا ما عهدته مصر قبل عهد هذا الإمبراطور.

فقد أصبح الأدواق أو من تولوا هذه الوظائف الإدارية في مصر البيزنطية منذ عهد جستنيان من أهم الشخصيات في ترتيب الوظائف في الإمبراطورية، ولهذا كان الإمبراطور هو الذي يختارهم بنفسه، أي أن أمر تقليدهم صار بيده وكذلك أمر عزلهم (٥١)، وكان هؤلاء الأدواق يختارون أحيانا من بين موظفي البلاط الإمبراطوري، وهذا يفسر احتفاظ بعضهم بألقابهم في البلاط بعد عملهم في مصر، وأحيانا أخري كان يجري اختيارهم من بين كبار القادة وقدمائهم في مصر، وأحيانا ثالثة جري اختيارهم أو بعضهم من بين السكان الوطنيين في مصر (٥٢).

لكن لاشك في أن سلطة الدوق غدت منذ الوقت بالغة الاتساع، فكان يمثل الإمبراطور في إقليمه ويمثل السلطة الإمبراطورية، لأنه أصبح يعتبر نائبا للإمبراطور في قسمه الإداري لقيامه بولاية الأعمال المدنية والعسكرية في نفس الوقت، فضلا عن أنه غدا الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة وقيادة الجند في دوقيته والمنوط به حفظ الأمن في المدن وبذل المساعدة لعمال الخراج وجباة الضرائب والمكوس (٥٣)، وإذ أصبح قائدا للجيش فقد تولي الإشراف علي الفرق العسكرية، وغدا من مهامه تفقد أحوال البلاد وشئون الحاميات، وتفقد الاستحكامات وقيادة الحملات عند تعرض دوقيته للخطر.

---

(51) Maspero: op. cit. p.80
(52) Rouillard: op. cit. p.38
(53) Diehl: op. cit. p.464

أو يكل هذا إلي أحد نوابه، كما أصبح من حقه أن يعقد معاهدات الصلح مع العدو وكل ما يضمن أمن دوقيته من الأخطار [٥٤].

وعلي الرغم من أن القانون رقم ١٣ الذي أصدره جستنيان قد ركز السلطتين المدنية والعسكرية في يد الدوق، فإن قليلا من الأدواق هم الذين كانوا من رجال الحرب، أما الأكثرية فكانوا مجرد حكام مدنيين، وتبدو خطورة هذا الموضوع في ضوء ما مر ببعض دوقيات مصر في ذلك الوقت من أخطار عسكرية [٥٥]. ومن أمثلة الأدواق العسكريين كان نارسيس القائد الذي ذاع صيته كثيرا بعد ذلك، والذي كان ينتمي إلي أصول أرمينية، والذي ولي في مستهل حياته دوقية طيبة لحماية جنوب مصر وحفظ الأمن والاستقرار في أطراف مصر الجنوبية [٥٦]، ويبدوا أن الإمبراطور لم يلجأ إلي تعيين مثل هذا القائد في ذلك الجزء من مصر إلا عندما شعر بأن الخطر كان يهدد هذه الدوقية، وينذر بشر مستطير، وإنما القاعدة كانت اختيار هؤلاء الأدواق من بين كبار الملاك، ومن بين أعيان البلاد أو ممن لهم مكانة مرموقة بصرف النظر عن الكفاءة العسكرية أو الخبرة الحربية [٥٧].

ولم تحدد لنا مصادر ذلك العصر الفترة التي كان الدوق يقضيها في ولايته، والراجح أن تلك الوظيفة لم تكن مقيدة بمدة معينة أو دورة محددة، بل يظل الدوق يؤدي مهام وظيفته إلي أن يصرفه الإمبراطور عنها بمقتضى مرسوم إمبراطوري أو ينقله إلي وظيفة أخري [٥٨]، ويبدو أن ذلك بالإضافة إلي

---

(٥٤) العريني: نفسه ص١٦١، Maspero: op. cit. pp.81-2

(55) Rouillard: op. cit. p.39

(56) Masperd: op. cit. p.82

(57) Diehl: op. cit. p. 464

(٥٨) العريني: المرجع السابق ص١٦٢

اتساع سلطة الدوق، قد أغري البعض أحيانا علي العمل في استقلال عن الحكومة الإمبراطورية، وجعلهم يتصرفون كالملوك في أقاليمهم أو أشبه بالملوك، الأمر الذي أقلق جستنيان كثيرا، وجعله يهتم كثيرا بزيادة رواتبهم حتى لا يتطرق الفساد إليهم أو يقصروا في أداء واجباتهم [٥٩]، خاصة إرسال ما كان مقررا عليهم من الضرائب إلي العاصمة، أو يحتجزوا جانبا من الأموال لأنفسهم علي حساب الخزانة العامة أو دافعي الضرائب، ولهذا كانت رواتب أدواق مصر تزيد علي رواتب سائر الولاة في تراقيا وإيسوريا وغيرها من أقاليم الإمبراطورية، بينما تميز الوالي الكبير بالإسكندرية براتب كان يزيد علي رواتب نظرائه من ولاه مصر في بقية الدوقيات [٦٠].

وكان ديوان الدوق يضم أحيانا ما لا يقل عن ستمائة موظف من الدنيين والعسكريين. وكان الدوق هو الذي يتولي تنظيم ديوانه ويعهد بالوظائف المختلفة لموظفيه وأمر جستنيان بأن يرفع الأدواق نتائج تنظيماتهم للدواوين وتقارير انتظام هذه الدواوين إلي والي الشرق للحصول علي تصديق الإمبراطور وموافقته علي ذلك [٦١]، وطبقا لنصوص البرديات المنتمية إلي ذلك العصر وروايات المصادر التاريخية المعاصرة، تألف ديوان الدوق من الإدارات الآتية:

– الإدارة المالية: وتتولي كل ما يتعلق بالشئون المالية خاصة جباية الخراج وجمع أموال الضرائب وإعدادها للنقل إلي العاصمة.

---

(٥٩) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص١٣

(60) Rouillard: op. cit. p.40

(61) Ibid. pp. 42-43

– إدارة التجنيد: وكانت هذه الإدارة موجودة علي عهد الإمبراطور أنستاسيوس إذ ورد ذكرها في أحد مراسيم هذا الإمبراطور، ولابد وأنها ظلت موجودة علي عهد جستنيان علي الرغم من أنه لم يرد ذكرها في نصوص المصادر أو البرديات المنتمية إلي عهد جستنيان [٦٢]،

وكان يتولي أمرها مدير كان يمنح المجندين شهادات دالة علي لياقتهم الطبية وصحتهم البدنية وأن التحاقهم بالجيش ليس بدافع الهرب من الالتزامات المالية [٦٣].

– إدارة القضاء والشئون القضائية: وكان يتولي أمرها مدير أيضا غدت في ذلك العصر السلطة العليا في القضاء الجنائي بصفة خاصة.

– إدارة المحفوظات: ويحفظ بها السجلات الهامة ويجري بها تحرير الوثائق.

– إدارة المظالم: وترفع لها الملتمسات والشكاوي.

– إدارة المنشآت العامة: وتختص بأمر العمائر وتشييد الأسوار والاستحكامات العسكرية وبفضلها جري تشييد استحكامات جزيرة فيلة وحصون طيبة وغيرها من المدن والمواضع التي كانت معرضة للأخطار في القرن السادس الميلادي [٦٤].

– إدارة الخزانة: وتتجمع فيها الأموال وما يجري جبايته من الضرائب أو الخراج النقدي والعيني كذلك.

---

(٦٢) العريني: المرجع السابق ص١٦٥

(63) Maspero: op. cit. p. 86
(64) Rouillard: op. cit. p.44

كما أشارت برديات مصر إلي كثير من الموظفين الذين يعـاونون الأدواق في أداء مهامهم في الولايات المختلفة منهم: الموثقون والرسل أو المبعوثون، ومنـهم رجـال البريد، وضـم الديـوان أيضـا مـترجمين اختصـوا بترجمـة النصوص الرسمية والوثائق الهامة إلي اللغة القبطبة، وكذلك رجال الحرس المكلفين بحراسة الإدارات المتخلفة [٦٥]، وهنـاك كتـاب ديـوان الرسـائل وأحيانا كان يوجد الأطباء والمدرسون.

أمـا عـن رؤسـاء الأبروشـيات في ظـل النظـم الجديـدة وإصلاحـات جستنيان، فينبغي أن نسرع إلي القول، بأن تنظيمات جستنيان الإدارية لاشك أضعفت ما كان لحاكم الابروشية من مكانه وأهمية في مصر البيزنطيـة، نظـرا لاتساع سلطة الدوق، خاصة السلطة المدنية، وكذلك تحول رئيـس الأبروشـية في ظله إلي مجرد تابع للدوق، يرجع إليه في كل أموره، بعد أن كان قبل ذلك نائبا عنه في إدارة قسمه الإداري [٦٦]، وكان قبل ذلـك يتـولي عملـه مـن قبـل الوالي الكبير في الإسكندرية، فأصبح بعد صدور المرسوم رقم ١٣ يلي عمله مـن قبل الدوق، فصار مجرد مرءوس له ينفذ أوامر الدوق ويعمل بمشورته، وكذلك لم تعد لرؤساء الأبروشيات إلا أدوار ثانوية خاصة بعد أن ألغـي المرسـوم رقـم ١٣ وظيفة نائب رئيس الأبروشية،فتحول رئيس الأبروشية إلي ممارسة القضاء أو جباية الضرائب تحت إشراف الـدوق مباشـرة [٦٧]، وكـان يجـري اختيـار رؤساء الأبروشيات أحيانا من بين موظفي الدوقية، وأحيانا أخري كـان أهـل الدوقية هم الذين يختارون رئيس الأبروشية بموافقة الدوق.

---

(٦٥) العريني: نفس المرجع ص١٦٦

(66) Diehl: op. cit. p.464
(67) Rouillard: op. cit. p.49

وتكون ديوان رئيس الأبروشية من إدارات مختلفة، وبطريقة مصغرة بالنسبة لما كان في ديوان الدوق، فشمل الإدارة المالية والإدارة القضائية وإدارة المحفوظات وكتابة الإنشاء والرسائل وإدارة الإشراف علي الموظفين كالكاتب وحامل البريد والمشرفين ومرافقي رئيس الأبروشية من المدنيين والعسكريين، فضلا عن فصيلة من رجال الشرطة (٦٨).

ويأتي بعد ذلك دور الباجركات، والباجركية- كما سبق أن أشرنا- هي المنطقة الريفية التي تتوسطها مدينة ريفية، أي أنها وحدة إدارية تلي الأبروشية في الأهمية وفي الحجم، ويلي أمرها ما عرف بالباجرك في السلم الإداري في مصر البيزنطية (٦٩)، علي الرغم أنه من العسير فعلا تحديد الصلاحيات الإدارية للباجرك والسلطات المخولة له في هذه الوحدة الإدارية، ويعتقد فريق من المؤرخين أن حدود الباجركية تطابق تقريبا حدود عاصمة تلك الوحدة الإدارية الريفية وما حولها، وأن سلطة الباجركية لا تتجاوز كثيرا عاصمة هذه الوحدة وما يتبعها من قري وضياع، لكنها مع ذلك صارت من الوحدات الإدارية الأساسية في التنظيمات الإدارية في هذه الفترة (٧٠). بينما يعتقد فريق آخر من المؤرخين أن سلطة الباجرك تشمل كل ما يحيط بالمدينة الريفية هذه من قري وضياع وما يتبعها من الأراضي باستثناء القري والضياع المتمتعة بحق الجباية الذاتية، دون أن تكون له سلطة في المدينة

---

(٦٨) العريني: المرجع السابق ص١٦٩

(69) Maspero: op. cit. pp. 1-3
Rouillard: op. cit. p. 57

(٧٠) بل: مصر من عهد الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ص٢٣٧

ذاتها عاصمة هذه الوحدة [٧١]، لأن رجال البلدية هم الذين يتولون شئون المدينة عاصمة الوحدة أو عاصمة هذا القسم الإداري.

ومهما يكن من أمر فالراجح أن الباجركية هي مدينة ريفية أضيف إليها كل ما يحيط بها من الأراضي بحيث تشكل وحدة تخضع للإشراف العام للباجرك، لاسيما الإشراف المالي، لأنه كان مسئولا عن جباية الضرائب من سائر الجهات المحيطة، فضلا عن أنه كان يشارك في الشئون القضائية، خاصة تنفيذ القرارات أو الأحكام التي تصدرها محكمة الدوق [٧٢].

ويبدو أن الباجركات كانوا معروفين قبل تنظيمات جستنيان، وقبل صدور المرسوم رقم ١٣. ربما منذ أوائل القرن الخامس الميلادي، إذ تشير بعض برديات مصر البيزنطية المنتمية إلي هذه الفترة إلي ذلك، غير أن وضعهم في السلم الإداري بهذا الشكل ارتبط بما حدث في القرن الخامس الميلادي من تغيرات خطيرة في الإدارة المالية [٧٣]، خاصة ما حدث من ازدياد عدد كبار الملاك ونمو نفوذهم وحصولهم علي حق الجباية الذاتية، فضلا عن تغاضي الحكومة المركزية عما عرف بنظام الحماية الذي أشرنا إليه فيما سبق، كل ذلك دعا بيزنطة إلي تعديل نظمها الإدارية فازداد ظهور الباجركات وتحددت معالم سلطاتهم [٧٤].

وربما لهذا أستمد الباجرك سلطته من الإمبراطور مباشرة، ولم يكن للدوق سلطة في عزله وإنما ذلك يقرره الإمبراطور نفسه، إذا قصر الباجرك في أداء واجبه أو أهمل بشكل يضر بمصالح الدولة، وفي هذه الحالة يتحتم علي

(71) Johnson: Economic Studies, p. 219
(72) Diehl: op. cit. p.464

(٧٣) بل: المرجع السابق ص٢٣٧

(74) Rouillard: op. cit. p.57

الإمبراطور المبادرة بتعيين من يخلف الباجرك المعزول في منصبه، علي الرغم من أن الباجرك يعتبر من الناحية الرسمية مرءوسا للدوق، ولكنه في الواقع كان من صنائع الإمبراطور، الذي يستمد منه الباجرك سلطته رأسا، ولهذا حرص الإمبراطور علي اختيار الباجركات من بين طبقة كبار الملاك المحليين أو من بين كبار الموظفين (٧٥).

ويخضع لأوامر الباجرك جماعة من الموظفين منهم جباة الضرائب والمراقبون والكتاب والمساعدون، وكان تحت تصرفه سفينة وبحارة ليطوف بها وحدته الإدارية لتفقد أحوالها ولأداء المهام الموكلة إليه خاصة مباشرة جباية الضرائب والإشراف علي جمع القمح وتنفيذ الأحكام القضائية، وكل ما يتصل بسكان الباجركية، إذ غدا الباجرك ممثلا للسلطة المركزية في المدينة وفي الأراضي المحيطة بها (٧٦).

أما عن نواب البلدية أو إدارة المدن فقد أهتم بهم جستنيان كثيرا وشملتهم تنظيماته بمقتضى القانون رقم ١٣، نظرا لتعرض المدن للتداعي والاضمحلال منذ فترة طويلة، فأبقي جستنيان علي موظف الشئون المالية الذي كان يجري تعيينه منذ أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس، والذي يرأس نواب البلدية (٧٧)، فقد كان هذا الموظف هو ممثل السلطة المركزية في المدن التي أهتم جستنيان بجباية الضرائب وحفظ الأمن فيها، ولهذا وجه عنايته لجعل أعضاء البلديات عمالا مخلصين للحكومة، لاسيما في

(75) Diehl: op. cit. p.464
(76) Rouillard: op. cit. p.55
(77) Diehl: op. cit. p.464

مدينة الإسكندرية التي أشتهر أهلها بسرعة الإثارة وميلهم لإحداث الشغب والاضطراب لأتفه الأسباب [٧٨].

وطبقا لهذا كانت بعض الأبروشيات تضم مدنا حضرية، وكذلك مدينة ريفية، ففي المدن الحضرية وجد نواب البلدية وفي المدينة الريفية وجد الباجرك، واعتبر نواب البلدية في المدن الحضرية عمالا ماليين أو موظفي خراج [٧٩]، يقوم بمساعدتهم كاتب حسابات والخازن المكلف بحفظ الضرائب بعد جبايتها والكاتب، فضلا عن متولي الدعاوى أو الشكايات، وكذلك عدد كبير من الموظفين الموكل إليهم الإشراف علي صيانة الجسور والحمامات العامة والمباني الحكومية وكبير الأطباء [٨٠].

وتشير وثائق ذلك العصر والبرديات إلي أن نواب البلديات أخذوا في التداعي والاختفاء شيئا فشيئا نظرا لتفاقم الأحوال في المدن سوءا ووقوع المظالم والابتزازات، الأمر الذي أجبر جستنيان علي تغيير سياسته وجعل أعمالهم من الالتزامات المفروضة علي الأعيان، فأخذ نفوذ نواب البلديات في الضعف والاضمحلال [٨١]، وازداد في نفس الوقت نفوذ كبار الملاك ونفوذ الكنيسة خاصة في القرن السادس الميلادي، إذ غدا للكنيسة دور كبير في إدارة البلديات بعد أن أضحي للأسقف الحق في الاشتراك مع الأعيان في اختيار الموظفين من ناحية، والإشراف علي الموارد المالية للمدينة من ناحية أخري، فضلا عن صيانة المرافق كالحمامات والاهراء البلدية والجسور ومراقبة الموازين

---

(78) Ibid. p.482
(79) Rouillard: op. cit. p.64
(80) Ibid. p.65

(٨١) العريني: المرجع السابق ص١٧٣

والمكاييل، وغير ذلك من الخدمات بمعاونة بعض الوطنيين من ناحية ثالثة[٨٢].

أما عن إدارات القري، فقد كانت هذه الإدارات تسير أمور القري الداخلية، التي أولاها جستنيان اهتماما كبيرا، نظرا لان القرية في مصر البيزنطية كانت أهم وحدة إدارية لما تحمله من مسئولية زراعة الأرض في زمامها، وتأدية ما هو مقرر عليها من ضرائب والتزامات [٨٣]، فعلي رأس القرية ينهض أعيانها أو شيوخها ليشاركوا في الإدارة المالية ويسهموا في حفظ الأمن بمساعدة الشرطة، ويقدمون العون للجند العاملين ويقومون بكل ما فيه صالح لأهل القرية، وكان الميزون Meizon من موظفي القرية العاملين، وكل إليه إدارة القضاء أحيانا والإدارة المالية أحيانا أخري، وتقاضي من أجل ذلك راتبا مقابل ما كان يؤديه من أعمال في القرية [٨٤].

وإلي جانب الميزون في القري وجد المكلفون بالإدارة المالية والكتاب وعمال البريد، وأحيانا العاملون بالشرطة المحلية، وتشكل من هؤلاء مجلس القرية الذي ازدادت أهميته بمرور الوقت، خاصة في الشئون المالية وجباية الضرائب والالتزامات وتحتم علي هؤلاء أحيانا الانتقال إلي المدينة للاجتماع بممثلي السلطة المركزية للتشاور في كل ما يمس بأمور القرية ومصالح سكانها[٨٥].

وعلي الرغم من ذلك أشارت وثائق ذلك العصر إلي أن كثيرا من المدن والقري تعرض أهلها لأنواع من السخرة أو الإلزام بتأدية أعمال للحكومة،

---

(82) Bury: op. cit. Vol. 1, p, 443
Diehl: op. cit. p.465
(83) Johnson: Egypt and the Roman Empire, p.133
(84) Rouillard: op. cit. p.70
(85) Ibid. p. 68

دون أن يتقاضوا عنها أجرا، مثل العمل كمجد ين في سفينة الدوق أو الباجرك التي يطوف بها لتفقد وحدته الإدارية، وكذلك المساعدة في جباية الضرائب، ونقل القمح إلي السفن التي تحمله إلي العاصمة، وتحتم علي البحارة منهم وبعض العمال أن يقوموا بنقل القمح إلي القسطنطينية كنوع من الأعباء الملقاة علي عواتقهم، وإن جري أحيانا تعويض هؤلاء البحارة والعمال عن بعض أعمالهم في هذا الميدان (٨٦)

(86) Rouillard: op. cit. p.74,

العريني: نفس المرجع السابق ص١٧٧

الفصل السابع

التنظيمات القضائية في مصر البيزنطية

الفصل السابع

التنظيمات القضائية في مصر البيزنطية

أشرنا فيما سبق إلي أن القضاء في مصر البيزنطية أصابه الفساد في الفترة السابقة علي ولاية الإمبراطور جستنيان، إذ أن العدالة لم تتحقق لكل سكان مصر، بسبب ما اشتهر به القضاة من الانحراف والفساد وقبول الرشوة، ولم تمتد يد القوانين إلي الأقوياء والأغنياء، مما أوقع البلاد في قضاء فاسد بغيض[1]، الأمر الذي جعل الحكومة البيزنطية تهتم منذ عهد جستنيان بمحاولة إصلاح القضاء، وتحميل كبار الموظفين في كل دوقية مسئولية القضاء، لإعادة القضاء إلي ما كان له من هيبة في عهود سابقة، فقد أصبح الأدواق أنفسهم يضطلعون بمسئولية القضاء في كل دوقية، بحكم ولايتهم الوظائف المدنية، وأضطلع الموظفون الأقل في الرتبة بهذه المسئولية في وحداتهم الإدارية أيضا، وتعددت محاكم كل دوقية بأقسامها الإدارية ووحداتها، التي تولي القضاء فيها من يشغل أكبر سلطة إدارية كرئيس الأبروشية والباجرك وحامي المدينة وغير ذلك من كبار الموظفين [2].

فغدت محكمة الدوق منذ عهد جستنيان أهم المحاكم المحلية خاصة وقد أصبح من حق الدوق الفصل في القضايا الجنائية إلي جانب القضايا المدنية الأخرى كالفصل في الخصومات بين الموظفين، والدعاوى المتعلقة بالنواحي المالية والاحتجاجات المقدمة من دافعي الضرائب، الذين يتعرضون لإيذاء الموظفين الماليين والجباة [3] والدعاوى المقدمة في حق موظفي البلدية الذين

---

(1) Rouillard: op. cit. p.4
(2) Diehl: op. cit. p.471
(3) Rouillard: op. cit. p.150

يلزمون الناس بأعمال السخرة، وبعض الالتزامات الجائرة، وغير ذلك من القضايا المدنية، كحقوق الإرث والملكية أيا كان نوعها، وكذلك الدعاوى المتعلقة بالسرقات، وكانت محكمة الدوق تعقد جلساتها في عاصمة الدوقية، باعتبارها المحكمة الكبيرة (٤)، التي غدا للدوق فيها حق مباشرة القضاء الجنائي العالي، بالإضافة إلي القضاء المدني.

وكان هناك في ديوان الدوق إدارة خاصة، علي رأسها موظف كبير هو الذي يتلقي الشكاوي من الناس، ويقوم بفحصها، فإن رأي الحاجة إلي رفعها للدوق لتعرض علي محكمة الدوق، أو يراها لا تستحق، ومن ثم ترفض الدعوى، أي أنه يتوقف علي رأي هذا الموظف الكبير قبول الدعوى أو رفضها، وهذا ما يختص بالدعاوى المدنية (٥)، أما القضايا الجنائية فقد كانت هناك إدارة خاصة للجنايات، اختصت بالنظر في القضايا الجنائية (٦).

وكان هناك مستشار قضائي لكل دوقية، يرجع إليه الدوق في بعض الحالات التي تحتاج إلي المشورة إذ يعتبر هذا المستشار القضائي ضمن موظفي الدوقية الكبار يعمل رهن إشارة الدوق ويقدم المشورة له في بعض الحالات، كما وجد بمحكمة الدوق محامون للدفاع عمن يعجز عن الدفاع عن نفسه، حتى كان بوسع بعض المتقاضين اللجوء إلي الدوق لينتدب لهم نائبا عنه ليقوم بالدفاع عنهم في بعض الحالات (٧)، فقد أصبح حق الدفاع عن النفس مكفول لكل المتقاضين في محكمة الدوق.

---

(4) Diehl: op. cit. p.4
(5) Ibid. p.471

(٦) العريني: المرجع السابق ص٢١٧

(7) Rouillard: op. cit. p.151

أما رئيس الأبروشية، فقد فقد في ظل هذه النظم الامتيازات الخاصة بالقضاء، وصار مجرد مرءوس للدوق، بعد أن صار في يد الدوق من السلطات المدنية ما كان من اختصاصات رئيس الأبروشية [٨]. حقيقة كانت هناك محكمة رئيس الأبروشية التي نظرت فيها أحيانا قضايا معينة إلا أن رئيس الأبروشية لم يكن في هذه القضايا سوي مجرد قاض، لأن الدوق كان يعتبر كبير القضاة في إقليمه [٩].

وبجانب محكمة الدوق ومحكمة رئيس الأبروشية، كانت هناك محكمة الباجرك، التي لم يكن لها النظر إلا في القضايا الجنائية الصغيرة وبعض القضايا المدنية، ولهذا كان الدوق أحيانا يرسل إلي الباجركية مندوبين عنه للفصل في القضايا. ولم يكن ذلك يتعارض مع مهام الباجرك، بل إن الباجرك ومندوب الدوق كانا يتوليان معا تنفيذ الأحكام الصادرة من محكمة الدوق بين المتخاصمين المقيمين أصلا في دائرة الباجركية، وكانت محكمة الباجرك تنظر في المصالحات وعقود الضمان والدعاوى المتعلقة بالحقوق [١٠].

وإلي جانب هذه المحاكم الثلاث كانت هناك محكمة حامي المدينة في بعض المدن التي اختصت بالقضاء المدني والقضاء الجنائي أيضا، وفي المعاملات المالية الصغيرة، بحكم أن بعض المدن كان لها نشاط تجاري وصناعي كبير، وجرت فيها مخاصمات اختصت بالنواحي الجنائية والمعاملات المالية [١١]. بل إن هذه المحاكم الصغيرة وجدت أحيانا في بعض الباجركات إلي جانب محاكم الباجركات للنظر في هذه المعاملات المتميزة،

---

(8) Diehl: op. cit. p.471
(9) Rouillard: op. cit. p.153

(١٠) العريني: المرجع السابق ص٢١٩

(11) Rouillard: op. cit p.154

ولهذا عالجت تنظيمات جستنيان القضائية اختصاصات حامي المدينة في القضاء، فحدت كثيرا من سلطاته ومنعته من إصدار أحكام بالديات في القضايا الجنائية، وأجازت له فقط توقيع العقوبة بشرط ألا تصل بأي حال من الأحوال إلي حد القسوة، وحصرت اختصاصاته في النظر في العقود وقضايا التصالح والقضايا المتعلقة بالإدارة المالية، وأشارت بعض النصوص المنتمية إلي هذه الفترة إلي قيام حامي المدينة بمراقبة الآداب العامة والفصل في قضايا الطلاق والخلافات بين الزوجين والنزاع الذي يحدث بين الناس علي امتلاك الأراضي [١٢].

أما في القري فقد كان رجال الشرطة يباشرون السلطة القضائية في بعض الأمور فيفحصون الشكاوي ويحققون فيما يحتاج إلي تحقيق منها، ويلزمون أحيانا المتهمين بإصلاح ما أفسدوه أو ما أحدثوه من الأذى أو الضرر، فإذا امتنعوا عن ذلك بعثوا بهم إلي المدينة ليتولي حامي المدينة أو الباجرك محاكمتهم [١٣]. وفي المنازعات البسيطة كان يجري الاتفاق بين المتخاصمين علي الاحتكام إلي بعض الأشخاص يختارونهم بأنفسهم، كانوا عادة من شيوخ القرية، وفي هذه الحالة تصبح مهمة السلطات الرسمية في القرية مجرد سلطة إشرافية ورقابية [١٤].

أما عن القضاء الكنسي والمحاكم الكنسية، فقد عرفته الإمبراطورية منذ عهد قنسطنطين الكبير. إذ جاز للمتخاصمين في الأمور المدنية أن يلجأوا باختيارهم إلي تحكيم الأسقف حتى أثقلت أعباء هذه القضايا ودعاوى المحاكم كاهل الأسقف، خاصة وأن الأحكام التي كان يصدرها الأسقف جري

---

(12) Ibid. pp.155-6
(13) Diehl: op. cit. p.473

(١٤) العريني: المرجع السابق ص٢٢١

الاعتراف بها قانونا [١٥]،فأقبل كثير من المتخاصمين علي تحكيم الأساقفة، وركنوا كثيرا إلي عدالتهم، فأسهمت الكنائس في تحمل جانب كبير من العبء القضائي في مصر البيزنطية في تلك الفترة.

ومن ناحية أخري كان هناك نوع أخر من القضاء الكنسي الذي يحاكم أمامه رجال الدين دون غيرهم، لأنه لا ينبغي مطلقا لأحد من رجال الدين أن يمثل أمام محكمة مدنية، إلا إذا كانت الدعوى فيها جنائية، ولهذا كان رجال الدين يخضعون لقضاء كنسي اختص بهم دون غيرهم، إلا أن ما يصدره الأسقف من أحكام كان يتولي تنفيذها نيابة عنه القاضي بموافقة الطرفين المتخاصمين [١٦]. وبمرور السنين ازدادت حصانه رجال الدين من الناحية القضائية، حتى صار للأسقف زمن الإمبراطور هرقل الحق في تنفيذ الأحكام بأنفسهم، واتسعت في نفس الوقت سلطة القضاء الكنسي، وصار من المحظور علي المتهم في القضايا المتعلقة بأحد من رجال الدين اللجوء إلي القضاء المدني إذا اعتبرته الكنيسة ومحكمها الأسقفية مذنبا [١٧].

أما عن المحاكم العسكرية والقضاء العسكري، فكان معروفا أيضا في القرن السادس الميلادي وإن اختلط بالقضاء المدني في محكمة الدوق في كثير من الأحيان، إلا أنه مع ذلك كانت هناك محاكم عسكرية خالصة، تألفت من ضباط ورجال عسكريين كانوا ينظرون فيما يرفع لهم من القضايا التي يكون الجند فيها أحد طرفي التخاصم أو النزاع [١٨].

---

(15) Rouillard: op. cit. p.156
(16) Ibid. p.159

(١٧) العريني: نفس المرجع ص٢٢٢

(18) Rouillard: op. cit. p.158

وإلي جانب المحاكم القائمة بمصر البيزنطية، صار لسكان مصر الحق في رفع قضايهم وشكاياتهم إلي محكمة الإمبراطور بالقسطنطينية مباشرة، وجاز لهم التقدم بدعاويهم رأسا إلي محكمة الإمبراطور في صورة ملتمس أو طلب يراد النظر فيه، فيصدر الحكم في هذه الحالة في صورة أمر إمبراطوري وإن كان قضائيا، وحفظت لنا مصادر ذلك العصر أوامر إمبراطورية قضائية صدرت من بيزنطة في قضايا خاصة بالمصريين (١٩)، واستغل جستنيان هذه الفرصة ليجعل سلطته قوية محسوسة في مصر، بإصدار الأوامر القضائية كلما وصلته التماسات من أهل مصر وشكاوي تتعلق بمصر وأمور المصريين.

أما فيما يختص بالاستئناف، فلم تكن هناك محكمة استئناف تقع وسطا بين محكمة الدوق ومحكمة والي الشرق (٢٠)،ولهذا كان الناس يضطرون للسفر مسافات طويلة للذهاب إلي العاصمة القسطنطينية، ويتكبدون تكاليف باهظة في ذلك، ربما فاقت أحيانا المبالغ المتنازع عليها، فضلا عن أن كثيرا منهم كان يترك زراعاته أو مصالحه في مصر معرضا تلك الزراعات والمصالح للإهمال الشديد، فيفاجأ بان موظفي القضاء في العاصمة مشغولون بالنظر في قضايا كانت في كثير من الأحيان أقل أهمية من قضاياهم، بل هي في أكثر الأحيان قضايا تافهة (٢١)، في الوقت الذي كانت فيه القسطنطينية زاخرة بأخلاط الناس من سكان الأقاليم المختلفة الذين شغلت قضاياهم رجال القضاء في العاصمة.

لهذا صمم جستنيان علي تعديل نظام القضاء في مصر، والاهتمام بموضوع الاستئناف، لحاجة الناس إلي محكمة استئناف لما اشتهرت به

---

(19) Diehl: op. cit. p.471
(20) Rouillard: op. cit. p.160
(21) Ibid. p.161

الإدارة في مصر البيزنطية من التباطؤ والتراخي وعدم الإسراع في حسم القضايا، لهذا قرر جستنيان أن ينشئ محاكم متوسطة بين محكمة والي الشرق في بيزنطة وبين محاكم الأدواق وولاة الأقاليم في مصر [٢٢]، وجري هذا الإصلاح بمصر البيزنطية اعتبارا من سنه ٥٣٦م بجعل دوق الإسكندرية باعتباره الوالي الكبير بمصر البيزنطية مكلفا بالفصل في كل القضايا التي لا تزيد قيمة الدعوى فيها علي خمسمائة دينار أو (صولد) ذهبي، وبصفة نهائية ولا يجوز استئناف مثل هذه القضايا أو القضايا من هذا القبيل أو اللجوء بها إلي سلطة أخري [٢٣].

لكن جاز لهذا الدوق في الإسكندرية، أن تستأنف لديه القضايا التي أصدر الحكم فيها رئيس الأبروشية، بشرط ألا تقل قيمة المبالغ المتنازع عليها في تلك القضايا عن خمسمائة دينار (صولد)، وجاز لهذا الدوق الكبير في الإسكندرية النظر في الأحكام التي ترفع إليه والتي يصدرها أدواق مصر الآخرين [٢٤]، وهذه القضايا التي أصدر الأحكام فيها أدواق مصر الآخرين، جاز الاستئناف فيها لدي محكمة والي الشرق والمستشار القضائي في العاصمة البيزنطية، وجاز أيضا أن يرفع المتخاصمون أحكام القضاء إلي محكمة الأسقف كمحكمة استئناف مثلما كان لهم الحق أيضا في رفع هذه الأحكام إلي محكمة الإمبراطور [٢٥].

وعلي الرغم من تأكد جستنيان من أن هذا الاستئناف قد يؤدي إلي بطء القضاء بعض الشيء، إلا أنه رأي في هذا الاستئناف وسيلة لإقناع الرعايا بما

---

(22) Diehl: op. cit. p.472

(٢٣) العريني: المرجع السابق ص٢٢٤

(24) Rouillard: op. cit. p.161
(25) Diehl: op. cit. p.472

تبذله حكومته من الهمة والنشاط والإصرار علـي القيـام بالإصلاحـات الهامـة والتنظيمات التي تحتاج إليها البلاد [٢٦]، علي الرغم من أن هذا البطء لم يكن هو النقيصة الوحيدة التي شاعت في القضـاء في القرن السـادس الميـلادي، إذ مالبث القضاة أن انزلقوا إلي الفساد والرشوة والاستخفاف بواجباتهم، وغلـب عليهم الجشع والشراهة للمال، حتى اصبح القضاء سـلعة يجـري بيعـها لمـن يدفع اكثر [٢٧]، الأمر الـذي دفـع جستنيان مـرة ثانيـة إلي إصـدار القوانـين وملاحق القوانين لمحاولة علاج هذا الخلل، ومحاولة إصلاح ما فسد من أمـر القضاء، واشتد جستنيان كثيرا في ذلك فنصت مرسوماته علي ما ينبغي علـي القضاة أن يتبعوه عند مباشرة القضاء في أنحـاء البـلاد، واهتـم بصفـة خاصـة بتطبيق هذه الإجراءات في مصر البيزنطية [٢٨].

وارتبط بالقضاء وتنفيذ الأحكام في مصر البيزنطية نظام الشرطة، ويعتبر الدوق رئيس الشرطة في دوقيته [٢٩]، لأنــه يشـرف علـي حفـظ الأمـن وتنفيـذ الأحكام بمساعدة الجند وكفالـة انتظـام جبايـة الضرائـب، وتقديـم المسـاعدة لعمال الخراج، لأداء المهام الموكلـة إليـهم، خاصـة ضمـان الهـدوء والسـكينة خلال عمل هـؤلاء الموظفـين المـاليين [٣٠]. كمـا كـان رئيـس الأبروشـية قـائدا للشرطة في قسمه الإداري، فيصدر أوامر القبض والاعتقال علي الخارجين علي القانون، ويلقي بمن يعبث بالأمن أو يعيث فسـادا أو يرتكـب جرمـا في هـذه

---

(26) Ibid. p.472
(27) Rouillard: op. cit. p.162
(28) Ibid. p.162
(29) Diehl: op. cit. p.167
(30) Jouguet: La vie municipale dans L'Egypte Romane, p.193

الوحدة الإدارية في سجن هذه الوحدة، حتى يضمن الهدوء والسكينة في الأبروشية [٣١].

ولقد أبدي أدواق مصر عناية خاصة بمناطق معينة في مصر بسبب ما كان يحدث بها من الاضطراب والفتن وما يعتريها من القلق، مثل مريوط والمناطق القريبة من الإسكندرية التي كانت تتعرض كثيرا للفتن والاضطراب، والتي كانت داخله في نطاق اختصاصات حاكم ليبيا الذي درج علي إرسال نائب عنه إلي مثل هذه الجهات لإقرار الأمور فيها والقبض علي من يلجأ إليها من مثيري الشغب ومحدثي الفتن بالقرب من الإسكندرية [٣٢]. وكان تحت إمرة نائب حاكم ليبيا إلي جانب من كان بديوانه من الوظفين المدنيين خمسين جنديا انتزعهم من الحامية العسكرية المرابطة بالمنطقة ذاتها، وذلك لتنفيذ ما كان يصدر عن المحكمة من أحكام ومن أجل القبض علي المشبوهين ومثيري الفتن.

أما في المدن والقري، فقد تولت فئة خاصة من الموظفين تأدية أعمال الشرطة بجانب قيام الجيش المرابط بأعمال الشرطة، إذا كان من مهام الجند السهر علي حفظ الأمن في البلاد وإقرار الأمور فيها. وفي القرن السادس الميلادي اضطلع حامي المدينة بمهام الشرطة وساعده في ذلك بعض المساعدين[٣٣]، كانوا يقومون بمهمتهم- في اغلب الظن- من قبيل السخرة والتكليف ولكنهم تكفلوا بحفظ الأمن في المدينة والتحفظ علي المتهمين وإرغامهم علي المثول أمام القضاء، ويخضع لأوامرهم رجال البريد يساعدهم

---

(٣١) العريني: المرجع السابق ص٢٢٧

(32) Procopius: De bello Vandalico, p.342

(33) Holwein: La police de villages Egyptiens a l'epoque Romaine, p.19 (cairo 1905)

فئة من الحراس، وفي كل مدينة جرى إنشاء سجن ليودع فيه الخارجون على القانون ومن صدرت بشأنهم أحكام [٣٤].

أما في القرى فقد كان هناك جماعة من رجال الشرطة، على الرغم من قيام أعيان القرية بالقبض على المتهمين وإرسالهم للمثول أمام المحاكم، إذا تلقوا من المحاكم أوامر بذلك، وكان أعيان القرية هؤلاء يستعينون أحيانا في القبض على المذنبين بالموظفين القائمين بأعمال الشرطة خاصة الحراس، كما تعاون الجند في القرى ورجال الشرطة في المحافظة على الأمن وإقرار الأمور في بعض الجهات بصفة خاصة [٣٥]. وإذا لم يكن في وسع أعيان القرية وقوات الشرطة المحلية أن يقبضوا على المجرمين أو إذا ثبت إهمالهم عن عمد في تأدية ذلك الواجب تستدعي السلطات المسئولة في القرى قائد العساكر من مدينة مجاورة أو الاستعانة بالعساكر الإمبراطورية، وفي هذه الحالة يأتي قائد الجند على رأس جماعة من الجند للقبض على المجرمين وإعادة السكان إلى رشدهم [٣٦].

وإلى جانب الشرطة المحلية وجد في القرى في القرن السادس الميلادي موظفون صغار اعتبروا من رجال الشرطة، كانوا يؤدون أعمالا متنوعة كحراسة الحقول وحراسة قطعان الماشية والأغنام والرعاة ومراقبة هذه القطعان وضمان سلامتها والتصدي لكل من يحاول السطو عليها أو نهبها [٣٧]، وحماية المنشآت والمرافق العامة التي تخدم الحقول والمزارع وملاحظة انتظام الري

---

(34) Johnson: op. cit. p. 213
Jouquet: op. cit. p. 258
(35) Holwein: op. cit. p. 19
Diehl: op. cit. p. 473
(36) Rouillard: op. cit. p. 166
(37) Maspero: op. cit. p. 27

وحفظ الأمن. وجري تقسيم زمام القرية إلي عدة أقسام، اختص بكل قسم منها حارس أو عدة حراس، وفقا لما يتم الاتفاق عليه بين الرعاة وموظفي القرية، وكان حراس الحقول هؤلاء وحراس القطعان يخضعون لشرطة القرية مباشرة(٣٨).

وجرت إقامة أبراج منيعة في الجهات الواقعة علي أطراف الصحراء، لاسيما ما كان تابعا منها لطيبة، حيث تتعرض القوافل لهجمات المغيرين، إذ جري وضع حراس في تلك الأبراج، يمكن أن يلجأ إليهم من يتعرض للخطر للاحتماء بهم، فيصير حراس الأبراج في هذه الحالة مندوبين للشرطة، إذ إنهم يعينون في تلك المواضع لأداء مهام الحراسة وما تفرضه واجبات الشرطة (٣٩).

كما كان لكبار الملاك شرطة خاصة بهم وحراس خصوصيين يسهرون علي حمايتهم ويتكفل كبار الملاك بالإنفاق عليهم، بعد أن صار لهذه الطبقة الموسرة نفوذ قوي في مصر واستقلال داخلي كبير، أغراهم بأن يتخذوا لأنفسهم حرسا خصوصيين، وأن ينشئوا جيوشا خاصة بهم في تلك الضياع الواسعة تعاونهم علي حماية هذه الأملاك وتلك المصالح الكبيرة (٤٠)، وحفظت لنا النصوص المعاصرة عقود اتفاق مبرمة بين أحد الملاك الكبار ورئيس حراسة، وضح منها حرص هؤلاء الملاك علي تأمين أملاكهم وضياعهم بالتعاقد مع حراس خصوصيين نظير الانفاق عليهم ودفع رواتب لهم يجري الاتفاق عليها بين الطرفين (٤١).

---

(38) Ibid. p.27
(39) Rouillard: op. cit. p.171
(40) Arnold: The end of the Buzantine Empire, p.33
(41) Arnold: op. cit. p.33
Jouguet: op. cit. p.193 (Paris 1911)

معني هـذا أن أعمـال الشـرطة في بعـض القـري، لم يقـم بـهـا حـراس الحقـول فحسـب، بـل تولاهـا أيضـا فئـة خاصـة مـن الحــرس أو الشــرطة الخصوصيين بتكليف من أصحاب الضياع الكبيرة مما يؤكد أن حمايـة الأمـن وأعمال الحراسة، لم تكن من مهام السلطة فحسب، وإنما شاركهم فيها طبقة الأغنياء من كبار الملاك لحراسة الضياع الكبيرة والأراضـي الواسـعة في بعـض القري [٤٢].

ويتضح من هذا العرض أن الحكومة البيزنطية المركزية، بذلت جـهودا كبيرة في القرن السادس الميلادي لإصلاح أحوال مصر القضائية والأمنية، بعـد أن أصابها الانهيار والتداعي في الفـترة السـابقة، ولم تعـن بيزنطـة بذلـك إلا لإزالة ما لحق بمصالحها من أضرار في مصر فقـد أجـري جسـتنيان تغيـيرات كثيرة في النظم القضائية والأمنية، بفضل ما اشـتهر بـه مـن المـهارة الفائقـة، والحرص علي تنظيم شئون الأقاليم [٤٣]، مستخدما نهجا بالغ المرونة لإصلاح النظم الإدارية المرتبطة بهذه النواحي، فكان أحيانا يكتفي بلفت نظر الموظفين إلي الاهتمام بواجباتهم، وتارة أخري يلجا إلي اتخاذ تدابير بالغة الصرامة مع هؤلاء الموظفين لتحقيق الهدف المنشود، وإصلاح ما فسد من شـئون الولايـات حرصا علي صالح الإمبراطورية البيزنطية [٤٤].

فكل ما ورد في المرسوم رقم ١٣، الذي أصـدره جسـتنيان عـن القضـاء ونظم المحاكم والشرطة، وكل ما أظهره جستنيان مـن اهتمـام بشـئون الإدارة الماليـة في مصـر والأمـن الداخلـي [٤٥]، وقمـع الفـتن والثـورات خاصـة الفـتن

(42) Arnold: op. cit. p.33
(43) Ibid. p.36
(44) Vasiliev: op. cit. Vol.1, p.160
(45) Arnold: op. cit. p.36

المذهبية [٤٦]، كان يهدف إلي استغلال موارد البلاد وضمان انتظام جباية الضرائب، إذ تشير الدلائل إلي أن الإدارة المدنية في مصر البيزنطية، كانت تكاد تطابق الإدارة المالية، فلم يكن الحكام سوي موظفين ماليين قبل كل شيء، وما كانوا يمارسونه من سلطة إدارية أو قضائية أو أمنية، إنما كانوا يمارسونها بالإضافة إلي الأمور المالية، وبعبارة أخري لم تكن واجباتهم كقضاة أو رؤساء شرطة أو قادة عسكريين ليست في حقيقة الأمر سوي واجبات إضافية إزاء ما يباشرونه من وظائف المال والجباية [٤٧]، وما يقومون به من حصر النفقات والمصروفات العامة، فكل النظم والمهام التي مارسها الموظفون في مصر كانت تتبع النظام المالي وتسير في خدمة هذا النظام [٤٨].

ولعلنا لا نخالف الحقيقة إذ قلنا أن المصريين لم يكونوا في نظر البيزنطيين أكثر من دافعي ضرائب، لابد من حملهم علي دفعها، مهما بلغت حالتهم سوءا، ومهما أنوا من الفقر والفاقة، وإذا كان المصريون قد عانوا علي عهد الرومان قدرا كبيرا من الظلم والاستبداد، فإن معاناتهم علي عهد البيزنطيين لم تقل عن ذلك كثيرا [٤٩]، وجري الإمبراطور جستنيان علي هذه القاعدة مستخدما في ذلك تعديلات في الوظائف الإدارية، وفي النظم المالية يهدف من ورائها الاستغلال المنظم للبلاد، جريا علي ما أتبعه الأباطرة من قبله، وما سنه الرومان من قبل من نظم باعتبار المصريين ليسوا سوي دافعي

---

(46) Hardy: op. cit. p.35
(47) Holwein: op. cit. p.21
(48) Johnson: Egypt and the Roman Empire, p.159
(٤٩) مراد كامل: المرجع السابق ص٢٦

ضرائب، ينبغي إرغامهم علي الانتظام في دفعها، مهما كانت الأحوال ومهما تغيرت الظروف [٥٠].

إلا أن جستنيان نسي أمرا هاما، أو هو تناسي إياه، نسي أن الزمن قد تغير كثيرا وتغيرت الظروف، ولم يعد بوسع بيزنطة في القرن السادس الميلادي فرض إرادتها في مصر كما فرضتها روما قبل ذلك، ولم تكن تملك من الوسائل لتحقيق هذا الهدف ما كانت تملكه روما من قبل، نظرا لنمو قوة المقاومة المصرية والمعارضة الوطنية والروح القومية، وما حدث من هبوب ريح الاستقلال، والرغبة في تحقيق الذات عند أهل البلاد [٥١]، بل وعند موظفي الحكومة أنفسهم مع ازدياد قوة الكنيسة وتعاظم أثرها في حياة المجتمع المصري في ذلك الوقت، وفي ضوء هذه المستجدات بدت إصلاحات جستنيان في مصر كآخر مرحلة من مراحل النضال خاضتها الإمبراطورية البيزنطية في مصر، وآخر محاولة لفرض إرادتها علي المصريين [٥٢]، فقد اشتد النضال بين ما أدخله جستنيان من نظم وبين ما هو قائم وسائد في مصر من تقاليد جديدة، وبين ما حاولت بيزنطة فرضه من تعديلات، وما أمل المصريون سريانه في مصر، ومن ثم يمكن توقع ما قد يحدث بين الإدارة الإمبراطورية المفروضة في مصر وبين المعارضة العنيفة والنضال الشديد الذي يمكن أن يفجره السكان والموظفون المصريون [٥٣].

---

(50) Diehl: op. cit. p.471
(51) Maspero: op. cit. p.29, p.32
Rouillard: op. cit. p.179
(52) Diehl: op. cit. p.480
(53) Maspero: op. cit. p.130

الفصل الثامن

الحياة الاجتماعية فى مصر البيزنطية

الفصل الثامن

الحياة الاجتماعية في مصر البيزنطية

على الرغم من أن مصر مرت بحقب لم تكن خلالها كما كان أهلها يؤملون من التمتع بالاستقلال والسعادة وحرية اتخاذ القرار، بل تبعت خلالها قوى خارجية ، قنعت في ظلها بتبعية بغيضة مكروهة، على الرغم من ذلك، فقد تواصلت حضارتها وإسهاماتها واتصل تراثها دفعة وراء دفعة، وعاشت حياتها الاجتماعية بطريقتها، متأثرة بماضيها العظيم، وجذور حضارتها الضاربة في القدم، مهما كانت القوى المسيطرة، ومهما بلغت التبعية لهذه القوى.

وإذا كانت مصر في العصر البيزنطي قد فقدت استقلالها، وتحولت إلى ولاية تابعة للإمبراطورية البيزنطية، إلا أنها لم تتأثر كثيرا بهذه التبعية في حياتها الاجتماعية، بصفة خاصة التي تواصلت جيلا بعد جيل، حاملة جانبا كبيرا من تراث هذه الأمة ومن عاداتها وتقاليدها التي لم تستطع القوى المسيطرة محوها أو تغيير معالمها، فلا زالت جوانب هامة في حياة المصريين الاجتماعية تنساب إلى مصر من الماضي البعيد وتتواصل مسيرتها عبر الأجيال، غير متأثرة كثيرا بالحقبة البيزنطية، بقدر ما هي متأثرة بحياة المصريين عبر عصورهم القديمة، بل الضاربة في القدم، وغير متأثرة كذلك بحياة أولئك الغزاة أو بتراث تلك القوى المهيمنة، مهما بلغت هيمنتها على أقدار هذه الأمة.

وإذا كان هناك تأثير على حياة مصر الاجتماعية في العصر البيزنطي، فلم يكن مصدره تراث تلك القوة المهيمنة أو حضارتها، وإنما جاء هذا التأثير

من تحول مصر في ذلك العصر إلى عقيدة جديدة ودين سماوي عرف طريقه إلى شعب مصر، وأخلصت له تلك الأمة، فتأثرت حياة الناس بما جاء بـه ذلك الدين السماوي من مثل وقيم[1]، ومن تجارب اكتسبها المصريون بعد تحولهم إلى هذه العقيدة، وأعنى به المسيحية التي لا شك أثرت كثيرا في حياة الناس في مصر البيزنطية، وأدخلت مؤثرات كثيرة على تلك الحياة الاجتماعية، ظهرت دلائلها في مجالات متعددة من الحياة الاجتماعية لهذا الشعب[2].

فإذا بدأنا بالحديث عن مركز المرأة في الحياة المصرية في العصر البيزنطي ومكانتها الاجتماعية، تأكدنا أن هذه المكانة انسابت إلى مصر عبر الحقب القديمة، وإن تهذبت وتأثرت بظروف مصر وعقيدتها في ذلك العصر، إذ احتلت المرأة مكانة هامة ومميزة في حياة المجتمع المصري منذ أقدم العصور[3]، لأنها كانت مصدر الوحي والإلهام، ومبعث جهاد النفس والروح ورمز البر والصدق، فقد جعل المصريون القدماء الإلهة ماعت أو معات رمزا للعدالة والحق والبر وقدسوا هذه القيم في تلك المعبودة الأنثى، تأكيدا لما احتلته المرأة من مكانة هامة في حياة المصريين القدماء، بل حفظ لنا تاريخ مصر القديم أسماء إلهات وكاهنات وملكات لعبن أدوار هامة ومؤثرة في حياة مصر القديمة، وكان لهن مكانة هامة بين عظماء الرجال في تلك العصور[4].

وفي العصر البيزنطي وبعد أن اعتنق المصريون المسيحية، ظلت المرأة أيضا مصدر الوحي ومبعث الإلهام والداعية إلى جهاد النفس والروح، فضلا عن أنها حرصت على أن تسمو بنفسها وخلقها وتروض نفسها على أن تكون

---

(1) Chawick: op. cit. p. 64

(2) Ibid. p. 64

(٣) مراد كامل: حضارة مصر في العصر القبطي ص ١٦٥

(٤) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٦٥

نموذجا طيبا وقدوة حسنة أمام جموع الوثنيين ليكون ذلك مدعاه لجذبهم إلى العقيدة الجديدة، التي تحث على الطهارة والنقاء والسمو الخلقي[٥]، في الوقت الذي كان فيه المجتمع الوثني يتباهى بما هو فيه من الفساد والانحلال ويسخر من كلمة الطهر والعفاف ولا زال ماثلا في الأذهان ما كان يسود ذلك المجتمع من مهرجانات فاسدة وحفلات داعرة، خاصة في المجتمع الروماني[٦]، وبين جموع الوثنيين في كل مكان، الأمر الذي بدا في ظله النقاء والطهارة والعفاف، الذي دعت إليه المسيحية وحث عليه آباء الكنيسة الأول، أمرا بالغ الأهمية ونموذجا طيبا ومثالا يحتذي.

فقد سمت المرأة في ذلك العصر بالصلة الزوجية والعلاقات الزوجية، وأعطتها نصيبها من الاحترام والتبجيل، وارتقت بها إلى مراتب سامية، مما كان له أثر في تحول الناس تدريجيا إلى العقيدة الجديدة . فإذا كانت المرأة في مصر البيزنطية قد أدركت قدسية الزواج وارتقت بالصلة الزوجية إلى المراتب العالية[٧]، فإنها أدركت أيضا قدسية الأمومة ، فاهتمت بأولادها وسهرت على تربيتهم وتنشئتهم التنشئة الطيبة، بما يتفق وقيم ومثل العقيدة التي اعتنقتها والتي أخلصت لها، ولم تنصب أمومتها على أولادها فحسب، بل أيضا شملت الأولاد المحتاجين إلى العناية والرعاية، ممن تيتموا وفقدوا حنان الأم[٨].

ولعل خير دليل على ذلك أن أحد أعلام الفكر المصري الناضج، وأحد من أنجبتهم الكنيسة المصرية، وهو أوريجين، كان والده قدا استشهد في

---

(٥) كرمب وجاكوب: تراث العصور ج١ ص ٥٠، ص ٥٧

(6) Katz: op. cit. p. 94

(٧) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٦٦

(٨) مراد كامل: نفسه ص ١٦٧

الاضطهادات التي قام بها الإمبراطور سبتيموس سفروس في أواخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلاديين[٩]، وكان أوريجين لا يزال صبيا، وكان أكبر أخوته السبعة. وكان الإمبراطور قد صادر أموالهم بعد قتل والدهم، وعندئذ اعتنت بهم سيدة من سيدات الإسكندرية وسهرت على تربيتهم، فهيأت الفرصة لأوريجين ليصبح من أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية. ومن أهم أعلام الفكر المصري في ذلك العصر[١٠].

كما شاركت المرأة في الحياة العلمية والثقافة في مصر البيزنطية، وأجادت النساء الكتابة والقراءة وتعلمت وحصلن على قدر من العلوم والثقافة، والدليل على ذلك أنه حين شرع أورجين- باعتباره رئيسا لمدرسة الإسكندرية التبشيرية- في نسخ الكتاب المقدس، بعد أن انتهى من تسجيله في لهجات مختلفة [١١]، اختار سبع شابات يجدن الخط والكتابة. ولديهن قدرا من الثقافة الدينية والفكر المتقدم. ليقمن بكتابة الكتاب المقدس في صيغته النهائية، بعد أن جرى تنقيحه وتعديله على يديه. فوجد ضالته وتقدمت النساء السبع لأداء هذه المهمة، مما يدل على مشاركة المرأة في النشاط العلمي والفكري والديني أيضا في مصر البيزنطي [١٢].

كما أظهرت نساء مصر شجاعة عظيمة وثباتا خلال الاضطهادات الدينية التي نزلت بمصر من قبل الأباطرة الرومان. بل كانت نساء مصر في كثير من الأحيان من أسباب ثبات الرجال وعدم ارتدادهم عن المسيحية خلال

---

(9) Chadwick: op. cit. p.100
Vasiliev: op cit. Vol. 1,pp.58-9
(10) Chadwick: op. cit. p. 100
(11) Ibid. p. 106

(١٢) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٦٨

تلك الاضطهادات الرهيبة، بما بثته في قلوب الرجال من روح الإيمان والحمية والغيرة على الدين، فأقدم هؤلاء الرجال على الموت في غير تهيب، وتقدموا نحو الاستشهاد في غير وجل(١٣)، وأدى ذلك إلى تحول كثير من الوثنيين إلى العقيدة الجديدة ودخولهم في الدين المسيحي، فقد شدت المرأة من عزيمة الرجال، وبثت فيهم الشجاعة وقوة الاحتمال، ووقفت بجانبهم ترقبهم وتشجعهم، وهم يتعرضون لأقسى أنواع التعذيب والتنكيل(١٤)، بل تلقت أحيانا ما تلقاه الرجال من التعذيب والتنكيل في سكينة وثبات.

وشاركت نساء مصر في الحياة الدينية والرهبنة، والانقطاع للزهد والعبادة في دورهن أو في أديرة النساء، التي انبثت في كل جهات مصر من أقصى جنوب الوادي حتى الإسكندرية حيث انقطعت للعبادة والتأمل، ومارست أيضا العمل اليدوي والعقلي والخدمة الاجتماعية للبيئة المجاورة، فاختارت المرأة أن تكون راهبة أحيانا أو شماسة أحيانا أخرى أو كليهما معا(١٥)، فتفقدت المرضى ورعت المسجونين واعتنت بالمعوزين والغرباء، وزارت العائلات لرعاية الناس وتخفيف آلامهم، وألحت في عمل الخير، وأنيط بكل واحدة منهن رعاية حي من الأحياء، وخدمة سكانه وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم وتشجيعهم على الحضور إلى الكنيسة بانتظام، تصاحبهم أحيانا لينالوا حظهم من الرعاية الروحية، أو تقدم تقارير عنهم في

---

(13) Camb. Med. Hist. Vol. 1, p.95
Thompson: The Middle Ages. Vol. 1, p.32
(14) Katz :op cit. p. 65

(١٥) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٦٩-١٧٠

أحيان أخرى للكاهن، فضلا عما وكل إليهما غير ذلك من الأعمال الخيرية، والواجبات الدينية ، وإقامة الشعائر والطقوس [١٦].

وإلى جانب ذلك عملت المرأة في خدمة الطب والتطبيب، إذ تميزت بعض النساء بمعرفتهن بالأعشاب وفوا ئدها الصحية ، وبتركيب العقاقير، فعملن في هذه الخدمة، وقمن بتركيب العقاقير للمرضى مجانا في أغلب الأحيان، على الرغم من أن كثيرا منهن لم يتلق العلم من الأساتذة أو يذهبن إلى مدارس متخصصة، وإنما جاءتهن المعرفة بالتسليم من امرأة عن امرأة [١٧]، وساعد على ذلك أن البيئة التي عشن فيها، كانت في أغلب الأحيان بيئة بسيطة يعيش معظم أهلها على الفطرة ، ويندر فيها من يعرف القراءة أو الكتابة، أي أن أهلها من السذج تندر فيها دراسة مثل هذه العلوم، ليصبح الطب فيها بالممارسة والتسليم من شخص إلى شخص.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن الأسرة والعادات في مصر البيزنطية، نجد أن الأسرة كانت وحدة البناء الإجتماعي، وأظهر رجال الدين اهتماما كبيرا بحياتها كأساس لبناء مجتمع سليم ، فغدت رابطة الزواج ركنا هاما من أركان المجتمع[١٨]، كما غدت حفلات الزواج فرصة مواتية لتعبر فيها الأسر المصرية عن مشاعر الفرح والابتهاج بصورة لا تختلف كثيرا عما نعهده الآن ، بإشراك الجيران والفقراء في مظاهر الفرح وبتوزيع الكساء والمأكل والحلوى عليهم، في حين كانت الأسر الثرية بالذات تحتفل بهذه المناسبة لعدة أيام، فتنحر الذبائح، وتقيم الولائم وموائد الطعام وتوزع الكساء على الفقراء، وتتبارى في إكرام الأهل والجيران، وفي الليلة السابقة على العرس يجتمع

---

(16) Bury: op. cit. Vol.1 , p. 386

(١٧) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٧١

(18) Chadwick : op. cit. p.59

الأهل والأقارب في بيت العروس لتوديعها. وفي ليلة العرس ذاتها يجتمعون في بيت العريس للاحتفال به. وكذلك في صبحية العرس ، حيث يتلقى العروسان هدايا العائلة والأصدقاء[١٩].

وحينما يولد للعائلة طفل، يجري الاحتفال به في اليوم السابع لميلاده، فتدعو الأسرة الكاهن ليبارك الوليد ويجري اختيار اسم لهذا الوليد، وتقام طقوس في تلك المناسبة فترفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة والوليد، ويشترك الكاهن مع الأسرة في اختيار اسم للوليد وغالبا ما يكون هذا الاسم من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بمثلهم العليا، وعند بلوغ الوليد أربعين يوما من عمره يحمل إلى الكنيسة ليعمد وينال سر العماد[٢٠]، ويختارون له راعيا روحيا ينوب عن الكنيسة في رعايته روحيا إلى أن يصل إلى سن الدراسة فيجرى إلحاقه بمدرسة الكنيسة.

ومن العادات التي سادت في مصر البيزنطية، أنه حين تبنى الأسرة منزلا جديدا أو تنتقل إلى منزل جديد، يدعى الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة ورش الماء المقدس في جنبات المنزل استجلابا للخير ودرءاً للشر[٢١] ، خشية أن يكون المكان غير مريح أو تسكنه الشياطين، ففي مصر فقط دون سائر البلاد يعتقد الناس أنه إذا قتل إنسان في مكان ما، فإن روح هذا القتيل أو شبحه تظل ترتاد المكان أو تسكنه، وظل هذا الاعتقاد ساريا بين المصريين، وربما كان سببا فيما أقدمت عليه الأسر المصرية من إقامة

---

(١٩) مراد كامل : نفس المرجع ص ١٧٣

(20) Chadwick : op. cit. p. 59

(٢١) مراد كامل : نفسه ص ١٧٦

الشعائر والطقوس والصلوات ورش الماء المقدس عند الانتقال إلى منزل جديد، أو عند بناء منزل جديد[٢٢].

وإذا نذرت الأسرة نذرا عند شفاء مريض أو الخروج من ضائقة أو شر أو نجاح شخص في عمل أو تجارة أو دراسة، دعت الأهل والأقارب والجيران والفقراء إلى سهرة حافلة يجلسون فيها في حلقة يتوسطها مرتلو المدائح والألحان الدينية وقارئو السير الشعبية والأشعار، حيث يتبارون في ارتجال مقطوعات شعرية تدور معانيها حول المناسبة التي يجتمعون للاحتفال بها، وسط بهجة وسرور وبعد تقديم الولائم وموائد الطعام[٢٣]، كما هي العادة دائما.

أما في الأحزان والمآتم وحالات الوفاة في مصر البيزنطية، فجرت العادة على أن تشيع الجثة إلى الكنيسة، حيث تقام صلاة جنائزية استمطارا للرحمة وطلبا للعزاء لأهل المتوفى، ثم تقام صلاة خاصة في بيت المتوفي في اليوم الثالث للوفاة لتخفيف وطأة الحزن علي أهله وفي اليوم السابع والخامس عشر والأربعين تقام صلوات و قداسات في الكنيسة[٢٤]، كانت في واقعها فرصا مناسبة للتنفيس عما في النفس من آلام والتعبير عن مشاعر الحزن والأسى.

غير أنه جرت أحيانا عدات مرتبطة بهذه الأحزان لا سيما في صعيد مصر، وعند النساء بالذات، اختلطت بمظاهر وثنية، ربما انسابت إلى هذا المجتمع المسيحي من الماضي البعيد، ومن تراث مصر القديمة، فيها كثير من المغالاة والتجاوز في إظهار الأحزان مثل: لطم الخدود وشق الثياب وحل

---

(٢٢) مراد كامل : نفسه المرجع السابع ص ١٧٦

(٢٣) مراد كامل : نفسه ص ١٧٧

(24) Chadwich : op. cit. p. 268

الشعر وصبغه بالنيلة، والضرب بشدة على الصدور، وفقد زمام النفس والتمايل باهتزازات توقيعية مع أنغام التعديد، التي هي غالبا تعديد مآثر الفقيد وقدر الخسارة التي لحقت بفقده، إلا أن بعضها ينحرف إلى عبارات التذمر وينزلق إلى معاني الجحود[٢٥].

لكن من الأمور الطيبة في هذه المناسبات ، وما يدل على ما كان من روح التآلف والتضامن بين المصريين إسراع العائلات المجاورة لمنزل المتوفى للمشاركة في تقديم العزاء تخفيفا لوطأة الحزن على أهله وشغلهم عن التفكير في هذا الحزن من ناحية، وكذلك مشاركتهم في استضافة المعزين القادمين من قرى أخرى أو بلاد بعيدة بتقديم الطعام وأماكن المبيت من ناحية أخرى[٢٦]، وكذلك إظهار شعور الامتنان والشكر لهؤلاء المعزيين المتجشمين عناء الانتقال للتعزية من ناحية ثالثة.

وكان الخروج إلى المقابر من العادات القديمة التي ورثتها مصر البيزنطية عن الماضي، إذ يعتبر ذلك من دلائل الوفاء ومن مظاهر التكريم لذكرى المتوفى، خاصة الخروج في أيام الأعياد وفي المناسبات الخاصة، حيث توزع الصدقات وتقدم المأكولات للفقراء، وترفع الصلوات طلبا للرحمة للفقيد[٢٧]، لكن الناس غالوا أحيانا في ذلك، فباتوا في المقابر عدة ليال وتمادوا في إظهار الحزن والأسى في تلك المناسبات.

وجرت كذلك عادة بعض الأسرات في ذلك العصر، أن تتناوب إقامة الولائم في إيوان ملحق بالكنيسة، حيث يجتمع الناس حول مائدة يتناولون

---

(٢٥) مراد كامل : نفسه المرجع ص ١٧٨

(٢٦) مراد كامل: نفسه ص ١٧٩

(27) Chadwich: op. cit. p. 268

معا الطعام، بينما يقوم أفراد هذه العائلات بخدمتهم أثناء هذه الولائم. ويبدو أن الكنيسة شجعت هذا التقليد لتقوية الروابط الاجتماعية بين الناس من ناحية ، وإزالة الفوارق الاجتماعية بين الطبقات من ناحية أخرى وهذا الدور يضاف إلى الأدوار التي لعبتها الكنيسة في كل مكان [٢٨].

هذا فضلا عما ألحق بالكنيسة من غرف لإيواء الغرباء واستضافة المسافرين، ورعاية الفقراء، وكلها واجبات رأت الكنيسة فيها خدمة المجتمع والناس، وكان يتكفل بهذه أحيانا بعض الموسرين، أو تتكفل بها الكنيسة أحيانا أخرى من حصيلة النذور والهبات التي كانت تتلقاها من الخيرين[٢٩]، كما ألحقت بالكنيسة أيضا مدرسة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة، والحساب ودراسة الكتاب المقدس وسير القديسين وتعليم الألحان الدينية الكنسية، وأحيانا أخرى تخريج رجال الدين[٣٠]، كما كان بجوار الكنيسة في بعض الأحيان مستشفى لعلاج المرضى لا سيما المرضى من فقراء الناس ومن تعوزهم الحاجة، ووجود مثل ذلك يعد مظهرا من مظاهر التضامن الاجتماعي ودليلا على دور الكنيسة في الحياة الاجتماعية[٣١]، في مصر البيزنطية.

بقى أن نشير إلى جانب من الحياة الاجتماعية التي عاشتها بعض الأسر المصرية الموسرة خاصة في الريف المصري من كبار الملاك الزراعيين، الذين ازداد نفوذهم على حساب صغار الحائزين للأرض والذين أدخلوا تحت حمايتهم من جاورهم من الفلاحين، فاشتدت شوكة هؤلاء الإقطاعيين وازداد

---

(28) Ibid. p. 98

(٢٩) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٨٢

(30) Chadwick: op. cit. pp. 156-7

(31) Ibid. p. 98

عددهم في القرن الخامس بصفة خاصة [٣٢]، ثـم لم يلبث أن تـألف منـهم في القرن السادس الميلادي طبقة من النبلاء الإقطاعيين. مثال ذلك أسرة أبيون في البهنسا ، الذين كانوا مـن كبـار الأعيـان وظفـروا بالوظـائف العليـا في مصـر وبالرتب الرفيعة [٣٣]، وحازوا أملاكا شاسعة لا في البهنسـا فحسـب، بـل في سائر أنحاء الفيوم، بل امتلكوا قرى بأكملها بما يحيط بها من أراضي، وعاش أفراد هذه الأسرة في قصورهم في المدينة علـى نحـو مـا يعيـش الأمـراء، وتـولى زراعة أراضيهم الفلاحون والأقنان، وكـان لأسـرة أبيـون هـذه أسـطول صغـير يسير في نهر النيل واتخذوا لأنفسهم جندا خصوصيين وشـرطة تولـوا حراسـة أراضيـهم وماشـيتهم وآلاتـهم الزراعيـة، بـل أن هـذه الأسـرة سـكت عملـة باسمها[٣٤].

وإلى جانب أسرة أبيون، كان هنـاك أسـر أمونيـوس وفويبـامون وغـير هؤلاء كثيرون غدا لهم من القوة ما كان يكفي لمقاومة الحكومـة، وتقلـد أفـراد هذه الأسر الوظائف الهامة فازداد نفوذهـم وقـوى سـلطانهم في المـدن والقـرى التي سكنوها، وإن أظهر بعض هؤلاء السادة العداء للسيادة البيزنطية وكانت تحركهم أحيانا نوازع وطنية، وهذا التطور الاجتماعي جعل مـن كبـار المـلاك السادة الحقيقيين للبلاد، الذين اصبحوا يمثلون خطرا على السيادة البيزنطية في مصر [٣٥].

---

(32) Rouillard: op. cit. p. 8 , p.12
(33) Bell : Egypt from Alexander the great to the Arab conquest, pp. 121-122, Diehl: op. cit. p. 456
(34) Bell, op. cit. p.122
Rouillard: op. cit. p. 167
(35) Diehl: op. cit. p. 471

غير أن ما يعنينا الآن أن هذه الأسر الموسرة عاشت حياة اجتماعية صاخبة تراوحت بين التعنت إزاء فلاحيهم وأقنانهم الداخلين في خدمتهم أحيانا، وبين الظهور بمظهر الأمراء في قصورهم، بما يستتبعه ذلك من رعاية الداخلين في محيط أراضيهم أحيانا أخري، لكنهم على كل حال مثلوا قطاعا من سكان مصر في العصر البيزنطي، وكانت لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة بهم. ابعدتهم في الغالب عن جموع الناس في مصر وعزلتهم عن قطاعات كبيرة من عامة الناس من أهل مصر[٣٦].

أما عن الحياة الاجتماعية في مدينة الإسكندرية في العصر البيزنطي، فقد كان سكان المدينة حينئذ أخلاطا من الناس أهمهم اليونانيين الذين شكلوا الأرستقراطية المحلية، وكذلك الأجانب الذين اجتذبتهم الأهمية التجارية والصناعية للمدينة من السوريين والبيزنطيين والأحباش والعرب والهنود وكذلك اليهود الذين شكلوا جالية كبيرة في المدينة، ثم العنصر المصري الذي اعتبر أساس سكان المدينة، والذين تحدثوا اللهجة القبطية منذ أواخر القرن الخامس الميلادي، كل ذلك جعل للإسكندرية طابعا اجتماعيا خاصا قوامه الاختلاط[٣٧].

وإذ تعددت الطبقات الاجتماعية في الإسكندرية وتنوعت، فقد تميزت فئة من سكان المدينة بالثراء والغنى، إذ ضمت طائفة من الأغنياء من رؤساء البيوت التجارية والمصارف والأسرات العريقة من النبلاء المحليين، وهذه الفئة جرى اختيار كبار الموظفين من بينها، وارتبطت هذه الفئة بالحكومة

---

(36) Rouillard: op. cit. p. 167
(37) Diehl. L'Egypte Chretienne, p.482

البيزنطية وهوت إليها، واستندت الحكومة البيزنطية إلى هذه الطبقة بالذات كدعامة لها[٣٨].

كما كان هناك رجال الدين الذين اشتهروا بالثراء والغنى خاصة بطريرق المدينة لما كانت تحوزه الكنيسة من أملاك واسعة من الأراضي والعقارات من هبات الأباطرة وبعض الأغنياء والخيرين، فضلا عما كان لها من أسطول تجاري وسفن تحمل المتاجر والسلع وترتاد مواني البحر المتوسط والبحر الأدرياتي، حتى جنت الكنيسة أموالا طائلة من هذه التجارة. فتهيأ لبطريرق الإسكندرية فرصة تخصيص رواتب لفئات من الفقراء بانتظام ولمن يقصده من طبقة العامة والكادحين، وتذكر وثائق ذلك العصر أن البطريرق كان يطعم نحو سبعة آلاف وخمسمائة من فقراء المدينة[٣٩].

واشتهر أهل الإسكندرية حينئذ بسرعة الإثارة وحدة المزاج وعدم الاكتراث بالسلطة أو الحكومة ونزعوا إلى الثورة والتمرد وإحداث الشغب، فضلا عما ذاع عنهم من حب المرح والسرور والميل للعبث واللهو وارتياد المسارح والسيرك وغير ذلك من وسائل التسلية، وحين قرر الإمبراطور جستين الأول طرد كل المشتغلين بالرقص من بلاد الشرق، استثنى من ذلك الإسكندرية، فقد حرصت الحكومة البيزنطية على أن توفر لأهل الإسكندرية هذه المتعة إذ كانت الإسكندرية محل اهتمام الحكومة البيزنطية [٤٠]، كما عرف عن أهل الإسكندرية أيضا سرعة الخاطر وحب الثرثرة، فلما انتشرت العقيدة المسيحية اشتد ميلهم إلى المجادلات الدينية، واحتدم النزاع بين

---

(38) Ibid. p. 483

(٣٩) العريني: المرجع السابق ص ٢٥٥-٢٥٦

(40) Johnson : Economic Studies, p.298

الفئات المختلفة دينيا وعرقيا ، فطفح تاريخ الإسكندرية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بالمعارك والنضال المرير، حتى فتح العرب مصر والإسكندرية [٤١].

ونظرا لأن الإسكندرية ظلت حتى القرن السادس الميلادي مدينة الترف والثراء واشتهرت بالرخاء المادي والانتعاش الاقتصادي من عائد التجارة، فقد أضفى هذا على سكانها نوعا من البهجة والسعادة [٤٢]، تمثل في اهتمامهم بالاحتفالات والأعياد، حين يشيع العبث والمجون، ويحي فريق من الناس حياة صاخبة وربما كان ذلك سببا فيما وجهه كلمنت السكندري في أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع من نقد شديد إلي نساء الإسكندرية لاشتداد ميلهن إلي استخدام المساحيق وما ينزعن إليه من ارتداء المنسوجات الحريرية والثياب الموشاة بالذهب والثياب القصيرة التي تكشف الركبة تقليدا لفتيات إسبرطة وما اتخذنه من الأحذية التي طبع علي نعالها عبارات الحب، واشتد كلمنت السكندري في لوم النساء لاهتمامهن بصبغ شعورهن واتخاذ الشعر المستعار أحيانا مع جعله في تراكيب هندسية بالغة التعقيد [٤٣].

فضلا عن أن نساء الإسكندرية لجأن، إلى تزيين الوجوه وطلاء الخدود والجفون واستعمال الكحل للعيون والرموش، ووضع اللون الأزرق حول العينين والأحمر على الوجه، وتعطرن بالعطور واستخدمن الزيوت والأدهان، واتخذن الأثواب الدقيقة التطريز و الحلي المتنوعة التي تدل على الثراء، خاصة الأقراط الدائرية الواسعة في الآذان، أو الأقراط ذات الشكل العنقودي والأساور

---

(٤١) العريني: المرجع السابق ص ٢٥٢، Deihl: op. cit. p.482

Bury : op. cit. Vol. 1, p. 216

(42) Johnson: op. cit. pp.99-107, pp.153-4

(43) Diehl: op. cit. p.488

السميكة في المعاصم، والتي تنتهي برأس حية من الناحيتين، وبعض هذه الحلي كان مرضعا بالأحجار الكريمة ، فضلا عن وضع الخلخال في الأرجل مصنوعا أحيانا من الفضة أو الذهب، واستخدام المكاحل والأمشاط من العاج[٤٤].

وأكد ذلك ما عثر عله من المنسوجات المختلفة ذات الألوان الزاهية والرسوم المتنوعة والحلي الجميلة كالعقود الذهبية المنتظمة في صفوف، والخواتم والأساور والجلاجل (الحلقان) وغيرها من الحلي ، وعرفت هذه السلوكيات زمن كلمنت السكندري، وظلت سائدة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين[٤٥].

ولم تكن زينة النساء وتبرجهن وميلهن إلى الحياة الناعمة هو السبب الوحيد لنقد كلمنت السكندري، وإنما تناول نقده أيضا الإسراف في الطعام والشراب، الذي اعتبره من دلائل الانحلال الخلقي بالمدينة، كما اعتبر الحياة الوادعة والميل للكسل والخمول وحب الملاهي والشغف بالسيرك والولع بالزهور، نوعا من هذا الانحلال الخلقي أيضا، ومع هذا اشتهر السكندري - كما سبق أن أشرنا - بسرعة الخاطر والذكاء الفطري وحب الحياة الصاخبة، واستمرت هذه الصفات طوال العصر البيزنطي واضحة جلية في إطار من التقاليد الموروثة[٤٦].

ومن المحقق أن النماذج المشار إليها، لم تكن تمثل إلا جانبا من جوانب حياة المجتمع السكندري في ذلك العصر، بينما ظلت جوانب أخرى

---

(٤٤) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٤٦

(45) Diehl: op. cit. p.488

(٤٦) العريني: المرجع السابق ص ٢٦٨

طاهرة نقية عظيمة، وتمسكت فئات أخرى في ذلك المجتمع بالتقاليد المعتدلة المستمدة من العقيدة المسيحية. فقد أشارت كثير من الوثائق ومصادر ذلك العصر، إلى ما كان يلتزم به الأزواج من واجبات تجاه أسرهم، وأشارت إلى متانة تكوين الأسرة في ذلك المجتمع وإلى ندرة حدوث الطلاق أو الانفصال بين الزوجين، إلا في حالات خاصة وقليلة ولأسباب قوية، وعينت تلك الوثائق الأسباب وما كان يحدث أحيانا من انفصال بين الزوجين، مما أكد ندرة هذه الحالات وأكد متانة تكوين الأسرة في ذلك المجتمع(٤٧).

وليس معنى ذكر الحياة الناعمة في مدينة الإسكندرية، وحياة الترف والثراء، أنه لم يكن هناك فقراء، فالواقع أن النصوص تشير إلى عدد الفقراء في مدينة الإسكندرية لم يكن قليلا، بل أن حالتهم بلغت درجة كبيرة من السوء، مما جعل الحكومة تهتم بتقديم الطعام لهم وتتكفل بوقود الحمامات العامة وبعض النفقات الأخرى لهذه الطبقة من الفقراء في الوقت الذي تكفلت فيه الكنيسة أيضا برعاية كثير من هؤلاء الفقراء منعا لما يمكن أن يقع بين طبقات المجتمع في الإسكندرية من منازعات وأحقاد بسبب الفوارق الاجتماعية في العنصر الثروة والجاه (٤٨).

---

(47) Diehl : op. cit. p. 490
(48) Ibid. pp. 482-3

الفصل التاسع

الإسكندرية في العصر البيزنطي

الفصل التاسع

الإسكندرية في العصر البيزنطي

حققت الإسكندرية منذ بنائها قديما شهرة عظيمة بين مدن العالم القديم لأسباب كثيرة، لكونها مركزا تجاريا هـ [1]، ولرخائها وازدهارها وصلاتها بالمدن المطلة على البحر المتوسط وبلاد الشرق من ناحية، ولكونها كذلك مدينة البذخ والثراء والجاه، بفضل ما كان لها من نشاط تجاري وصناعي وعظمة اقتصادية من ناحية ثانية، ولكونها أيضا حاضرة العلم والمعرفة والفن ومركز الإشعاع الفكري والديني والثقافي من ناحية ثالثة[2].

فقد حظيت بمكانة هامة بين المدن المطلة على ذلك البحر وبلاد الشرق، كما حازت شهرة كبيرة لما حققته من ثراء وجاه وعظمة اقتصادية بفضل رواج تجارتها وتقدم صناعتها وما كانت تمثله من قوة اقتصادية كبيرة في تلك العصور[3]، كما احتلت مكانة فريدة بين مدن الدنيا قديما بفضل ازدهار علومها وفنونها، وكونها حاضرة العلم والمعرفة، وهي الجوانب التي تدين لمكتبتها ومتحفها، والتي ارتقت بفضلها كثيرا، ونالت تلك المكانة الرفيعة بين مدن الدنيا في ذلك الوقت، فضلا عن ازدهار مدرستها التي زخرت بنشاط علمي وثقافي كبير[4]، فلما انتصرت المسيحية حظيت هذه المدرسة بشهرة عظيمة في دراسات فريدة، كانت محل الاهتمام في كل مكان، فظلت الإسكندرية فى القرن السادس الميلادي موطن الشعراء والأدباء

---

(1) Lot : op. ci . p. 62 , p.71
(2) Vasiliev:op.cit. vol 1,p. 54, pp. 116-117
(3) Bury: op. cit vol . 1,p.213
(4) vasiliev:op.cit. Vol. 1,pp.117-118

والفلاسفة والعلماء المبرزين في مختلف الفروع العلمية، وصار للإسكندرية مكانة مرموقة في تاريخ الآداب والعلوم والفنون الحضارة[٥].

ولقد استمرت الإسكندرية في العصر البيزنطي كما كانت في العصرين الروماني والبطلمي حاضرة البلاد، وأهم مدن القطر المصري[٦]، لأنها ظلت تحتفظ بعظمتها وفخامتها وما تميزت به من حركة عمرانية فريدة، وما كان لها من مواني عظيمة: ميناءين علي البحر المتوسط من ناحية، وميناء داخلي علي بحيرة مريوط من ناحية أخري، فلهذه الميزات ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر وأهم المدن في مصر البيزنطية وأعظم المواني المطلة علي البحر المتوسط [٧].

واشتهرت الإسكندرية بشوارعها الفسيحة المستقيمة والمتقاطعة مع بعضها البعض ودورها الجميلة المؤلفة من طبقات عديدة، والتي تعلوها أبراج شاهقة، بالإضافة إلي ما كان بها من آثار جميلة وأسوار منيعة، وما زخرت به ضواحيها من المنازل الجميلة والحدائق الغناء [٨]. وكان قصر الوالي البيزنطي يقع بشرق المدينة، يشرف علي الميناء الشرقي، وكان فيما مضي هو قصر ملوك البطالمة، ثم اتخذه من بعدهم الولاة الرومان مستقرا، وبالقرب من ذلك القصر يقع متحف الإسكندرية ومكتبتها، وكانا من مراكز النشاط الفكري والعلمي بالمدينة ومن مفاخر مدينة الإسكندرية، وكان يفد إلي المكتبة بالذات العلماء والفلاسفة وطلاب العلم من كل جهات العالم [٩].

---

(5) Lot: op, cit. p.373

(6) Bell: op. cit. p.35,p.126

(٧) العريني: المرجع السابق ص٢٤٨-٢٤٩

(٨) العريني: المرجع السابق ص٢٤٩، Diehl: l'Egypte Chretienne,p.479

(٩) مراد كامل: المرجع السابق ص٧٥

ويمتد شارع رئيسي يقطع المدينة من شرقها إلي غربها وهو شارع تجاري عرف باسم شارع بلاتيا Plateia ، وسط الحدائق والأزهار، وتشرف علي هذا الشارع المدرسة التي اشتهرت باسم الجمناز، كما أصطف علي جوانب هذا الشارع الحوانيت الكبيرة التي شكلت سوق المدينة ومركز البيع والشراء فيها، كما ارتفع قوس النصر في الميدان الكبير الذي يتوسط المدينة، أما في ظاهر الإسكندرية وخارج الباب الشرقي، فكان يقع الملعب وميدان السباق [١٠]، ودور اللهو والمسارح، وانبثت الحمامات العامة وصهاريج المياه المقامة علي أعمدة تحت الأرض والتي صارت نموذجا لما شيد منها في القسطنطينية.

وازدادت أهمية الإسكندرية ابتداء من القرن الرابع الميلادي، حين أصبحت من مواطن الدفاع عن المسيحية، وحين غدت مركزا هاما للمناظرات الدينية ومكانا للتعبير عن الحماسة الروحية، ففيها نبتت الأريوسية، ومنها انتشرت المونوفيزيتية إلي سائر أنحاء الشرق [١١]، كرد فعل للنسطورية وبها ازدادت أهمية الديرية، وحياة المتنسكين والمتفردين أمثال بولا وأنطون والمترهبين أمثال باخوم وشنودة الأتريبي وسرابيون، وفي الإسكندرية تطلع أسقفها في القرن الخامس الميلادي إلي أن يصبح بابا للكنيسة الشرقية، معتمدا علي ما أسهمت به الإسكندرية في إثراء العقيدة المسيحية، وما حازه رجالها الأوائل من شهرة في الخافقين، وبفضل ما كان حوله من رهبان يبذلون له الطاعة والخضوع، وما يخصه به سكان مصر كلها من تأييد واحترام [١٢].

---

(10) Bell: op. cit. p.53
(11) Bury: Hist. Of the later Roman Empire, pp.348-9
(12) Chadwick: *op. cit.* p.194

ثم ما لبثت الروح القومية أن انبعثت في مدينة الإسكندرية، بفضل انتصار المسيحية لاسيما وأن الجانب الأكبر من حضارتها ظل مصريا خالصا، والدليل على ذلك ما حدث من تدمير معبد سرابيس أو السرابيوم سنة ٣٩١م[١٣] زمن الإمبراطور ثيودسيوس العظيم، وعد ذلك علامة على ما تكنه المسيحية من كراهية وعداوة للوثنية والهللينية، وقد أشرف بطريرق الإسكندرية حينئذ " ثيوفيل" بنفسه على تخريب معبد سرابيس[١٤]، حتى لم يبق من هذا المعبد وتماثيله سوى تمثال واحد، ليكون هذا دليلا على انكسار الوثنية، ومن المرجح أنه أقيم مكان السرابيوم كنيسة جرى تدشينها باسم القديس يوحنا المعمدان في مايو سنة ٣٩٥م، واتخذت اسم أركاديوس[١٥].

ولقد كثرت العمائر الدينية في الإسكندرية من الكنائس والأديرة والمشاهد، فضلا عن المنشآت الخيرية التي تولى البطريرق إدارتها العليا، والتي بلغ عدد العاملين بها في أوائل القرن الخامس الميلادي، نحو ستمائة

---

(١٣) لم يكن سرابيس إلها وطنيا مصريا، فقد أحضر تمثاله أول ملوك البطالمة من شاطئ بنطس حيث عبده أهل سينوب مدة طويلة، ولما رفض المصريون قبول هذا الإله الأجنبي عمد الكهنه- بإغراء البطالمة- إلي وضع تاريخ وطني لهذا الإله، فنسبوه إلي أوزيريس وإيزيس،فأصبحت الإسكندرية التي اختصها هذا الإله بحمايته تفخر قديما باسم مدينة سرابيس ، وأقيم له معبد فيها ينافس الكابيتول عظمة وقوة وروعة، ودعم داخله تدعيما قويا بالأقواس وقسم إلى أبهاء وغرف تحت الأرض وأحيطت مبانيه المقدسة برواق مربع الزوايا، وتجلت في قاعاته وتماثيله الرائعة عظمة الفنون وتقدمها.،انظر : جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج٢ ص ١٤٧-١٤٨، Bell: op. cit. p.39

(14) Bury: op cit, I, p. 149, Chadwick :op . cit p.168

(١٥) العريني: نفسه س ٢٥٠

موظف، وكانت الإسكندرية قد انقسمت منذ زمن قديم إلى خمسة أحيـاء إلا أن هذه الأحياء ازداد عددها بمضي الزمن وتناسبا مـع اتسـاع رقعتـها وكـثرة السكان بها، ولذلك كان بها في البداية خمس أبروشيات وخمس كنـائس زاد عددها بمرور الأيام[16].

وعلى الرغم من ازدياد العنصر المصري في مدينـة الإسكندرية بمضـي السنين، إلا أنه ظلت لها مسحة يونانية تجعلها تبدو وكأنها مدينة أجنبيـة غريبة عن مصر التي اتخذتها عاصمة لها، ويشـير المؤرخـون إلى هـذه الصفـة التي لصقت بالإسكندرية في العصر البيزنطي، حتى أن سكان البـلاد مـن المصريين كانوا يعتبرون التوجه إلى الإسكندرية كأنه رحيل عن مصـر وخـروج من البلاد والانتقال إلى بلد آخر[17].

هذا عن أهمية المدينة ومعالمها وصفتها، أما عن سـكان الإسـكندرية في ذلك العصر، فقد سبق أن أشرنا إلى أنـهم كـانوا أخلاطـا مـن النـاس ، بلـغ عددهم في القرن السادس الميلادي نحو ستمائة ألـف نسـمة اعتمـادا علـى مـا ذكره أحد كتاب القرن الخامس الميلادي من أن المدينة كانت تمـاثل رومـا في عدد سكانها وفي ثرائها أيضا[18]، واعتبر اليونـانيون أهـم سـكانها إذ تـألفت منهم الأرستقراطية المحلية التي تعتمد عليها الحكومة كدعامة لهـا ، والـتي ينتخب من بين أفرادها أعضاء مجلس سناتو الإسكندرية، ثـم هنـاك اليـهود الذين مثلوا عنصرا هاما من عناصر سكان المدينة ، وكان لهم فيها حي خاص ولهم ديانتهم وكتابهم وتقاليدهم الموروثة [19] والذيـن ظلـوا حتـى سنة ٤١٥م

(16) Bell: op. cit p. 51
(17) Diehl:op. cit. p. 480
(18) Bury: op. cit. vol.1, p.88, p. 216

(١٩) مراد كامل: المرجع السابق ص ٧٥

يؤلفون جالية كبيرة بالمدينة ، حتى قام البطريرق كيرلس في نفس هـذه السـنة بطردهم من المدينة ، وأغلق معابدهم، وأمر باستباحة دورهم ونهبها[٢٠] ، وعلى الرغم من عودتهم إلى الإسكندرية بعد ذلك ، إلا أنه لم يعد لهـم مـا كـان مـن مكانة من قبل، غير أن العنصر المصري اعتـبر أيضـا أسـاس سـكان المدينـة ، وتألف منه معظم سكان المدينة ، وترتب علـى ذلـك شـيوع اسـتخدام اللهجـة القبطية بالمدينة منذ أواخر القرن الخامس الميلادي[٢١]،هذا فضلا عمن قدم إلى الإسكندرية من الأجانب الذين اجتذبتهم أهمية المدينـة التجاريـة ، ومـا كـان لجامعتها من شهرة ذائعة ، فصارت الإسكندرية ملتقى السوريين واليونـانيين الوافدين من آسـيا الصغـرى وبيزنطـة والتجـار القـادمين مـن أثيوبيـا وبـلاد العرب ، بل جاء إليها أناس من الهند وجنوب شرق آسيا ، كـل ذلـك جعـل للإسكندرية طابعا خاصا قوامه الاختلاط، كالذي اشتهرت به المدن الواقعة في شرق البحر المتوسط [٢٢].

وكما سبق أن أشرنا اشتهر أهل الإسكندرية منـذ قديـم الزمـن بسـرعة الإثارة وعدم الاكتراث بالسلطة أو الحكومة ، ونـزع سـكانها إلى حـب الثـورة والتمرد والميل إلى الشعب وإحداث الاضطرابات ،فلم يجـد الرومـان مدينـة في إمبراطوريتهم تماثل مدينة الإسكندرية في هذه الصفات التي تجعل حكم هـذه المدينة من الصعوبة بمكان ، فقد كانت شوارعها تعج دائما بالثوار والمشـاغبين وتشهد الاشتباكات بـين المواطنـين وجنـود الحكومـة وانـدلاع الثـورات ضـد الولاة[٢٣] ، يضاف إلى ذلك ما ذاع عنهم من حب المرح والسـرور ، فضـلا عمـا

---

(20) Bury: op. cit. vol. 1,p. 216
(21) Vasiliev: op. cit. vol. 1,p.90
(22) Diehl:op, cit p.482
(23) Bury : op. cit . Vol.1,p.216
Mommsen: History of Rome, vol. 2, p. 264(Eng.trans.)

اتصفوا به من سرعة الخاطر وحب الثرثرة والميل إلى العبث واللهو وارتياد المسارح والسيرك، ولما انتصرت المسيحية اشتد ميلهم إلى المجادلات الدينية واحتدم النزاع في المدنية بين الأحزاب المتنافسة والمتنازعة والفئات المتعادية من الوثنيين واليهود والمونوفيزيتيين على اختلاف ميولهم وأهوائهم، فطفح تاريخ الإسكندرية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بالمعارك والمذابح وبما شنه المونوفيزيتيون ضد الحكومة البيزنطية من حرب مريرة ونضال عظيم استمر إلى نهاية العصر البيزنطيين في مصر [٢٤].

ولهذا اهتمت الحكومة البيزنطية باستتباب الأمن في المدينة وإقرار السلام فيها لأتساع رقعة الإسكندرية وامتداد مساحتها من ناحية، ولكثرة سكانها وازدياد عددهم من ناحية أخرى، ولتحقيق هذه الغاية لجأت الحكومة إلى ما سلكته في القسطنطينية من وسائل، فقد درجت على تقديم الطعام للعامة من سكان المدينة وتوفير لهم وسائل اللهو والتسلية، فقرر الإمبراطور دقلديانوس سنة ٣٠٢م أن يوزع على فقراء الإسكندرية جانبا من القمح الذي جرت جبايته من المصريين[٢٥]، واشتهر هذا القدر من القمح والذي كان برسم مؤونة سكان الإسكندرية باسم " الجراية" وابقى الأباطرة للمدينة هذا الامتياز الذي منحه لها دقلديانوس، وحرص الإمبراطور جستنيان على عدم تأخير توزيع هذا القمح خشية أن يؤدي هذا التأخير إلى إثارة أهل الإسكندرية المشهورين بحدة المزاج وسرعة الإثارة [٢٦].

كما تكفلت الحكومة أيضا بوقود الحمامات العامة، وببعض النفقات الأخرى وتولت الكنيسة من جانبها بذل المعونة للمحتاجين،ومثلت هذه

---

(24) Bury:op. cit.1,p 482
(25) Diehl: op. cit.p.'482

(٢٦) ا... يني: المرجع السابق ص ٢٥٣

الإعانات أهمية كبيرة لقطاع كبير من سكان المدينة والدليل على ذلك أن الحكومة كانت تلجأ أحيانا وخلال اندلاع الثورات في الإسكندرية إلى وقف صرف الجراية، وإغلاق الحمامات العامة لقمع الثورة، وإنهاء مقاومة سكان الإسكندرية للحكومة[٢٧].

واشتهر سكان الإسكندرية أيضا بميلهم الشديد إلى ارتياد الملاهي ودور اللهو المختلفة والإقبال على مشاهدة ما يجري في المسارح من تمثيل ورقص وموسيقى وغناء،ولهذا حرصت الحكومة أيضا على أن توفر لهم هذه المتعة، لأن ميل أهل الإسكندرية لمشاهدة ألعاب السيرك لم يكن يقل عن ميل أهل القسطنطينية ، وحين قرر الإمبراطور جستين الأول (٥١٨ – ٥٢٧ م) طرد كل المشتغلين بالرقص من بلاد الشرق استثنى من ذلك الإسكندرية [٢٨].

ولكفالة الأمن في الإسكندرية حرصت الحكومة أيضا ألا يجري بيع الأسلحة للأفراد وذلك في القرن السادس الميلادي، لفكرتها عن أهل الإسكندرية، وميلهم لإحداث الشغب والاضطراب، وقررت الحكومة فرض غرامات باهظة وعقوبات رادعة على كل من يخالف ذلك ، في الوقت الذي اهتمت فيه الحكومة أيضا بمراقبة منافذ المدينة، لا سيما مريوط التي كانت ملجأ وملاذا لدعاة التمرد، يهرع إليها مثيرو الفتن والشغب هربا من عمال الوالي، فعينت الحكومة مراقبا خاصا لملاحظة وحراسة هذه المواضع ورد المجرمين ومراقبة المشبوهين وطردهم أو القبض عليهم[٢٩].

أما عن الطبقات الاجتماعية في الإسكندرية في العصر البيزنطي، فقد تميزت فئة من السكان بالمدينة بأنها طائفة من الأغنياء، قوامها رؤساء

---

(27) Diehl: op . cit p. 483
(28) Johnson : Economic Studies, p, p. 298

(٢٩) العريني: نفس المرجع ص ٢٥٥

البيوت التجارية والمصارف والأسرات العريقة من النبلاء المحليين، وهذه الطائفة هي التي كانت الحكومة البيزنطية تعتمد عليها، وتختار من بينها أعضاء مجلس سناتو المدينة ، وتتخذ منهم عادة كبار موظفيها، وارتبطت هذه الفئة بالحكومة البيزنطية وهوت إليها[٣٠].

وإلى جانب هذه الأرستقراطية العلمانية كانت هناك طبقة رجال الدين والكنيسة، التي كانت تمثل قوة هامة لأن بطريرق الإسكندرية كانت له ثروته وأملاكه الشاسعة من الأراضي والعقارات والهبات التي خصه بها الأباطرة والخيرين وسائر الناس، فامتدت ضياع الكنيسة وأملاكها خارج مدينة الإسكندرية ، وفي مناطق أخرى من مصر مثل الفيوم[٣١]، فضلا عما كان للكنيسة من أسطول تجاري تعمل سفنه في تجارة البحر المتوسط والبحر الأدرياتي، لهذا حازت الكنيسة من الأموال ما هيأ لبطريرق الإسكندرية أن يوزع بانتظام رواتب على من يقصده من الناس، فضلا عن قيامه بإطعام أكثر من سبعة آلاف وخمسمائة من فقراء المدينة، وبذله المعونة لمن يستحقها خارج المدينة، وكان أحيانا يقدم القروض للحكومة البيزنطية[٣٢].

وربما لهذا كله كانت الحكومة البيزنطية، تهتم بمن يجري اختياره بطريرقا في المدينة، لأنه في الحقيقة يصبح سيدا للكنيسة، وأقوى شخصية دينية فيها ، لما كان يظهره أهل الإسكندرية من الاحترام والتقديس لكل من يحتل كرسي القديس مرقس، الذي كان محل احترام مصر بأكملها[٣٣]، فإذا اطمأن الإمبراطور للبطريرق المختار وجرى الاتفاق بينهما، استقامت الأحوال

---

(30) Diehl : op. cit . p. 483

(31) Bell:op. cit. p. 96

(٣٢) العريني : نفسه ص ٢٥٥

(33) Bury: op. cit. vol 1,p.216

في الإسكندرية واستقرت الأمور بمصر كلها ، أما إذا أظهر البطريرق المختار طموحا أو كان من حصوم الحكومة البيزنطية، انكشف ضعف الحذكومة البيزنطية في مصر، واضطربت الأحوال فيها. ومن النماذج التي أظهرت كثيرا من الطموح ممن اعتلوا كرسي البطريرق في الإسكندرية: ثيوفيل (ثيوفيلوس) وكيرلس وديوسقروس، فقد جعل كيرلس- على سبيل المثال- هدفه الرئيسي من تولية منصبه الديني، تحجقيق سيادته على الحاكم المدني لمصر، وتحقيق سيادة المسيحية على كل ما عداها(٣٤).أما النماذج المعادية لبيزنطة ومن الذين أظهروا الخصومة لها البطارقة والمونوفيزيتيون أمثال تيموتيوس و ثيودسيوس غيرهما ممن تولوا هذا الكرسي الديني(٣٥).

أما عن النشاط الاقتصادي بالإسكندرية، فقد تركز بصفة أساسية في الصناعة والتجارة، وأشار إلى ذلك كل من زراها في ذلك الوقت، حتى قيل أن هذه المدينة لا يعيش فيها متعطل أبدا، وظلت الإسكندرية حتى نهاية العصر البيزنطي في مصر مركزا هاما من المراكز الصناعية والتجارية، بل أكبر سوق تجارية بمصر ، وما حدث من نمو وتطور في صناعتها وفي تجارتها جعل منها مدينة بالغة الثراء وافرة الرخاء(٣٦) كما سبق أن أشرنا.

ففي ميدان الصناعة، احتفظت الإسكندرية بما اشتهرت به قديما من صناعة الأحجار الكريمة وتهذيبها وصقلها، كما ازدهرت فيها صناعة الأطباق من الفضة وذاع صيتها في صناعة الأواني الزجاجية والأواني الفخارية(٣٧)،

---

(34) Ibid. p.216
vasiliev: op. cit. vol 1.pp.98-99
(35)Chadwick:op.cit p.185

(٣٦) العريني: المرجع السابق ص ٢٥٧،

Diehl:op.cit.p.483
(37) Johnson: op. cit. p.110

وكانت بعض القوارير الفخارية تحمل نقوشا دينية بارزة وعرفت هذه القوارير بقوارير القديس مينـا، الـتي حـرص زوار الإسـكندرية علـى شـرائها خـلال زياراتها لمشهد هذا القديس بالترب من الإسكندرية، ليملأوها بالماء من الينبوع الذي تفجر هناك عند هذا المشهد، ثـم يحملونـها إلى بلادهـم،بينمـا تعـددت ألوان هذه القوارير الفخارية، فكان منها الأحمر والقرمزي والذهبي والأصفـر والعنـبري والليمونـي، وتفنـن السـكندريون في زخرفـة الأوعيـة بـالألوان المختلفة[٣٨]، وحظيت الأطباق التي صنعتها الإسـكندرية مـن الفضـة بـالذات بشهرة عظيمة جعلت القسطنطينية تحرص على استيرادها من مصر.

وتقدمت كذلك صناعة المنسوجات، لاسيما المنسوجات الصوفية الـتي تحسنت كثيرا في أواخر العصر البيزنطي، فجرى تصديرها إلى أسواق الشـرق كله وروما وبيزنطة [٣٩]، مثلما حاكت المنسوجات الكتانية ما كان يصنـع في مدينة طرسوس الشـامية مـن هـذه المنسـوجات، فقـد تـأثر المصريـون في هـذه الصناعة بالذات بالمؤثرات السورية والإيرانية في الطرز والألوان، إن لم يتفوقوا عليها فيما صنعوه، كما صنعوا أيضا المنسوجات الحريرية والملافح الحريرية، والدليل على ذلك ما عثر عليه من شاشـات مـن الحريـر وملافـح حريريـة في أماكن مختلفـة مـن مصر. وكذلـك صنـع السـكندريون الحقـائب مـن خيـوط الصوف، ولا شك أن صناعة النسـيج كـانت مـن الحـرف المألوفـة خاصـة في الأديرة عند الرهبان والراهبات[٤٠].

---

(٢٨) العريني : نفس المرجع س ٢٥٩

(٢٩) مراد كامل : المرجع السابق ص١٤٦

(40) Johnson :op. cit .p.119

وإلى جانب صناعة المنسوجات المختلفة أتقن المصريون صناعة الأصباغ ذات الألوان الثابتة، والتي وصلت إلينا نماذج منها بألوانها المختلفة، والتي يرجع الفضل في بقائها بألوانها إلى جفاف التربة المصرية ، خاصة تلك التي كفن بها المصريون موتاهم في المقابر الرملية في الصحراء البعيدة عن نهر النيل ومياه الفيضان[٤١].

كما احتفظت الإسكندرية بما لها من شهرة في صناعة العقاقير، فمنذ القرن الرابع الميلادي ازدهرت هذه الصناعة، التي برع فيها السكندريون كثيرا مستخدمين ما يرد إليها من مواد خام من الهند وجنوب شرق أسيا، بل أيضا من بعض جهات مصر ذاتها كالواحات وطيبة لتحويلها إلى عقاقير طبية وأدوية وسلع تجارية أخرى كالعطور، فبرعوا في تعبئة وتسويق هذه المنتجات، حتى صارت لهذه الصناعة شهرة ذائعة في كل الأنحاء، وازدادت أسعارها ارتفاعا، فحصل أهل الإسكندرية على أرباح وفيرة منها[٤٢].

كما ازدهرت أيضا صناعة الحلي الثمينة في ذلك العصر، فقد عثر على نماذج كثيرة من هذه الحلي ترجع إلى تلك الفترة، منها عقود من الذهب تتوسطها أنواط تحمل صور بعض الأباطرة البيزنطيين [٤٣]، ومنها الأقراط الدائرية الواسعة، والأقراط التي تتخذ شكل عناقيد العنب والأساور السميكة التي تنتهي برأس حية من طرفيها[٤٤]، ومنها خواتم وأساور وجلاجل، تؤكد الذوق الرفيع والمهارة في الصنعة التي اشتهر بها سكان الإسكندرية بصفة

---

(٤١) مراد كامل : نفسه ص ١٤٦

(42) Diehl : op. cit .p. 486

(٤٣) العريني: المرجع السابق ص ٢٦١

(٤٤) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٤٦-١٤٨

خاصة، كما نالت صناعة العاج والمصنوعات العاجية شهرة كبيرة أيضا في ذلك العصر[٤٥]، منها مكاحل وأمشاط من العاج، كانت تحمل أحيانا رسوما دينية مسيحية[٤٦]، والدليل على شهرة هذه الصناعة ما كان يبعث به بطريرق الإسكندرية كيرلس لرجال القصر الإمبراطوري بالقسطنطينية من مصنوعات عاجية كهدايا شملت الأثواب والبسط والوسائد وغيرها من المصنوعات العاجية ومن منتجات الإسكندرية القيمة[٤٧].

كما برع السكندريون في صناعة أوراق البردي التي حظيت بشهرة واسعة في كل الأنحاء، وحملت السفن أوراق البردي إلى الغرب والشرق أيضا إلى: القسطنطينية، وإلى غرب أوربا حتى مرسيليا، وجرت عادة أقباط مصر والإسكندرية الذين تخصصوا في هذه الصناعة أن يكتبوا على رءوس أوراق البردي، عبارة التثليث كعلامة ورمز صناعي وتجاري[٤٨]، ويصدرونها إلى كل الأنحاء وإلى القسطنطينية بصفة خاصة. كما نشطت أيضا الصناعات المعدنية، خاصة تلك التي استخدمتها المرأة لزينتها والأواني المنزلية متعددة الأشكال[٤٩].

ولكثرة المشتغلين بالصناعة، وحاجتهم إلى من يرعى مصالحهم تجاه الدولة من ناحية وتجاه جمهور الناس من ناحية أخرى، انتظم عمال الصناعة في نقابات ضمت العمال المشتغلين بصناعة النسيج وعمال بعض الحرف

---

(45) Johnson: op cit .p.154

(٤٦) مراد كامل : نفسه ص ١٤٨

(47) Diehl: op. Cit. p. 486

(48) Johnson: op cit .pp.130-131

(٤٩) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٥

الأخـرى والمـهن المرتبطـة بالنسيج كـالمطرزين والصبـاغين وصنـاع الشـباك والخيـاطين وصنـاع الأدوات الجلديـة والأحذيـة وغـيرهم[٥٠]. وخدمـت هـذه النقابات الأغـراض الاقتصاديـة كثـيرا علـى الرغـم مـن كـره الحكومـة لهـذه النقابات التي اعتبرتها خطرا عليها، إلا أن هذه النقابات غدت مسئولية عن سد حاجات الحكومة وعن تأدية الضرائب وتحصيل الغرامات من المخالفين أو المتأخرين في إتمام أعمالهم، وبمـرور الوقـت صـارت هـذه النقابـات بالغـة التنظيم في القرن الرابع الميلادي، وأصبح لكل نقابـة نقيـب أو رئيـس يشـغل مكانه لدورة معينة، وأصبح له مهام وواجبات محددة تجاه الحكومـة وتجـاه الأفراد في النقابة واستمرت هذه النقابات قائمة حتـى القـرن السـادس تـؤدي دورها بل اتسعت دائرتها لتمثل كل فئات الأيدي العاملة[٥١].

أما في الميدان التجاري فلعل شهرة الإسكندرية التجارية قد فاقت كـل شهرة باعتبار الإسكندرية بلدا تجاريا ومركزا هاما من مراكز التجارة العالمية، فقد أهلها موقعها الممتاز في شرق البحر المتوسط أن تكون منفذا للتجارة الواردة من جنوب شرق آسيا ومن أفريقيا في طريقها إلى الغرب الأوربي وبقية الأنحاء المطلة على البحـر المتوسـط في الشـرق [٥٢]، فضـلا عـن كونـها منفـذا طبيعيـا لحاصلات وادي النيل الغني الخصيب، إذ تلقت عن طريق القناة التي تصل بينها وبين نهر النيل كل ما كانت تنتجـه مصـر لا سـيما القمـح الـذي كـان يصدر إلى البلاد الواقعة شرقي البحر المتوسط وبلاد العرب، وإلى بلاد الغـرب

---

(50) Johnson :op.cit .pp.124-5

(٥١) العريني: المرجع السابق ص ٢٦١

مراد كامل : نفس المرجع ص ٢٣

(52) Lot: op.cit. p. 62,p.71

أيضا[٥٣]، ولهذا فقد استقبل ميناؤها الداخلي الواقع على بحيرة مريوط السفن القادمة من أعالي البلاد حاملة منتجات مصر في طريقها إلى الشرق والغرب، إما على المراكب في فروع النيل، وإما في قوافل تحملها الإبل والحمير[٥٤]، فضلا عما كان لها من ميناءين كبيرين على ساحل البحر المتوسط، كانا يزخران بالسفن المتوجهة إلى كل الأنحاء شرقا وغربا، وكان يحف بالميناء الشرقي بصفة خاصة أحواض انتظمت في سلسلة طويلة، أعطت لهذا الميناء إمكانات تجارية كبيرة لاستقبال وخروج السفن إلى البحر المتوسط[٥٥].

وكان لكنيسة الإسكندرية أسطول تجاري بلغ أحيانا عدد سفنه نحو ثلاثين سفينة كبيرة، فمارست الكنيسة التجارة في القرن الرابع، ومخر أسطولها عباب البحر حتى بلغ الجزيرة البريطانية وصقلية والبحر الأدرياتي، وشملت شحناته الحرير والأواني الفضية والحبوب وأوراق البردي والمنسوجات وغيرها من المنتجات، فضلا عما كانت تمتلكه الكنيسة من سفن تنقل المتاجر داخليا في نهر النيل إلى جهات مختلفة من أنحاء مصر [٥٦].

وعلى رأس البحر الأحمر كانت تقع ثلاث مراكز تجارية هامة هي: إيلة على الطرف الشمالي الشرقي لخليج العقبة، والقلزم (بالقرب من موقع السويس الحالية) على الطرف الشمالي الغربي لخليج السويس، وجزيرة يوتاب (تيران) عند القمة الشمالية للبحر الأحمر وقرب تفرع الخليجين،

---

(53) Bury:op.cit.vol.1,p.213

(٥٤) مراد كامل : المرجع السابق ص ٥٤

(55) Diehl: op. cit. p. 486
(56) Johnson :op.cit.p.137

واعتبرت القلزم أو كما كانت تسمي في ذلك العصر "كليزما"[٥٧]، أهم هذه المراكز الثلاث، لأنها كانت أكبر ميناء على البحر الأحمر، ومنها كان التجار يسافرون إلى البلاد الواقعة جنوبا على شاطئ البحر الأحمر عبر الطريق الممتد على الساحل الشرقي لذلك البحر حتى ميناء عدن (الحالية) بجنوب بلاد العرب وبلاد حمير حيث يلتمسون المتاجر التي كان يجلبها الصوماليون كالبخور فضلا عن المر والعطور من اليمن[٥٨].

أما الطريق الذي كان يسير بحذاء الساحل الغربي للبحر الأحمر، فينتهي عند ميناء عدال (عدول) أهم مواني الحبشة في ذلك الوقت، حيث كان التجار يلتمسون كل المتاجر الواردة من قلب إفريقية، كالبخور والتوابل من الصومال والزمرد والعاج من الحبشة والذهب من الجنوب وكذلك الرقيق[٥٩].

ونظرا لأن ميناء عدال (عدول) الحبشي كان مركزا هاما يمكن الاتصال منه بمناطق جنوب شرق آسيا وإيران عبر الخليج الفارسي، فقد أوغل التجار السكندريون من هذا الميناء إلى الجزيرة سيلان الحالية، التي تقع في أقصى جنوب الهند ، والتي اعتبرت أكبر مستودع لمتاجر الشرق والسلع القادمة من بلاد الشرق ولا سيما الهند والصين[٦٠].

ويمثل ارتياد تجار الإسكندرية لجزيرة سيلان أهمية خاصة في ضوء ظروف العصر، نظرا لسيطرة الفرس على الطرق البرية المؤدية إلى البحر المتوسط ،وإلى رأس الخليج الفارسي، فضلا عن سيطرتهم على الطرق البحرية

---

(57) Bury:op.cit . vol.2,p.318

(٥٨) العريني: المرجع السابق ص ٢٦٣

(٥٩) مراد كامل: نفس المرجع السابق ص ٢٣

(60) Bury:op. cit vol .2,p.325

التي تجتازها المتاجر إلى تلك الجهات، فبسبب منافسة الفرس الشديدة، تحول جانب كبير من التجارة الشرقية إلى الخليج الفارسي[٦١]، بل كثيرا ما توقفت التجارة وتعرضت الطرق التجارية للخطر. بسبب ما نشب من حروب بين الفرس والروم [٦٢]، ولهذا لم يجرؤ تجار بيزنطة على السفر إلى أقصى الشرق باستثناء أعداد قليلة منهم، واكتفى الباقون بالسفر إلى مينائي عدال وعدن ليحصلوا على متاجر الهند والصين، وتركوا الوساطة في ذلك للعرب والأحباش الذين غدوا أنشط الوسطاء في تلك التجارة[٦٣].

وعلى الرغم من أن أعداد التجار السكندريين الذين ارتادوا جزيرة سيلان كان أقل كثيرا من أعداد غيرهم من الفرس والعرب والأحباش والصينيين، إلا أن رحلاتهم سدت جانبا لا بأس به من الاحتياجات لمتاجر الشرق وسلع الشرق[٦٤]، فقد أشار المؤرخون إلى أهمية ذلك المستودع الكبير للسلع التي تجمعت في الجزيرة مثل الحرير والقرنفل وخشب والصندل، الذي حمله الصينيون إلى هذه الجزيرة، فضلا عما بعثته إليها الهند من الفلفل والمسك والسمسم والعطور والقطن والنحاس، بالإضافة إلى ما توفر بالجزيرة من الأحجار الكريمة واللؤلؤ وغير ذلك من السلع[٦٥].

ومع ذلك لم يكن ما حمله السكندريون من السلع من هذه الجزيرة يكفي احتياجات بيزنطة في الوقت الذي سيطرت فيه الجالية الفارسية الموجودة في سيلان على تجارة هذه الجزيرة وكان لوساطتها في نقل متاجر

---

(٦١) مراد كامل : المرجع السابق ص ٢٤

(62) Vasiliev: op. cit. vol.1,p.163
(63) Johnson: op.cit. p. 137
(64) Diehl: op.cit.p.487

(٦٥) العريني : المرجع السابق ص ٢٥٦

هذه الجزيرة أثر في قلة ما كان يرد إلى بيزنطة من هذه السلع[٦٦]، لهذا حاول الإمبراطور جستنيان أن يغري الأحباش ليحلوا محل الفرس في تلك الوساطة، ويحولوا إلى مصر كل ما كان يرد من متاجر سيلان، فأجرى من أجل ذلك مفاوضات مع ملك الأحباش مغريا إياهم بما يمكن أن يحققوه من أرباح من تلك الوساطة، إلا أن نفوذ الفرس القوي في مواني الهند وسيلان لم يمكن الأحباش من تحقيق أهدافهم. فاحتفظ الفرس بتجارة الحرير الذي كان أهم السلع عند البيزنطيين ، على حين أصبحت السلع الأخرى الأقل أهمية موضع منافسة بين الفرس الأحباش[٦٧].

ما يعنينا من ذلك كله أن ما نجح الأحباش في حمله من سيلان كان لا بد وأن يجتاز الإسكندرية في طريقه إلى القسطنطينية، ففرضت الإسكندرية على هذه السلع رسوما كبيرة. الأمر الذي أضاف إلى ثراء المدينة ورواج أحوالها، فزاد عدد المصارف فيها حتى ضارعت هذه المصارف في عددها عدد البيوت التجارية[٦٨].

والدليل على رواج التجارة في الإسكندرية في ذلك العصر، أن أصبح للملاحين نقابة في المدينة غدت من أشهر النقابات وأهمها، ضمت أعدادا كبيرة من هؤلاء الملاحين .وحرصت على تحقيق أهدافهم ورعاية مصالحهم[٦٩]. لأنه بفضل هؤلاء الملاحين واهتمامهم بعملهم، انتظمت طرق الملاحة بين مصر وسائر أنحاء الدنيا شرقا وغربا بين مصر والقسطنطينية، وبين مصر وإيطاليا حيث توغل التجار المصريون في البحر الأدرياتي،

---

(66) Bury:op.cit. vol.2.p.318
(67) Vasiliev: op. cit. vol .1,p.168
(68) Bell:op.cit.p.123

(٦٩) مراد كامل: المرجع السابق ص ٢٣

وانتظمت العلاقات التجارية بين مصر وغالة، فحملت السفن التجارة إلى مرسيليا، كما انتظمت الصلات مع أسبانيا، وقدم التجار الأسبان ومندوبوهم إلى الإسكندرية، وكذلك التجار من غالة، وامتدت خطوط الملاحة إلى الجزيرة البريطانية وأقصى شمال غرب أوربا (٧٠).

غير أن عظمة الإسكندرية ورخائها تأثر كثيرا بما كان يحدث أحيانا من فتن وثورات ازداد عددها منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، خاصة الفتن الدينية والمذهبية، التي كان يترتب عليها اضطرابات سياسية(٧١)، والتي تسببت في كثير من الأحيان في انخفاض سعر العملة وارتفاع أسعار المعيشة وشعور الناس بالأزمة الاقتصادية، فحلت أحيانا المقايضة محل البيع والشراء، وساد المدينة خلال تلك الثورات كساد شديد وتداعى اقتصادها بشكل كبير،وقضت هذه الفتن والاضطرابات على ازدهار الصناعة وانتعاش التجارة(٧٢).

فإذا انتقلنا إلى تناول الحياة العقلية في مدينة الإسكندرية في العصر البيزنطي نجد أن الإسكندرية كانت حاضرة العلم والفن والأدب في ذلك العصر، لأنها ظلت قرون عديدة مركزا علميا فريدا ومقرا لمدرسة عظيمة للثقافة والفكر، ونواة لنشاط عقلي عظيم(٧٣)، وذلك بفضل مكتباتها ومتحفها بما كان لهما من شهرة ذائعة في العصر القديم، فضلا عن أنها ورثت ما كان

---

(70) Diehl:op.cit.p.486

(71) Mommsen: op. cit. p. 264 (Eng. Trans)
Bury: op. cit.vol.1,p.216

(٧٢) مراد كامل : المرجع السابق ص٢٧

(73) Vasiliev: op cit . vol..1,pp.116-117

للحضارات القديمة من علوم وفنون وآداب، وما أنتجه الفكر المسيحي من علوم وآداب وفنون أيضا[٧٤].

فبعد أن استولى الرومان على مصر، وبحكم وراثتهم للحضارة الإغريقية القديمة، وما أثرى به الإغريق الحضارة الإنسانية من علوم وفنون وآداب، أبقى الرومان على ما تركه البطالمة في مصر من منشآت مختلفة، خاصة المنشآت العلمية، وذلك تكريما لذكرى ملوم البطالمة من جهة، ولما اشتهر به الرومان من الشغف بالعلوم والفنون والآداب من جهة أخرى[٧٥]. ثم كان انتشار المسيحية ورسوخها في مصر وفي الإسكندرية بالذات عاملا جديدا لبزوغ فكر جديد وظهور علوم جديدة في مصر البيزنطية[٧٦].

وكان متحف الإسكندرية الذي اشتهر منذ القدم، بأنه موطن الأسرار ومقر الكهنوتية، قد أخذ في الأفول والابتعاد عن دوره كثيرا، حتى لم يعد مقرا للدراسات الدينية كما كان في الماضي، بل لم تعد له كبير أهمية في الحياة الدينية أو الكهنوتية، بل أخذ يختفي رويدا رويدا وحل محله السرابيوم الذي أصبح منذ زمن طويل الموطن الأصلي للوثنية المصرية، ثم أضحى مقرا للوثنية اليونانية في مصر[٧٧].

واعتقد أحد المؤرخين أن الإمبراطور كراكللا (٢١١-٢١٧م) قد خرب هذا المتحف ونهبه، فأسهم بذلك في تداعي هذا المتحف وتوقف دوره في الحياة العلمية والدينية في مدينة الإسكندرية، وأن الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) عاد فجدد عمارته وأعطى فرصة جديدة للبقاء

---

(74) Bell :op. cit .p. 127
(75) Ibid.p.33,pp.53-4
(76) lot: op. cit. p. 373
(77) Bury: op. cit . vol. 1,p.149,p.368

والاستمرار فترة أخرى[٧٨]. وليس ذلك صحيحا ولا منطقيا ما ذهب إليه ذلك المؤرخ، لأن ذلك المتحف كان يحمل واجهة الوثنية المصرية التي حرص الأباطرة قبل قنسطنطين على تشجيعها وتقويتها في مواجهة المسيحية كعقيدة وفكر جديد، وليس صحيحا أيضا أن يسهم الإمبراطور قنسطنطين في إعادة دعم الوثنية في مصر ومنح رموز هذه الوثنية فرصة للبقاء والاستمرار فترة أخرى بتجديد عمارة المتحف، بعد أن اعترف بالمسيحية واتخذ من الوسائل ما يمنع الوثنيين من الهجوم على المسيحية[٧٩]، وإن كان قنسطنطين قد شجع الدراسة والتحصيل وبذل الحماية لدور العلم ومؤسسات التعليم العام، وحرص على استتباب السلام في سائر أنحاء إمبراطوريته إثراء للحركة العلمية والفكرية في الإمبراطورية دون أن يعني ذلك تشجيع الواجهات الوثنية القديمة أو تقديم العون لها.

لكن ليس من شك في أن متحف الإسكندرية ظل قائما حتى نهاية القرن الرابع الميلادي ولم يجر اندماجه في السرابيوم إلا زمن الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٩-٣٩٥م) ، حين أصبح كهنة السرابيوم من رجال المتحف، والدليل على بقاء متحف الإسكندرية إلى ذلك الوقت ، وقوفنا على عدد من علمائه خلال القرن الرابع الميلادي، على الرغم من الإشارة إليه علي أنه معبد كلوديوس أو معبد أوغسطس، ودل اندماجه في السرابيوم على أن الوثنية، كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تحاول التشبث بالحياة وتصارع

---

(78) Matter : Histoire de l'Ecole d'Alexandrie, T.1,p.315

العريني: المرجع السابق ص ٢٧١

(79) Simon: Histoire de l'Ecole d'Alexandrie , T.1,p.153

العريني: نفس المرجع ص ٢٧٠-٢٧١

الموت فترة أخرى من الزمـن، وظـل المتحـف يمثـل جامعـة عريقـة خرجـت أجيالا من العلماء والدارسين فترة طويلة من الزمن[٨٠].

غير أن ثمة رأي آخـر يذهـب إلى القـول أنـه لم يحـدث اندمـاج بـين المتحف والسرابيوم على الإطلاق، لأن المتحف عول في بقائه واستمراره في أداء رسالته على اتخاذ موقف لا يتعارض مع كل من المسيحيين والوثنيين، حتى يستطيع أن يستمر فترة أطول ، وإن لم يفده ذلك كثـيرا ، بـل إن رجالـه لم يعارضوا اجتماع المسيحيين والوثنيين معا في مدرسة واحدة من أجل تحصيـل العلـم والدراسـة [٨١]، وإن أدى ذلـك إلى بدايـة انـهيار وتداعـي والمتحـف، وخاصـة بعـد أن انتقلـت الدراسـة إلى مواضـع أخـرى ولم تعـد قـاصرة علـى المتحف، فضلا عن أنه لم يعد يؤدي عمـلا ذا قيمـة للمسـيحيين أو الوثنيـين على حد سـواء، بـل بـدا يتداعـى وينـهار ويفشـل في أداء رسـالته، واعتـبره الكثيرون عاملا من عوامل إثارة النزاع بين الطائفتين ومعطلا لوصـول الإيمـان مثـيرا للخـلاف بـين الفئتـين، إحداهمـا ارتبطـت ارتباطـا وثيقـا بالسـرابيوم وفلاسفته ذائعي الصيت، على حين التفت الأخرى في كبرياء حـول الكرسـي الأسقفي[٨٢].

هذا وكان المتحف قد تلقى ضربات أخـرى أسـهمت في بدايـة تداعيـه وانهياره، لعل أهمها منافسة مدارس بلاد اليونان وإيطاليا وآسـيا الصغـرى، التي هرع إليها الشـبان المسـيحيون والوثنيـون للدراسـة والتحصيـل فأصـاب بعضها شهرة كبيرة، وتحول بعضها الآخر إلى أكاديميات كاملـة علـى حـين أصبحت مدارس أثينا ونيقوميديا وأنطاكيـة مراكـز رئيسـية لدراسـة الفلسـفة

(80) Bell:op.cit.p.58
(81) Matter:op cit .1,p.316

[٨٢] العريني: المرجع السابق ص ٢٧٢

والبلاغة[٨٣]، كما اجتذبت مدرسة بيروت كل من أراد دراسة القانون والفقه، يضاف إلى هذه كلها مدرسة القسطنطينية التي اعتبرت منافسا خطيرا لغيرها من المدارس بما فيها مدرسة المتحف، والتي أصبح يدرس فيها كل العلوم بما في ذلك الفلسفة، ولقد ألحقت هذه المدارس القوية بمتحف الإسكندرية ومدرسة الإسكندرية العلمية من الأضرار ما جعلها موضع إهمال شديد لم يلبث أن اشتد الإحساس به بمرور الأيام[٨٤].

وكانت المسيحية قد رسخت في نفوس الناس بعد سنوات قليلة غير حافلة بما تعرضت له من الاضطهادات، وبعد أن أدرك الناس مفاهيمها، على الرغم من صعوبة فهم كثير من قضاياها الجوهرية مثل التثليث والتجسيد والبعث والحض على حياة الإخلاص والبذل والتضحية، غير أن إظهار الإيمان والتخلص من البدع والقضاء على أعداء العقيدة، بعد أن عاشوا زمنا طويلا في فجور الوثنية ومجونها، وتنظيم الكنيسة، كل ذلك استغرق من الزمن مالا يقل عن ثلاثة قرون[٨٥]، لم يكف الفلاسفة بالذات خلالها عن محاولة القضاء على هذه العقيدة الجديدة، فلما انتصر الإمبراطور قسطنطين للمسيحية واعترف بها كإحدى الديانات في الدولة سنة ٣١٣م ، أقنط ذلك كثيرا أعداء المسيحية وجعلهم في يأس من محاولة الكيد لها، بل لم تعد لهم حرية الجدل والنقاش، فضلا عما عوملوا به من الشدة[٨٦]كل ذلك كان نصرا للمسيحية وزيادة في رسوخها في نفوس الناس في تلك الفترة .

---

(83) Bury: op. cit vol. 2,p.369
(84) Bell:op. cit . p. 54
(85) Simon: op.cit.T. 1,p.153

العريني: المرجع نفسه س ٢٧٠

(86) Matter : op. cit . 1,p.314

ما يعنينا من ذلك أنه بانتصار المسيحية استنفدت مدرسة الإسكندرية الوثنية ما لديها من نظريات فلسفية في مهاجمة المسحية، بل إن انتصار هذه العقيدة جاء بداية لفترة جديدة في تاريخ مدرسة الإسكندرية الوثنية[٨٧]، لأنه أصبح لزاما على هذه المدرسة أن تبحث لنفسها عن أسلحة جديدة تناضل بها المسيحية، وأن تلتمس في أسرار العقيدة الجديدة وسائل أخرى لتحارب بها العقيدة الجديدة[٨٨].

وكانت الكنيسة قد أقامت منذ البداية في الإسكندرية المدرسة المسيحية عند مدخل المتحف وهي مدرسة تبشيرية، أقامها فيما يبدو القديس مرقس، الذي كان أول أسقف للإسكندرية بعد أن اقتنع أنه من العسير على الناس في ذلك الوقت، خاصة الأطفال أن يكتشفوا بأنفسهم خالق هذا العالم ومنشئه، فعمد مرقس إلى إنشاء هذه المدرسة ليريهم عظمة الله في خلقه . ويأخذ بأيديهم في فهم ما غمض عليهم من الأمور[٨٩]. وتولى رئاسة هذه المدرسة الأستاذ بانتين Pantene الذي كان قد تخرج في مدرسة الرواقيين، والذي كان أستاذا لكلمنت السكندري وكذلك أستاذا لأوريحين [٩٠].

معنى ذلك أنه أصبح بالإسكندرية تياران لمدرسة واحدة تيار وثني فلسفي تمثل في المتحف وتيار مسيحي ديني تمثل في المدرسة التبشيرية، وبينما كان نجم التيار الوثني آخذ فالأفول حين بدأ المتحف يفشل في أداء مهامه ويتلقى ضربات شديدة من الداخل والخارج، كان نجم التيار الثاني

(87) Bell: op. cit . p. 116
(88) Chadwick : op. cit .p.207
(89) Vasiliev:op.cit. I,p.116
(90) Bell: op.cit.p. 90

آخذ في الازدهار بحكم تحول الناس إلى المسيحية واعتراف قنسطنطين بها بمقتضى مرسوم التسامح الديني والتفاف الناس حول أسقفها[٩١].

ويبدو أن الإمبراطور جوليان- الذي عرف بجوليان المرتد- قد أدرك أهمية مدرسة الإسكندرية والتيار الوثني الفلسفي فيها، لما اشتهر به هذا الإمبراطور من تعلق بالهللينية[٩٢]، وما اشتهرت به أسرته من الشدة والصرامة فيما يتعلق بالأمور الدينية والحضارية. إذ أمر جوليان بإعادة فتح كل المعابد الوثنية التي كانت قد أغلقت بمقتضى مرسوم قسطنطيوس[٩٣]،وعهد جوليان إلى أحد العلماء المقربين إليه وهو الطبيب زينونZeno القبرصي، بأن يسافر إلى الإسكندرية ليعمل على بعث المدرسة الوثنية في الإسكندرية[٩٤].

وكان من المتوقع لن تنجح هذه السفارة في عملها لأن الظروف التي قدمت فيها كانت مناسبة والطريق أمامها كان ممهدا، بسبب ما نشب في الإسكندرية حينئذ من ثورة قام بها الوثنيون ضد الأسقف الأريوسى الذي احتل كرسي القديس أثناسيوس. إذ قتلوا هذا الأسقف الأريوسى وأعادوا للوثنية ما كان لها من مجد، ولم يتعرضوا من قبل الإمبراطور لأية عقوبة، نظرا لأن جوليان كان قد أمعن في تشجيع الوثنية- كما سبق أن أشرنا- وأمل في بعث آلهتها للوقوف في وجه المسيحية [٩٥]. وكان على زينون القبرصي أن

---

(91) Matter: op. cit . T.1,p.316
(92) Ostrogorski:op. cit .p.46
(93)Bury:op.cit. vol.1,p.367
(94) Matter:op. cit T.1,p.316 — العريني : نفسه ص ٢٧٣ و
(95) Chadwick:op.cit .pp..126-7

يقوى التيار الوثـني في الإسـكندرية، ويزيـد مـن تفـوق الوثنيـين وسـيادتهم، بإعادة مدرسة الإسكندرية الوثنية إلى سابق عهدها، غير أنـه قـدر لمهمتـه إلا تنجح لأن العمل لم يكن سهلا في ظل تعلق معظم الرعايـا بالمسـيحية وميلـهم إلى البطريرق أثناسيوس، الذي لم يلبـث أن استعاد كرسـي البطريرقيـة مـن جديد، دون أن يستطيع الإمبراطور جوليان منعه من ذلك إو تقديم ما يمكن أن يساعد زينون في سفارته إلى الإسكندرية على إتمام مهمتها وعملها[٩٦].

ونظـرا لأن الإمـبراطور جوليـان لم يمكـث طويـلا في الحكـم (٣٦١-٣٦٣م)، فقد حرم زينون القبرصي من الحماية ، ولهذا حرص على أن ينسى أمر سفارته والهدف منها ، واكتفى في الفترة التالية بشـغل كرسـي أسـتاذية الطب بالإسكندرية، حيث إلتف حوله عدد من الطـلاب، نبـغ منـهم اثنـان كثيرا وغدا بوسع زينون أن يفخر بأنه هو الـذي أسـهم في تعليمـهما. وهكـذا مـرت فـترة حكـم جوليـان المرتـد دون أن تفيـد كثـيرا متحـف الإسـكندرية ومكتبتها والتيار الوثني في المدرسة الإسـكندرية[٩٧]، لأن جوليـان لم يبـذل في الحقيقة جهدا في سبيل تدعيم المتحـف والمكتبـة، بـل قيـل إنـه كـان يضمـر الكراهية والتعصب ضد الإسكندرية ذاتها، والدليل على ذلك أنـه طلـب مـن سفيره زينون القبرصي، أن يرسل إليه مجموعة المخطوطات الرائعة من مكتبة الإسكندرية، جعلـها نـواة لمكتبـة هامـة في بـلاط القسـطنطينية أخـذت تنمـو وتزدهر على حساب مكتبة الإسكندرية[٩٨].

---

(96) Bury: op. cit vol..1,p.436
(97) Vasiliev:op.cit .vol.1,pp.72-4
ostrogorski :op.cit. p.46
(98) Matter:op.cit. T.1,p.318.

وكان حكم جوليان المرتد نشازا بين الاباطرة البيزنطيين، لأن خلفاءه حرصوا في الفترة التالية على مناهضة الوثنية والتصدى لها، ولم يحفلوا سوى بما كان يجرى في الإسكندرية من مناقشات حول الأريوسية، بل أصدروا الأوامر بإغلاق المدارس والمعابد الوثنية في سائر جهات مصر، وقفوا موقفا صلبا من كل المؤسسات الوثنية، مظهرين الكراهية الشديدة لهذه التيارات المعادية لسياسة الدولة الدينية(٩٩).

أما السرابيوم فقد ظل يتشبث بالحياة فترة أخرى، حتى الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي، إلى زمن الإمبراطور ثيودسيوس، نظرا لأن قطاعا من السكان كان يوليه تقديرا خاصا. إلا أن نهاية السرابيوم جاءت على غير توقع، وعلى أيدي الإمبراطور ثيودسيوس العظيم (١٠٠)، الذي عرف بتدينه وتقواه، والذي جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة في مجمع القسطنطينية الديني سنة ٣٨١م. إذ يبدو أن المسيحيين في مصر قد أحسوا بميول هذا الإمبراطور وإخلاصه الشديد للمسيحية فتشجعوا وأعلنوا الحرب على الوثنية في مصر، فقاموا بتحويل المعابد الوثنية إلى كنائس وحطموا التماثيل وسخروا من الكهنة الوثنيين، وأمعنوا في الأعمال التي اعتبرها الوثنيون إهانات موجهة إليهم (١٠١)، عندئذ اشتدت ثائرة هؤلاء وبادروا بالهجوم على المسيحيين في كل مكان وقتلوا أعدادا كبيرة منهم وحملوا جماعة منهم إلى السرابيوم حيث استخدموهم في عمارة القلعة. وغالوا في تصرفاتهم ضد المسيحيين، فأمروا بإعدام كل من يرفض تقديم القرابين إلى الإله سرابيس، وفي هذه الظروف تدخل الإمبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩١م وأمر بتدمير

---

(99) Vasiliev: op.cit . 1,pp.81-2 , العريني : المرجع السابق ص ٢٧٤
(100) Bury: op. cit. 1,p.149,pp.368-9.
(101) Matter : op.cit . T.1,p.331

السرابيوم وتخريبه وتدمير كل المعابد التي أبدت مقاومة ضد الحكومة البيزنطية[١٠٢].

وعلى الرغم من أن بعض الروايات قد أشارت إلى أن تدمير السرابيوم كان شاملا، إلا أن روايات أخرى أشارت إلى أن التخريب لم يكن شاملا، إذ انصب هم الذين قاموا بالتخريب على تحطيم الآثار الوثنية وتدمير المعبد نفسه أو المشهد دون تدمير الأسس الرئيسية للسرابيوم ، لأن أسس السرابيوم اشتهرت بالمتانة والقوة، كما لم يشمل التخريب توابع المعبد كالأروقة والسقائف والمساكن والمكتبة التي بنيت منذ قرون، ونمت وتكاثرت كتبها على مر السنين، ويبدو أن تدمير هذه التوابع والأسس كان يتطلب وقتا طويلا لهدمها وتخريبها، الأمر الذي أجبرهم على تركها[١٠٣].

والدليل على أن التخريب لم يكن شاملا أو كاملا، وأنهم لم يصيبوا المبنى بكثير من الأذى أن عمارته من جديد لم تتطلب سوى إصلاحات قليلة، فضلا عن أن الكهنة لم يلبثوا أن نزلوا به بعد فترة قليلة، قبل أن يتخذه الرهبان مقرا لهم [١٠٤]، حين ازدهرت الرهبانية والديرية، بالإضافة إلى ما أشار إليه بعض المؤرخين والكتاب المسحيين من أنه قامت في موضع السربيوم كنيسة جرى تدشينها باسم كنيسة القديس يوحنا المعمدان سنة ٣٩٥م،واشتهرت باسم كنيسة أركاديوس[١٠٥]، مما يؤكد استفادة مشيدي هذه الكنيسة من أسس وبقايا السرابيوم لإقامة هذه الكنيسة.

---

(102) Bury : op. cit, vol 1,p.149
Vasiliev: op.cit. vol.1,p.82

(١٠٣) العريني : نفسه ص ٢٧٤

(104) Chadwick: op.cit.p.171
(105) Matter :op. cit. T.1,p. 322

ونظرا لأن توابع السرابيوم لم تتعرض للدمار الشامل بفضل متانتها وصلابتها، ولأنها كانت عمائر ضخمة رائعة، فقد انتقل إليها حاملو التيار القديم وما تبقى من منشآت الإسكندرية القديمة وسائر المعاهد الوثنية، وكذلك بقايا المدرسة المسيحية، وذلك في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وترتب على ذلك أن زال من أذهان الناس بمضي الزمن سيرة المتحف وذكراه(١٠٦)، وجاء اجتماع هذه المؤسسات في توابع السرابيوم دليلا على تعلق فريق من الناس بما ساد قديما من تيارات ثقافية وفكرية ، وكذلك انتقال بقايا المدرسة المسيحية إلى هذه التوابع جاء دليلا على اتجاهات جديدة في الفكر الثقافي والعلمي ودليلا على إمكانية التعايش بين التيارين طالما انصرف كل إلى تحقيق غايته دون التعرض للآخر.

ولقد زار الإسكندرية عقب تدمير السرابيوم وتخريبه بعض الكتاب المشهورين، ومن بينهم كاتبان أحداهما وثني والآخر مسيحي ، أشار أولهما إلى أن توابع السرابيوم التي قامت على جوانبه الداخلية شملت قاعات كبيرة وأروقة متسعة ، استخدم بعضها مكتبة واستخدم بعضها الآخر حجرات للدرس . ومنها ما خصص لعبادة الآلهة القديمة وخدمة التيار الوثني (١٠٧)، وأشار الكاتب الآخر إلى أن هذه التوابع شملت حجرات الدرس وأماكن للقسس أو الرهبان الزاهدين، واجتمع بذلك في توابع السرابيوم أصحاب الفكر الوثني، وكذلك أصحاب العقيدة المسيحية وفكرها الجديد(١٠٨).

---

(106) Vasiliev : op. cit . vol . 1,p.81
Parson : The Alexandria Library, pp.367-8

(١٠٧) العريني: المرجع السابق ص ٢٧٥-٢٧٦

(108) Parson : op.cit :p. 369

وبقيت الوثنية فيما تجدد من سقائف السرابيوم، حيث تقع بعض المزارات والمشاهد الصغيرة، ولم يحدث اعتراض على سير الدراسات الوثنية بالإسكندرية في رحاب السرابيوم بشكل يؤثر على تلك الدراسات في الذي ظلت فيه المدارس المسيحية تجرى على نحو ما كان سائدا، فتردد الطلاب الوثنيون والمسيحيون على هذه المدارس فواصلت ازدهارها وتواصل عطاؤها إثراءً للحركة العلمية في الإسكندرية(١٠٩)، أي أن المدرستين عاشتا جنبا إلى جنب، كل منهما لها طابعها الذي يعكس الحالة الثقافية في الإسكندرية في ذلك الوقت، وأثرت كل منهما في الأخرى(١١٠)، فكان العالم الذائع الصيت ثيون Theonيلقى دروسه في الرياضيات(١١١)، وتخرج على يديه جيل من العلماء والباحثين، كما ذاع صيت ابنته هيباشيا Hypatia، التي اغتيلت سنة ٤١٥م والتي تعتبر آخر علماء المتحف في الرياضة والفلسفة وفي فلسفة أفلاطون بصفة خاصة، واشتهرت هذه العالمة الفاضلة بالتبحر في العلم حتى هرع إليها الطلاب من سائر أنحاء العالم، الذين رغبوا في تلقي دروس الرياضة والفلسفة عليها، وهيأت لها مكانتها وشهرتها من الأسباب ما جعلها وثيقة الصلة بسادة الإسكندرية وأكابر رجالها في ذلك العصر (١١٢).

لكن يبدو أن هيباشيا هذه أثارت المسيحيين من العامة بوثنيتها وشهرتها التي جذبت إليها بعض الرجال، ولترددها على مجالس الرجال، ودأبها على الظهور في المجتمعات العامة، وزيادة صلتها بحاكم الإسكندرية، فهجم عليها العوام بالمدينة أثناء قيادتها لعربتها أو عجلتها وأنزلوها من

(109) Chadwich:op.cit. p.171

(١١٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٩٦

(111) Bury : op.cit. vol.1,p.217

(112) Vasiliev: op.cit .vol.1,pp.121-122

العربة وجروها بالحبال إلى الكنيسة حيث لقيت حتفها[113]، فكانت هيباشيا من ضحايا بطريرق الإسكندرية الطموح كيرلس[114]. ولهذا حرص الفلاسفة الذين جاءوا بعدها على عدم إثارة الناس مثلما أثارت هيباشيا، فظلوا يواصلون دراساتهم طوال القرنين الخامس والسادس الميلاديين بفضل ما لجئوا إليه من إخفاء عدائهم للمسيحية والمسيحيين[115].

وظل الفلاسفة يتعاقبون على مدرسة الإسكندرية، ليحوزوا شهرة عظيمة فاقت ما كان لفلاسفة أثينا في نفس الفترة، وكذلك في ميدان العلوم، ثم ما لبث جستنيان أن أغلق مدارس أثينا الفلسفية سنة ٥٢٩م[116]، في الوقت الذي أبقى فيه على مدارس الإسكندرية ومنع فلاسفة الإسكندرية من مغادرة المدينة خوفا من أن يلحقوا بزملائهم أساتذة أثينا الذين لجأوا إلى فارس ودولة الفرس فتلقاهم البلاط الفارسي بترحاب شديد[117]، فأتيح لمدرسة الإسكندرية أن تواصل ازدهارها وتواصل عطاءها في ميدان العلم والفلسفة بل وتتفوق على مدارس أثينا ذاتها.

ونجحت الإسكندرية في العصر البيزنطي في الحفاظ على ما كان لجامعتها القديمة من مجد غابر وشهرة عظيمة، فقد ذاع في أنحاء الإمبراطورية ما اشتهرت به الإسكندرية من المدارس والمتاحف التي هرع إليها الطلاب من سائر أنحاء الشرق للدراسة والتحصيل، وجذبت مدرسة الإسكندرية العلمية الطلاب من كل مكان[118]، لا سيما من فلسطين وسوريا

---

(113) Bell: op.cit. p.369
(114) Bury:op.cit.1,pp.217-218
(115) Matter: op.cit. 1,p.333
Parson : op .cit.p.356
(116) Bury:op.cit . 2,p.369
(117) Vasiliev:op.cit.1,p.150
(118) Diehl:op.cit.p.491

وآسيا الصغرى وصار أساتذتها يعلمون الطلاب القانون والطب والعلوم الرياضية، فضلا عن البلاغة والفلسفة والمنطق وانصرف فريق من الطلاب إلى دراسة الآداب ونقد النصوص القديمة، ولقيت هذه الدراسة ترحيب الأوساط الهللينية في مصر [١١٩]

وفي القرن الخامس الميلادي انضم إلى علماء الإسكندرية علماء النحو والشراح ورجال المعاجم ولفيف من الذين تولوا تدريس نظريات الأفلاطونية الحديثة، بل إن الإسكندرية هي التي أنجبت " الأفلاطونية الحديثة" وتزعمت " الغنوصية " ونشرت هذه الفلسفات في أرجاء العالم المثقف[١٢٠] وكانت هيباشيا من هذا الفريق من العلماء ، فقد ذاع صيتها في الفلسفة والعلوم الرياضية في أوائل القرن الخامس الميلادي، وحظى أرسطو باهتمام الدارسين وعنايتهم، مثلما حظى أفلاطون واستمر عطاء علماء الإسكندرية في مختلف الفروع العلمية والأدبية[١٢١].

ولقد أشارت وثيقة ترجع إلى القرن الخامس الميلادي إلى ما كانت عليه جامعة الإسكندرية حينئذ، التي وصفها شاهد عيان وأشار إلى دورها وعطاء أساتذتها وعلمائها الذين أثاروا حماسة الطلاب وأذكوا المنافسة بينهم [١٢٢]، سواء أكانوا من الوثنيين أو المسيحيين، فقد احتدم النقاش بينهم في كل ما يتعلق بالأمور الدينية ، فعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساتذتها ظلوا

---

(١٩٩) العريني : نفسه ص ٢٧٨

(١٢٠) مراد كامل : المرجع السابق ص ٩٦

(121) Vasiliev : op.cit.1,pp.121-122
(122) Bell: op.cit. p. 83

حتى ذلك الوقت وثنيين، فإن ذلك لم يمنـع الطلاب المسيحيين مـن تلقـى الدروس عليهم على الرغم أيضا مما اتهم به بعضهم من التعصب الشديد[١٢٣].

ولم يكن دور أساتذة جامعـة الإسـكندرية قـاصرا علـى العلـم والـدرس والتحصيل، فقد كان بعضهم ينتمي إلى أسرات عريقـة، ولذلـك تـألف منـهم حزب قوي اشترك صراحة وفي بعض الأحيان في الصراع السياسي والديني في الإسكندرية، وصار بوسعهم أن يثيروا الاضطراب بالإسـكندرية متـى سـنحت لهم الفرصة بذلك معتمدين على ما كانت تكنه لهم فئـات كثـيرة مـن سـكان المدينة من الاحترام والتبجيل، خاصة الفلاسفة الوثنيين منهم، لما كـان لهـم من مكانة في المدينة ، ولما أسهموا به في الحركة العلمية والفكرية [١٢٤].

وإلى جانب هؤلاء العلماء الوثنيين أو مـن عرفـوا بـالهلينيين، اشـتهر فريق من العلماء المسيحيين، خاصة في الفـترة الـتي ضيقـت فيـها الحكومـة البيزنطيـة الخنـاق علـى العلمـاء الوثنيـين واضطهدتـهم، لا سـيما في عـهد الإمـبراطور البـيزنطي زينـون (٤٧٤-٤٩١م) الـذي نكـل بأسـاتذة جامعـة الإسكندرية الوثنيين في أواخر القرن الخـامس الميـلادي[١٢٥] ، فـأعطى فرصـة لبزوغ نجم الأساتذة المسيحيين وعلو مكانتهم وأفسح لهم المجال للمشاركة في إثراء الحركـة العلميـة في المدينـة في ذلـك العصـر. ومـن هـؤلاء العلمـاء،حنـا فيلوبونـس Philoponos أي المحـب للعمـل - والـذي كـان مـن أفـذاذ علمـاء الإسـكندرية في النصـف الثـاني من القرن السادس الميـلادي (٤٩٠-٥٧٠م) [١٢٦] ، إذ اشتهر هذا العالم بثقافاته الواسعة واشتغاله بالفلسـفة، وشـغف بفلسـفة

---

(123) Diehl:op.cit.p.491
(124) Vasiliev:op. cit .1,pp.121-122
(١٢٥) العريني: نفس ا لمرجع السابق ص ٢٧٩
(126) Chadwick: op. cit. p. 207

أرسطو بصفة خاصة ، حتى اعتبره البعض من شراح هذه الفلسفة ، فضلا عن اشتغاله بالنحو واللاهوت ومؤلفاته في قواعد اللغة اليونانية والعلوم الرياضية[١٢٧]

وعلى الرغم من تدين هذا العالم المسيحي، فقد اشتهر أيضا بالتفكير الحر وعدم التزمت، فقد حاول أن يوفق بين آراء أرسطو وبين ما جاء في الكتاب المقدس والعقيدة المسيحية، وذلك في رسائله وكتبه عن خلق العالم وعن خلود هذا العالم، كما هاجم في كتبه الوثنيين وفلاسفة الأفلاطونية الحديثة، وأصحاب مذهب الطبيعتين أو من سموا أنفسهم بالأرثوذكس، لأنه نشأ على المذهب المونوفيزيتي، مذهب أهل الإسكندرية ومصر ، أو مذهب الطبيعة الواحدة . وبفضل ذلك صار لهذا العالم مكانة مرموقة في جامعة الإسكندرية[١٢٨].

غير أن هذا العالم حاول أن يطبق طرق الفلسفة القديمة على نظرية التثليث وذلك في رسالة كتبها سنة ٥٦٣م حول هذه القضية الدينية، فأثار هذا العالم الدهشة والغرابة في الإسكندرية، واعتبر وكأنه انزلق إلى البدعة، لأنه اعتبر الأقانيم الثلاثة التي تتألف منها نظرية التثليث ليست إلا ثلاثة آلهة[١٢٩]، فضلا عن أن كتابه عن البعث أحدث كثيرا من الجدل والإثارة، فاعتبرت أفكاره وآراؤه من النحل والبدع والخروج عن الدين، ولم يستطيع بطريرق الإسكندرية القضاء على أثار هذه الكتب والأفكار إلا بعد عناء شديد[١٣٠].

---

(127) Deihl: op. cit. p. 492
(128) Chadwick: op. cit. p. 207
(129) Cross: Dictionary of Christian Church, Art Tritheism.
(130) Diehl: op. cit.p.492

ومن علماء وفلاسفة الإسكندرية وجامعة الإسكندرية أيضا إسطفان المسيحي الذي تسبب مثل سلفه في إثارة الاضطراب في الإسكندرية في أواخر القرن السادس الميلادي، فقد درس أيضا فلسفة أرسطو وشرحها مثل فيلو بونس، وحاول فيما يبدو أن يثبت عن طريقها ضعف المذهب المونوفيزيتي، فأنكر ذلك أهل الإسكندرية(١٣١)، واشتد البطريرق في تحذيره، ولكنه لم ينصت ولم يكف عن بث تعاليمه، بل إنه تحول في النهاية إلى المذهب الخلقدوني الذي يناهض مذهب أهل الإسكندرية، ثم غادر إسطفان في النهاية الإسكندرية(١٣٢).

ونختم حديثا عن الحياة العقلية في الإسكندرية بالإشارة إلى الحركة الأدبية في مدينة الإسكندرية في العصر البيزنطي، لأن النشاط الفكري الغزير استمر بالإسكندرية إلى نهاية ذلك العصر، وطوال القرنين الخامس والسادس الميلاديين(١٣٣). فقد اشتهر المصريون كثيرا بولعهم بالشعر وقرض الشعر كما شغفوا أيضا بالآداب العاطفية أو الرومانتيكية، ويدل على ذلك كتابات كثير من الكتاب سواء أكانوا وثنيين أو مسيحيين، فقد ظل أرباب الثقافة في الإسكندرية البيزنطية يقدسون الماضي ويزدادون تعلقا بتقاليد الحضارة الهللينية ويتذاكرون أمجادها، على الرغم من أن هذه كانت قد أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتقترب من نهايتها في القرن السادس الميلادي(١٣٤).

ويدل ما عثر عليه من برديات ذلك العصر على ذيوع الأدبيين اليوناني والروماني والاهتمام بالشعر القديم. إذ جرى حـ دراسة بعض الشعراء

---

(131) Hardy :op. cit .p. 102و٢٨٠-٢٨١ العريني: المرجع السابق ص
(132) Diehl:op. cit .p.162
(133) Bell:op. cit.p.127
(134) Vasiliev: op. cit.1,p.187

القدامى والتعليق على أشعارهم وأغرم كثير من الأدباء بالشعر اليوناني وقرضوا الشعر وأظهروا ميولا أدبية واضحة [١٣٥]، وصنف البعض الآخر معاجم يونانية وأخرى قبطية، مما يؤكد الإلمام بالأدب القديم، والاستفادة من الآداب الكلاسيكية واقتنى كثير من الناس في الإسكندرية وفي أنحاء مصر المخطوطات والنصوص القديمة، وأظهروا اهتماما بالغا بالثقافة والأدب الهلليني[١٣٦].

أما عن الجوانب الفنية في مدينة الإسكندرية في العصر اليزنطي والتي تشمل الرسم والتصوير والنحت وزخرفة المنسوجات، فقد حاز مهندسو الإسكندرية وفنانوها شهرة ذائعة في مجال الرسم والتصوير [١٣٧] في ميدانين، الأول منهما هو الرسم والتصوير على جدران العمائر والقصور والمباني والميدان الآخر هو رسم وتصوير وتزيين الكتب والمخطوطات.

فقد استخدموا مهندسو الإسكندرية الأساليب بالغة الجمال لإظهار الأبهة والعظمة في مباني الإسكندرية وقصورها، فقد كسوا جدران هذه العمائر بطبقة من الرخام الثمين أو العاج أو بأستار من النسيج المزركش أو بطبقة من الصفائح المعدنية، فاختفى الجدار البسيط وراء هذا الغطاء والسميك، وأفادوا كثيرا مما توفر بالبلاد من المواد الخام والمواد الثمينة والصناعات في هذه الزخارف [١٣٨].

كما حرص الفنانون على إكساب هذه الجدران وكسوتها لمعانا وجمالا، فرسموا الصور البارزة وجعلوها وكأنها جزءا من الحائط أو الجدار فبدت وكأنها صورا حية، ولهذا أعجبت روما كثير بهذا الفن السكندري، ونقلت

---

(135) Bell: op.cit. p. 128
(136) Vasiliev : op. cit 1,p.187

(١٣٧) مراد كامل: المرجع السابق ص ١٤٢-١٤٣

(١٣٨) العريني: المرجع السابق ص ٢٨٢

هذا النوع من الزخرفة إلى إيطاليا فظهر في جدران مباني مدينة بومبي بإيطاليا، كما أعجب به البيزنطيون أيضا فزخرفوا قصورهم وكنائسهم بالرخام والصفائح المعدنية والعاج على طريقة أهل الإسكندرية (١٣٩)، وعلى هذا كان أهم خصائص الفن السكندري في مجال الرسم والتصوير أنه فن زخرفي.

والمعروف أن الإسكندرية كانت مدينة اللهو والمرح والحب، ولهذا حرص أهلها على إن يجدوا من العناصر الزخرفية ما يشبع أذواقهم لتصوير المحبين والعاشقين، ورسم المناظر الجميلة الخلابة التي يدور موضوعها حول المرأة والحب، وكذلك نقل الصور العاطفية أو الرومانتيكية وصور القصص والأساطير الغابرة، وما حفلت به العصور السابقة من قصص رائعة وصور جميلة(١٤٠).

كما أحب السكندريون الطبيعة والزهور والحدائق والحقول وعناصر الطبيعة الصامتة فأثرت البيئة على الخيال الفني|، فزخرف السكندريون بأوراق النبات أو الفروع النباتية ، خاصة شجر العنب وشجر الرمان أو سعف النخيل ونبات اللوتس، وبعضها كان يعبر عن ظواهر الطبيعة كمداعبة الهواء لأوراق الشجر (١٤١)، مثلما أحبوا صور الحياة الصاخبة التي شغفوا بها، لأنها تتفق مع ما اشتهروا به من الميل للمرح والفكاهة وحب السخرية وسرعة الخاطر، ولهذا انعكست كل هذه المعاني في فنونهم في مجال الرسم والتصوير(١٤٢).

---

(139) Diehl: op .. cit.p. 494
(140) Ibid, p.494

(١٤١) مراد كامل : نفس المرجع ص ١٤٣

(142) Rice :Byzantine Art, p. 167

ولا حظ الدارسون لفنون الإسكندرية في ذلك العصر، أن فن الرسم والتصوير استمد أصوله من الفن الهلنستي ولكنه نشأ ونما وترعرع في ظل الكنيسة وفي خدمتها، ولهذا حرص فنانو الأسكندرية على أن يكسبوا فنونهم مسحة مسيحية ، وأن تكون فنونهم معبرة عما جاءت به المسيحية من تهذيب لكل ما كان موروثا عن الماضي ، فصور الفنانون القديسين والشهداء واختاروا موضوعات من الكتاب المقدس(١٤٣)، ومن الأمثلة على ذلك تلك الصور التي وجدت بمقابر الإسكندرية والتي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، والتي انتقل تأثيرها من الإسكندرية إلى بقية أنحاء العالم المسيحي، حيث انتشرت مؤثرات هذا الفن السكندري، وتغلغلت في فنون العالم المسيحي(١٤٤)، حين تقبلت الكنائس في كل مكان مؤثرات الفن السكندري عن طيب خاط، وقبل القائمون عليها أن تزين كنائسهم بما ابتدعته الإسكندرية من وحدات زخرفية من الرسوم الدينية المصورة وصور الطيور والزهور ومناظر الصيد والقنص على ضفاف النيل، وذلك في القرنين الرابع والخامس الميلاديين(١٤٥).

ويؤكد الدارسون لفنون الإسكندرية في العصر البيزنطي أن الأثر الهلليني في مجال الرسم والتصوير ظل قويا شطرا كبيرا من تلك الفترة البيزنطية في مصر، وكان واضحا في الزخارف التي زينت بها الكنائس وفي الصور الآدمية، خاصة في تفاصيل الوجه الإنساني. ومحاولة إظهار تعبيره عن الحزن أو الفرح أو الدهشة أو الاستنكار أو غير ذلك من التعابير(١٤٦)، ووضح ذلك كله في الأيقونات المكتشفة في أماكن متعددة من مصر ، وصور

---

(١٤٣) مراد كامل : المرجع السابق ص ١٤٣

(144) Deihl: op. cit. p. 494

(١٤٥) العريني : المرجع السابق ص ٢٨٥

(146) Vasiliev: op. cit. vol . 1,p.127

الأساقفة والرهبان، فضلا عن صور أخرى تمثل الحياة الواقعية والأغراض الدنيوية.

وظهر هذا الأثر الهلليني أيضا في الصور والرسوم التي تزين الكتب والمخطوطات، فقد كان تزيين المخطوطات فنا من الفنون الشائعة في الإسكندرية في العصر البيزنطي، بل زين المصريون صحائف الكتب بالرسوم ذات الألوان الزاهية الثابتة فبهر جمال زخرفتها كل من رآها في ذلك الوقت[١٤٧]، بل يرجح المؤرخون أن هذا الفن بالذات خلق في الإسكندرية مهنة تصوير وتزيين بعض الكتب والمخطوطات المسيحية منها كتاب مزامير داود المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس، إذ تدل الصور التي يزدان بها هذا المخطوط على أن رسمه وتصويره وتزيينه ، إنما حدث في الإسكندرية ، فقد حوى مناظر ورموز وألوان براقة زاهية تتطابق مع روح الفن السكندري في ذلك العصر [١٤٨].

ومنها أيضا الكتاب المقدس أو مخطوط الكتاب المقدس ، لأن الصور التي ازدان بها تتطابق مع الفن السكندري، ومنها كذلك مخطوط تاريخ يوناني كتب على أوراق البردي، تؤكد الصور التي ازدان بها أن الفنان الذي رسمها، إنما ينتمي إلى هذه الفئة المتأثرة بالفنون الهللينية مع ما أثارته فيه المسيحية من روح قومية في الإسكندرية[١٤٩].

وهكذا ترعرع الفن السكندري الوطني بما تأصل فيه من مؤثرات قديمة يونانية وهللينية، ثم بدأ الفن الوطني بعد ذلك يتخلى عن المؤثرات اليونانية

---

(١٤٧) مراد كامل : المرجع السابق س ١٥٠

(148)Diehl: op .cit. p. 495

(١٤٩) العريني. المرجع السابق ص ٢٨٦-٢٧٨

والهللينية، وعن الزخرفة الجذابة وينزع إلى أسلوب جديد يعبر به عن الروح القومية في الإسكندرية ليجبر الفن الهلنستي على أن يخلى مكانه للفن الوطنى الأقوى، خاصة وقد كانت الهلنستية قد أخذت تذوي في القرن السادس الميلادي (١٥٠)،وليس من شك في أن الرهبان في الأديرة أتقنوا هذا الفن، فقد نسخوا الكتب وزخرفوها بمختلف الزخارف الملونة الجميلة، كما تفننوا في رسم الرسوم إلى جانب ما اتقنوه من حرف أخرى (١٥١)، واضطرت بيزنطة ذاتها إلى أن تنقل عن الفن السكندري وتحاكيه في كل ما يتعلق بالصور الدينية وصور المخطوطات وما زينت به من رسوم(١٥٢).

أما بالنسبة للنحت فقد تفوقت الإسكندرية كثيرا في هذا الفن في العصر البيزنطي، يدل على ذلك الكم الهائل من التحف المحفوظة في نحو عشرين متحفا عالميا كلها تشهد بما كان للإسكندرية من نشاط فني في مجال النحت وما كان لفنانيها من قدرة إبداعية في هذا المجال، فيما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين(١٥٣) فقد استخدم الفنان السكندري منذ زمن مبكر الحجر السماقي الذي يستخرج من المحاجر المصرية، في أعماله الفنية، فصنع فنانو الإسكندرية التوابيت الرائعة التي تحتفظ الفاتيكان بعددمنها والتي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، وكذا تابوت القديسة كونستانس وتابوت القديسة هيلانة، وأبدع الفنان السكندري في نحت رسوم هذه التوابيت، التي تتكون

(150) Bell:op-cit. p. 127

(١٥١) مراد كامل المرجع السابق ص ١٥٠

(152) Diehl: op.cit. p. 496

(153) Vasiliev : op, cit. vol 1,pp.126-7

من أكاليل الزهور ومن أطفال عراة يرقصون بين أشجار الكـروم، وإن بـدا في هذه النماذج تأثر فن النحت بالفن الهلنستي(١٥٤).

وأبدع الفنان السكندري أيضا في النحـت علـى الأدوات المصنوعـة مـن العاج التي كان لها بسوق الإسكندرية التجارية أهمية وشهرة تجارية منـها: اللوحات المصنوعة من العاج ومن العظام التي عثر عليها في مقابر الإسكندرية بأشكالها الجذابة وما اتبع في نحتها من أساليب جميلـة(١٥٥)، ومنـها الصور الرائعة المحفورة على الكرسي المحفـوظ في كنيسـة إكس لا شـابل ، والـتي تمثل صور عرائس البحر أو الحوريات بين أغصان الكـروم وعددهـن خمسـون يمثلن على شكل فتيات عرايا جميلات يركبن أحيانا حيوانات بحريـة(١٥٦)، ومنها كذلك التحفة العاجية بمتحف اللوفر بباريس والتي تصـور قنسـطنطين كحامي المسيحية في هيئة الفارس المنتصر، وهناك بمتحف اللوفر أيضا قطعـة من العاج تمثل القديس مرقس بين خلفائــة البطارقـة، ومنـها أيضـا أروع مـا انتجه هذا الفن من المتحف، تلك اللوحة التي تمثل بعض العساكر يغطون في نومهم قرب القبر المقدس والقديسات عند المقبرة، وتعتبر هذه اللوحة من أروع الأعمال الفنية السكندرية، والتي ترجع إلى القـرن الرابـع الميـلادي، وأخـيرا هناك قطعة أخرى محفوظة بالمتحف البريطاني، تمثل أحـد الملائكـة يرجـع تاريخها إلى القرن السادس الميلادي(١٥٧).

---

(154) Diehl: op. cit. p. 496

(١٥٥) العريني : المرجع السابق ص ٢٨٩

(١٥٦) سعاد ماهر وحشمت مسيحة: منسوجات المتحف القبطي ص ٦١

(157) Diehl :op. cit. p. 496

ويتضح من النحت على العاج الذي جرى صنعه في مصر، اتجاه الفنان السكندري نحو الأسلوب التقليدي مع ازدياد تغلغل المؤثرات الشرقية في فنون النحت السكندرية بجانب المؤثرات الهلنستية المعروفة والتي أشرنا إليها[١٥٨]وتتضح هذه الاتجاهات بصفة خاصة في قطعة العاج المحفوظة في متحف اللوفر، والتي تمثل القديس مرقس بين خلفائه البطارقة. ولقد لاحظ الدارسون لهذه الاتجاهات في فنون النحت السكندري أنه تطرقت إلى فنون الإسكندرية في هذا المجال في القرنين الخامس والسادس الميلاديين مؤثرات شرقية بجانب التقاليد اليونانية القديمة[١٥٩]. فضلا عما تغلغل من روح قومية مصرية رآها الدارسون تيارا جارفا من الواقعية قد أخذ ينفذ إلى الآثار الجميلة، وتفسير ذلك أن الإسكندرية لم تكن وحدها المكان الوحيد المتحكم في فن النحت، وإنما كان من ورائها كل القطر المصري ، حيث الطابع الحقيقي وما كان يسود بقية البلاد من روح قومية، بعد أن ذوت وذبلت الهلنستية وتداعت في القرن السادس الميلادي[١٦٠].

وربما لهذا لم تنل بعض التماثيل والآثار المصرية شيئا من إعجاب بعض الكتاب الأجانب لما تغلغل فيها من روح قومية مصرية، فضلا عن تغلغل التيارات والمؤثرات الشرقية، فرأى فيها هؤلاء الكتاب بعض مظاهر الإسراف والبعد عن النماذج التي عهدوها قبل ذلك في فنون الإسكندرية في العصرين اليوناني والروماني وبداية العصر البيزنطي[١٦١].

---

(158) Lot: op. cit .p. 136
(159) Vasiliev :op.cit. vol.1,pp.126-7
(160) Bell:op. cit. p.127

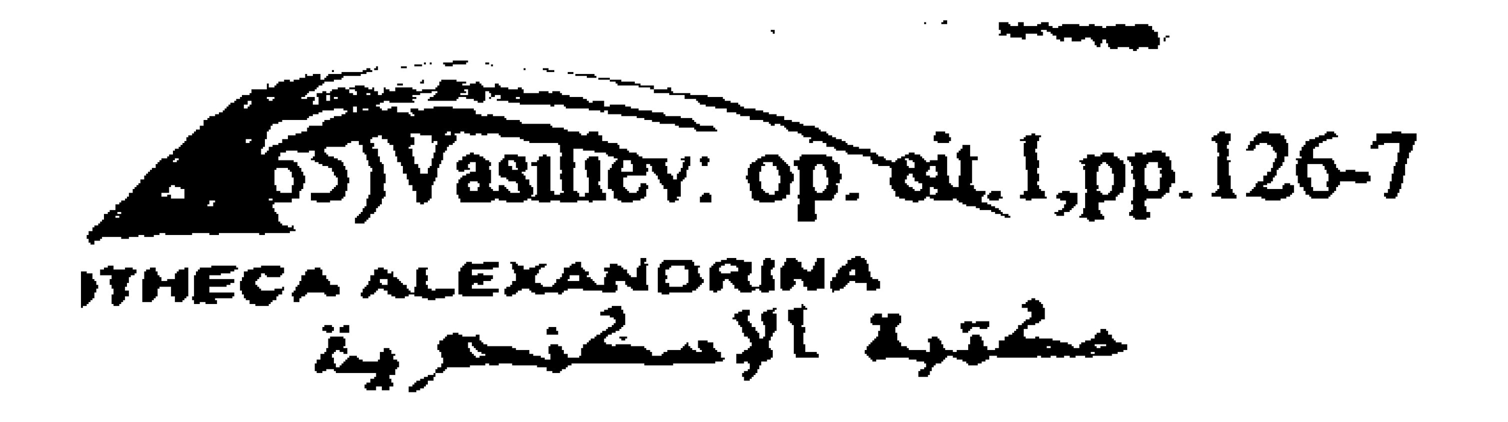
(١٦١) العريني : المرجع السابق ص ٢٩٠

أما بالنسبة لزخرفة المنسوجات،فقد حازت فيها الإسكندرية شهرة عظيمة في ذلك العصر أيضا، إلى جانب الشهرة التي حازتها في الميدانين الآخرين: الرسم والتصوير، والنحت. فقد زخرفت الإسكندرية المنسوجات والأقمشة المطرزة وصبغتها بعناية كبيرة ، حتى غدا لهذه الأقمشة أهمية خاصة في فنون الإسكندرية(١٦٢)، نظرا لسهولة نقلها من مكان إلي مكان وتصديرها إلى أسواق كثيرة في الشرق وفي الغرب أيضا،ولهذا فاقت هذه الأقمشة غيرها من المصنوعات والتحف في إطلاع الناس على تفوق الإسكندرية في هذا الفن، بأسلوبها المميز في زخرفة المنسوجات، ويبدو أن تفوق الفنون البيزنطية بصفة خاصة في القرن السادس وعصر جستنيان بالذات هو الذي جعل المؤرخين يطلقون على ذلك العصر، العصر الذهبي الأول للفنون البيزنطية(١٦٣)، وكان تفوق الإسكندرية ومصر بصفة خاصة صدى لتفوق الفنون البيزنطية عموما.

وأسهمت هذه المنسوجات المزخرفة أيضا في تقدم فن الأيقونات المسيحية، إذ رسم على أرضيتها صور الأشخاص أو ازدانت بالزخارف والألوان المتباينة ، وحفلت أيضا بصور المناظر الأسطورية ونقوش من الأساطير القديمة(١٦٤)، أو بقصص الصيد والقنص أو بالصور المستمدة من حياة السيرك، واتخذت إما ملابس أو ستائر أو بسط، كما زينت بها الكنائس واجتمعت في هذه الزخرفة المؤثرات الهللينية والشرقية معا (١٦٥).

---

(162) Diehl:op. cit .496
(163) Vasiliev: op. cit. vol.1,p.128
Dalton: Byzantine Art and Archaeology, p. 10
(١٦٤) مراد كامل: المرجع السابق ١٤٨


(165)Vasiliev: op. cit.1,pp.126-7

وتميزت المنسوجات التي زينت بها الكنائس بالذات بصور ومناظر مستمدة من الكتاب المقدس كرسم الشهداء المشهورين وصور رمزية تمثل المعجزات التي أختص بها السيد المسيح عليه السلام، وصور القديس بطرس يتلقى المزامير من يد السيد المسيح وغيرها من الصور الدينية، على الرغم من أنه اختلطت أحيانا مناظر العهد القديم بمناظر العهد الجديد، فرسمت قصة سيدنا يوسف التي أحبها المصريون كثيرا، كما رسمت صور القديس بطرس والقديس بولس، وحفلت بعض هذه المنسوجات يصور ورسوم اعتبرت أشبه باللوحات[١٦٦].

وكان لهذه المنسوجات الأخيرة بالذات أثر عظيم في انتشار هذا الفن في كل أنحاء العالم المسيحي لأن هذه المنسوجات والأقمشة التي حفلت بصور ومناظر الكتاب المقدس حملت إلى كل أنحاء العالم المسيحي، فأكدت تفوق الإسكندرية في هذا الفن من ناحية وأثرت في فنون العالم شرقا وغربا من ناحية أخرى[١٦٧]، وحرصت كنائس روما على طلب الطنافس الشرقية والمنسوجات المصرية السكندرية المزخرفة، كما حرصت بيزنطة على التماس هذه المنسوجات المزخرفة ومحاكاة فنون الإسكندرية وتقليد النماذج السكندرية لقربها من ناحية ، ولأن مصر كانت إحدى الولايات التابعة لها من ناحية أخرى، ولهذا فلقد أكملت المنسوجات السكندرية المزخرفة نضوج الفن المسيحي ونقله إلى العالم كله وأعطتنا في نفس الوقت صورة لما كانت عليه الفنون في هذا المجال في العصر البيزنطي في مصر[١٦٨].

---

(١٦٦) العريني: المرجع السابق ٢٩٢

(167) Diehl: op.cit p.

(١٦٨) مراد كامل: نفسه ص ١٥٠

ونظرا لأن مصر اشتهرت من قديم الزمن بمنسوجاتها المتنوعة مثل المنسوجات الرقيقة المصنوعة من الكتان أو الحرير فقد أبدع فنانو الإسكندرية في زخرفة في هذه المنسوجات بصفة خاصة بالصور وبالألوان الجميلة البراقة، واستخدموا فيها أساليب وأنماط مختلفة فاجتمعت فيها أحيانا الأصول الهلنستية والمؤثرات الشرقية[١٦٩] ، فضلا عما انساب فيها من تيار قومي يعبر عن الروح القومية لا سيما في النصف الأخير من العصر البيزنطي خاصة في القرن السادس الميلادي بعد تداعي الهلنستية وموتها في تلك الفترة [١٧٠] و بذا أكملت زخرفة المنسوجات السكندرية ما سبق أن عرفناه من صور الفن المسيحي في مصر البيزنطية.

---

(169) Vasiliev: op. cit. 1,p.128
(170) Bell: op. cit.1,p.127



